الفصل الأول

النداءات والأحكام الموجهة إلى الرسول ﷺ

التثبيت وعدم الخوف

قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ (١) .

*** سبب نزول الآية :**

تعددت الآراء فى سبب نزول الآية . ولكن الأرجح والذى يتمشى مع روح الآية . هو أن يهوديا ويهودية ارتكبا جريمة الزنا . فجئ بهما إلى النبى محمد عليه السلام . فقال : ائتونى بأعلم رجلين منكم . فجاءوا بابنى صوريا فنشدهما الله تعالى . كيف تجدان أمر هذين فى التوراة ؟ قالا : نجد فى التوراة إذا شهد أربعة رأوا ذكره فى فرجها كالمرود فى المكْحلة رُجِمَا . قال : فما يمنعكما أن ترجموهما ؟ قالا : ذهب سلطاننا فكرهنا القتل .

---

(١) سورة المائدة آية ٤١

فدعا النبى (صلى الله عليه وسلم) بالشهود فجاءوا فشهدوا أنهم رأوا ذكره فى فرجها كالميل فى المُكْحَلة . فأمر النبى عليه السلام برجمهما . [1]

● وفى الجزء الأول من الآية إيناس لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتأكيد نصر الله له . وكأنه تعالى يقول لرسوله : لا يحزنك مسارعتهم إلى الكفر فنحن معك بعوننا مهما تألبوا عليك ومهما مكروا ودبروا فإن مكر الله بهم أقوى وتدبيره أحكم .

● وقد جمع الله فى الآية اليهود والمنافقين لتعاونهم معا ضد الحق ومحاولتهم إثناء الداعية عن مهمته .

● أما اليهود . فلأنهم درجوا حتى فى عهد أنبيائهم على المكر والمخادعة والعدوان . حتى أصبح الشر يجرى فى عروقهم مع دمائهم . ولم يقتصر عدوانهم على الخلق بل وصل إلى الكتب المنزلة على الأنبياء .

فحرفوها وزادوا عليها ونقصوا منها حسبما يتمشى مع أهوائهم الخبيثة . واجترأوا على تفسير أحكامها بما يخالف المقصود منها . وذلك لينالوا مأربا دنيوبا حقيرا أو بحققوا هدفا سياسيا .

* ومن هنا وجدنا « الحاخامات » اليهود يضعون للتوراة . تفاسير أطلقوا عليه أسم « التلمود » وأعتبروا هذا « التلمود » أقدس من التوراة نفسها وظهر هذا فيما نسبوه إلى النبى « أشعياء » من قوله : الشريعة ـ التوراة ـ كالملح والمشناة ـ شرح التوراة ـ كالبهار . والجمارا ـ التعليق على التوراة وشرحها ـ كالتوابل إن الذين يدرسون التوراة يُحتمل أن يكون عملهم فضيلة أو غير فضيلة أما الذين يدرسون المشناة فإنهم يمارسون الفضيلة ويثابون عليها إلا أن الذين يدرسون الجمارا فإنهم يكتسبون أعظم فضيلة وأسماها . وأن من يحتقر كلمات الربانيين ـ رجال الدين اليهود ـ يستحق الموت .

* هذا بالنسبة لاحتقارهم التوراة . وأما تظاهرهم الآن بالتمسك باليهودية . فليس حقيقة ولكنه لهدف سياسى لا يخفى على العقلاء حتى من اليهود الذين يعيشون خارج

---

(١) روى هذا الحديث مالك والبخارى والترمذى واللفظ لأبى داود عن جابر بن عبدالله .

الأرض المحتلة فى فلسطين . ولأن الإسرائليين يمثلون العنصرية المادية .

وأما ذِكْر المنافقين فى الآية مع اليهود فذلك لأنهم كانوا يجلسون إلى رسول الله (ﷺ) فيستمعون مواعظه وتعاليمه ثم ينفضون من مجلسه مُضْمرين الكفر فى قلوبهم عازمين على تبديل ما سَمِعُوا ليشوهوا تعاليم الإسلام .

ثم تعود الآية لتؤكد صفات اليهود وبعض المنافقين فتجملها فى أمور منها .

(١) أنهم سماعون للكذب الذى يحكيه لهم رؤساؤهم من تحريف التوراة .

(٢) أنهم يسمعون كذلك من المنافقين ما ينقلونه من حديث رسول الله ﷺ بعد تشويهه وإدخال الأكاذيب فيه هؤلاء المنافقون الذين يمثلون ما يعرف فى العصر الحديث بأسم « الطابور الخامس » الذى يتلقف الأخبار ثم يذيعها مشوهة وصدق سفيان بن عيينه حين قال : إن الله سبحانه ذكر الجاسوس فى القرآن بقوله : ﴿ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ﴾ (١)

(٣) تحريض الناس على عدم إتباع أحكام القرآن خاصة فى جريمة الزنا .

ولقد ورد أن الزانيين اللذين نزلت الآية فى حقهما كانا من أهل « خيبر » وقيل من « فدك » وكانوا محاربين لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فبعثوا بالزانيين إلى يهود « يثرب » ليسألوا لهم النبى ﷺ عن حكم الزنا . وقالوا للمبعوثين : لو أفتاكم فيهما بغير الرجم فخذوا بحكمه . والا فاحذروه . وفى هذا يقول ربنا سبحانه فى هؤلاء اليهود المحرضين على أحكام الإسلام المتمشية مع أحكام التوراة ﴿ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا ﴾ (٢) .

وكانوا يجلدون الزناة ويطْلُون وجوههم بالقَار ويَعْرِضُونهم على الناس توبيخا لهم

---

(١) سورة المائدة آية ٤١

(٢) سورة المائدة آية ٤١

ثم دلت الآية أيضا على أن الهداية والإضلال من عند الله تعالى بداية ﴿ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ﴾ [1] حيث ختم عليها بالكفر فى الوقت الذى طهر فيه قلوب المؤمنين بالإيمان وأنار نفوسهم باليقين .

(٤) ثم أثبت صفة أخرى لليهود هى أكلهم للسحت - الحرام - واجتراؤهم على تحصيل الخبيث من المال دون مبالاة .

وبين الله سبحانه لرسوله عليه السلام بأنه مخير فى الحكم بينهم . إن شاء حكم لهم وإن شاء ردهم وأكد له عند حكمه بينهم أن يكون بالحق ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ﴾ [2] ومَنْ يَعدِلُ إذا لم يعدل الصادق الأمين الذى يعلم حقيقة قول ربه سبحانه ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [3] .

ضرورة تبليغ الرسالة :

قال الله تعالى

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [4] .

سبب نزول هذه الآية :

ورد فى سبب النزول : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل تحت شجرة وعلق سيفه بها . فجاء أعرابى فاستل سيف رسول الله ﷺ . وقال : من يمنعك منى ؟ فقال : الله . فذعرت يد الرجل وسقط منها السيف . وضرب برأسه الشجرة حتى انتثر دماغه . فعفا النبى صلى الله عليه وسلم عنه فرجع الرجل إلى قومه وقال لهم : جئتكم

---

(١) سورة المائدة آية ٤١

(٢) سورة المائدة آية ٤٢

(٣) سورة المائدة آية ٤٤

(٤) سورة المائدة آية ٦٧

من خير الناس « وفى رواية أخرى » فدعاه الرسول إلى الإيمان فأبى . وقال له : لا : غير أنى لا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك . فنزل قول الله تعالى ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ . . .

* وفى الآية تثبيت لرسول الله وتأكيد معية الله له حتى يبلغ رسالته إلى كل من كلف بتبليغه ممن يتأتى منه السماع والفهم .

وفيها كذلك أمر صادر إليه ﷺ بضرورة تبليغ كل ما أنزل إليه من ربه . وعدم كتمان شئ منه لأن كتمان البعض يخل بالكل . ويعتبر خيانة . وهى مستحيلة فى حق الرسل . وليس معنى هذا الأمر أن الرسول ﷺ كتم شيئا . حاشا لرسول الله أن يفعل ذلك . ولكن المقصود منه بيان أمانة الرسول ومهمتة المنوطة به ومن أجل ذلك وجب على كل مسلم أن يعرف أن من بين الصفات الواجبة للرسل صفة « التبليغ » ، والأمانة .

ومن هنا تقول السيدة عائشة ـ رضى الله عنها : « من حدثكم أن رسول الله صلى الله وسلم كتم شيئا مما أمر بتبليغه فلا تصدقوه » .[1]

وأيضا قوله ﷺ فى حَجَّة الوداع : ألا هل بلغت ؟ قالوا : اللهم نعم . قال : اللهم فاشهد . ليبلغ الحاضر الغائب .

وكيف يقصر فى تبليغ رسالته أوشئ منها .

وهو الذى سيشهد يوم القيامة لإخوانه الرسل بأنهم بلغوا رسالاتهم إلى أممهم وذلك بنص الكتاب الحكيم ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [2] .

---

(١) راجع أسباب النزول للنيسابورى والجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبى «تفسير المائدة» .

(٢) سورة النساء آية ٤١

النهى عن طاعة الكافرين والمنافقين

قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (١)

*** مقدمة بين يدى الآية :**

نبذة عن التقوى : تكرر الأمر بالتقوى ومشتقاتها فى القرآن الكريم قرابة مائتين وثمان وستين مرة . ولذلك حرص الرسول عليه السلام على تأكيدها لأصحابه ولكل مسلم حتى يكونوا على علم بمافى التقوى من خير . روى عن أبى سعيد الخدرى أنه قال : جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يانبى الله أوصنى . فقال : « عليك بتقوى الله فإنها جماع كل خير وعليك بالجهاد فإنه رهبانية المسلم وعليك بذكر الله فإنه نور لك فى الأرض وذكر فى السماء » (٢)

وقال طلق بن حبيب : التقوى عمل بطاعة الله على نور من الله مخافة عقاب الله . ويرى الصوفية أن التقوى على وجوه : تقوى العامة وهى تقوى الشرك ، وتقوى الخاصة وهى تقوى المعاصى ، وتقوى الأولياء وهى تقوى التوسل بالأفعال ، وتقوى الأنبياء وهى تقوى نسبة الأفعال . إذ تقواهم منه إليه .

من هنا وجدنا معظم الأوامر الصادرة من الله تعالى مبتدئة بالتقوى . ثم يليها مباشرة الأمر المراد تنفيذه أو التوجيه المطلوب .

كما نعلم أن طلب التقوى من النبى صلى الله عليه وسلم ومن المؤمنين هو الثبات عليها وطلبها من غيرهم هو الأمر باتباع طريق الخشية من الله وخوف عقابه تعالى .

---

(١) سورة الأحزاب آية ١

(٢) رياض الصالحين

سبب نزول هذه الآية :

روى أن سبب النزول هو أن أبا سفيان بن حرب وعكرمة بن أبى جهل وأبا الأعور عمرو بن سفيان قد نزلوا المدينة على عبد الله بن أبيٍّ بن سلول رأْس المنافقين بعد أحد وقد أعطاهم النبى ﷺ الأمان على أن يكلموه .

فقام معهم عبد الله بن أبى سرح وطعمة بن أبيرق . فقالوا للنبى صلى الله عليه وسلم وعنده عمر بن الخطاب : ارفض ذكر آلهتنا اللات والعزى ومناة . وقل إن لها شفاعة ومنعة لمن عبدها ونَدعُك وربك . فشق على النبى صلى الله عليه وسلم ما قالوا . فقال عمر : يارسول الله ائذن لى فى قتلهم . فقال النبى عليه السلام :«إنى قد أعطيتهم الأمان» فقال عمر : اخرجوا فى لعنة الله وغضبه . وأمر النبى عليه الصلاة والسلام أن يخرجوا من المدينة . فنزلت الآية آمرة النبى بعدم طاعة هؤلاء وبالثبات على الحق واتباع وحى الله سبحانه . وعدم الميل اليهم . [1]

ويفهم من الآية أن النبى ﷺ كان قد مال إليهم بعض الميل ليخففوا من غلوائهم ضد الإسلام . ولاستمالتهم .

فأخبره ربه العليم الخبير بأنه لو كان فى ميله إلى مهادنتهم خير يرجى . مانهاه الله عن اتباعهم . ولكنهم ماكرون مراوغون . ثم أمره بالتوكل على الله وحده فهو نعم الناصر .

★ ★ ★

---

(١) أسباب النزول للنيسابورى

تخيير نساء النبى ﷺ بين الدنيا والآخرة

قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (١)

المقصود بالتخيير هو عرض النبى ﷺ على زوجاته أن يخترن بين أمرين : الإقامة معه على العسر واليسر أو الطلاق . وذلك بعد ما حدث منهن مما سنعرف من سبب النزول .

*** سبب نزول هاتين الآيتين :**

قام بعض زوجات الرسول ﷺ بمظاهرة صغيرة طلبْن فيها منه ﷺ الزيادة فى النفقة والتنعم بطيبات الحياة . فتأذى الرسول ﷺ من هذا المسلك الذى لا يليق بأمهات المؤمنين .

وقد أوضح الحديث التالى هذه الحادثة (دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله فوجد الناس جلوسا ببابه لم يأذن لأحد منهم)

قال الراوي . فأُذن لأبى بكر فدخل ثم جاء عمر فاستأذن فأُذن له فدخل فوجد النبى صلى الله عليه وسلم جالسا حوله نساؤه واجما ساكنا . فقال عمر والله لأقولن شيئا يضحك رسول الله ﷺ .

فقال : يارسول الله لو رأيت بنت خارجه سألتنى النفقة فقمت إليها فوجأت عنقها فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : هن حولى كما ترى يسألننى النفقة فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ ـ يلوى ـ عنقها . وقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها . كلاهما يقول : تسألن رسول الله صلى الله عليه وسلم ماليس عنده .

---

(١) سورة الأحزاب آية ٢٨ ، ٢٩

ثم اعتزلهن رسول الله ﷺ شهرا . أو تسعا وعشرين يوما . ثم نزلت الآية . قال الراوى فبدأ بعائشة فقال : « ياعائشة إنى أريد أن أعرض عليك أمرا أُحِبُّ ألا تعجلى فيه حتى تستشيرى أبَويْكِ » قالت وما هو يارسول الله : فتلا عليها الآية قالت : أفيك يارسولَ الله ﷺ أستشير أبوى بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة وأسألك ألا تخبر امرأة من نسائك بالذى قلت قال : « لا تسألنى امرأة منهن إلا أخبرتها . إن الله لم يبعثنى معنتا ولكن بعثنى ملحا وميسرا »[1] .

والحكم الذى يؤخذ من الآية والحديث : هو ان المرأة إذا خيرت فاختارت البقاء مع زوجها لم يكن التخيير من الزوج طلاقا . أما إذا اختارت نفسها وأحبت البعد عن زوجها كان ذلك بمثابة الطلاق ولزوجها مراجعتها . والله أعلم .

★ ★ ★

(١) حديث صحيح رواه البخارى ومسلم عن جابر بن عبدالله

تكريم وإيناس

قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [1]

تلهف العالم إلى وجود مرشد يأخذ بيده وانتظر ذلك طويلا المنجمون ينظرون فى النجوم وأهل الكتاب يجدون صفة ذلك المرشد فى كُتبهُم وأخيرا ظهر نور الوجود المبشر للمتقين بحسن الجزاء والمنذر للعصاة المخوف لهم من عذاب الله الداعية البليغ الذى يسوقهم إلى الله سوقا هينا ويأخذ بتلابيب قلوبهم ومجامع أنفسهم حتى لا يغتالها الشيطان فيُلقى بها فى جُبِّ الخطايا والآثام ظهر السراج المنير الذى أضاء للبشرية طريقها . وأجلى عنها غياهب الضلال وبدد سحابة الشرك بحرارة التوحيد فكان عليه الصلاة والسلام السلسبيل العذب فى بيداء الحياة الجافة بعد إقفار الأرض من الدعاة . كان الزاد الذى أدرك الأرواح الجائعة فغذاها باليقين .

من هنا وجدنا الآيات تتضمن إيناساً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين السائرين تحت جناح وفى الوقت ذاته فيها تكريم لهم جميعا .

قال ابن عباس رضى الله عنه : (لما نزلت هذه الآية دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا ومعاذا فبعثهما إلى اليمن وقال : « إذهبا فبشرا ولا تنفرا . ويسرا ولا تعسرا فإنه قد أُنزل علىَّ وتلا . الآية ». [2]

---

(١) سورة الأحزاب آية ٤٥ ـ ٤٨

(٢) الجامع لأحكام القرآن مجلد ٦ ص ٥٢٨٣

والآية تبين أن الرسول عليه السلام سيشهد على أمته بأنه بلغهم دين الله . وعلى سائر الأمم بأن أنبياءهم قد بلغوا رسالات الله إليهم وأنه عليه السلام يبشر المؤمنين برحمة من الله وفضل ويحذر العُصاة من النار التى وصفها الله بقوله : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۝٢٨ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۝٢٩ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ (١)

وأن ما مع رسول الله من الشرع ينير للناس الطريق . وأنه فى النهاية مأمور بأن يبين أن الجنة فى انتظارهم كما بين ذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ (٢)

ثم كرر الله الأمر لنبيه ـ كما أمره فى أول السورة ـ بألا يطيع الكافرين والمنافقين فى مداهناتهم أو ممالأتهم . كما بين ذلك أيضا فى سورة « القلم » فقال : ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴾ (٣) الآيات وطلب منه بعد ذلك ومع ذلك العفو عنهم علهم أن يعودوا إلى ربهم وتؤنبهم ضمائرهم .

ولكنَّ دأبه ﷺ التوكل الدائم عليه سبحانه . وكفى به وليا للمتقين وكفى به نصيراً للآخذين بالأسباب . وأن يعتصم بحبل الله ولا يهادن أعداء الحق مهما كثرت جموعهم وأشتدت شوكتهم فقال : ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ (٤) والحقُّ غلاّبٌ دائم النصر مادام يجد القوة التى تنادى به وتنافح عنه .

---

(١) سورة المدثر آية ٢٦ ـ ٣٠
(٢) سورة الشورى آية ٢٢
(٣) سورة القلم آية ٨ ـ ١٠
(٤) سورة آل عمران آية ١٩٧

الحالة الاجتماعية لرسول الله (ﷺ)

قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَٰتِ عَمِّكَ وَبَنَٰتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَٰتِ خَالِكَ وَبَنَٰتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (١)

يبدو من الآية أن الله تبارك وتعالى قد أحلَّ لنبيه عليه السلام زوجاته الكائنات عنده فعلا لأنهن قد اخترنه على الحياة الدنيا وزينتها ورضين بالعيش معه فى العسر واليسر . أملا فيما عند الله من الرضا والخير .

وهذا ما أقره جمهور المسلمين مؤيدا بقول ابن عباس (رضى الله عنه) : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتزوج فى أى الناس شاء وكان ذلك يشق على نسائه فلما نزلت هذه الآية وحرم عليه بها النساء إلا من سمى سر نساؤه بذلك .

كما روى أن المراد من الآية : أن الله سبحانه أحل لنبيه عليه السلام أن يتزوج من أى النساء شاء طالما أنه يؤتيهن مهورهن وعلى هذا تكون الآية مبيحة لجميع النساء ماعدا ذوات المحارم .

والواقع أن هذا الرأى له وجاهته خاصة وأن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت : « مامات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحل الله تعالى له النساء » (١) .

---

(١) سورة الأحزاب آية ٥٠

(٢) رواه الترمذى وخرجه عن عطاء

كما أن الله تعالى أحل لرسوله الزواج مطلقا غير مقيد بعدد وكذا نكاح ما ملكت يده من السوارى . وأيضا بنات عمه وبنات عماته . وبنات خاله وبنات خالاته اللاتى هاجرن معه وذلك لأن المهاجرات أكمل إيمانا وأوفى تضحية فى سبيل إعلاء كلمة الحق وتكثير جمع المسلمين فى مهاجرهم وغير المهاجرة ليست كاملة الإيمان . ولا تليق بأن تكون أما للمؤمنين . ولا زوجة لإمام المجاهدين كما أباح الله لرسوله نكاح المرأة المؤمنة التى وهبت نفسها له عليه السلام دون صداق والواقع أن هذه خصوصية له وحده ولا تحل لأمته بدليل قوله تعالى : ﴿ خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١)

* والحكم الذى يؤخذ من هذه الآية بخصوص الهبة هو :

أن هبة المرأة نفسها غير جائزة . وأن لفظ الهبة لا يتم به نكاح . ولم يجز ذلك من السادة الأئمة غير الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه . وقد قيَّد ذلك بشرط أن يشهد الرجل على نفسه بالمهر بحيث يصبح دَيْنا فى عنقه للمرأة . (٢)

وبين سبحانه أنه يوضح ذلك لرسوله صلى الله عليه وسلم فى الوقت الذى أوجب فيه على المؤمنين ألا يتزوج الواحد منهم بأكثر من أربعة بمهر وبينة وبشرط توافر العدل بينهن .

فإن لم يعدل المسلم بين زوجاته فإن الشرعُ يحرِّم عليه الزواج بأكثر من واحدة ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴾ (٣)

وفى التصريح للرسول بالزواج لأى عدد حتى لا يكون عليه حَرَج أمر يحتاج فيه

---

(١) سورة الأحزاب آية ٥٠

(٢) راجع الجامع لأحكام القرآن للقرطبى مجلد ٦ ص ٣٩٣٥

(٣) سورة النساء آية ٣

إلى السعـة لتـأييد موقف الرسالة . والتفاف الأسر من حولها رعاية لحق المصاهرة . وتقليلا للكيد له وللمؤمنين وفيه من الجانب التشريعى أمر عظيم . كما حدث بالنسبة لزواج الابن المتبنى (زيد بن حارثة) وهذه الواقعة تناولها أعداء الإسلام ولو أراد الله بهم خيرا لفقهـوا الحكمـة فيهـا واختتم الله الآية بإيناسه لرسوله ﷺ وللمؤمنين بأنه سبحانه غفور رحيم .

★ ★ ★

الاحتشام والستر فى الاسلام

قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[1]

* ما هو المقصود من الاحتشام ؟

إن المقصود من الاحتشام والستر فى الإسلام . ليس هو تحميل المرأة فوق طاقتها من الملابس الغليظة وإنما هو الاعتدال بعدم إبداء شئ من جسدها لأ جنبى . وهذا ما تقع فيه كثيرات جدا مَنْ نساء المسلمين إلا من عصَم اللهُ منهن وأكمل لها دينَها ـ وهن قليلا جدا ـ والمؤمنة العفيفة تأبى ـ صيانة لكرامتها وحفظا لقدْرها ـ أن تخرج عارية الجسد تجعل من بدنها سلعة معروضة لكل ناظر خبيث ولا ترضى المؤمنة أن يكون جسدها مثار شهوة نفسية لرجل أو شاب

ولا يسعدها أن تسمع من وغْد كلمة استحسان ولهذا أحاط الإسلام أجساد التابعات له بسياج من القداسة والإجلال . والحياء برهانه الستر عن أعين الناظرين والمرأة العفيفة على رأسها إكليل مشرق وتاج من الأدب يصون لها عرضها من الدنس . وتنأى بنفسها عن أن تكون مضغة فى أفواه مرضى القلوب والنفوس .

تقول صاحبة كتاب (التربية القرآنية)[2] : إن المتبرجة تضع نفسها موضع التهم وتجعل جسمها مطرحا لأفكار قذرة ومباءة لنفوس خبيثة عابثة لا تقيم للإنسانية وزنا وإنها باصطناعها الجمال وإضفائها الألوان على جسدها وأظافرها . وما تفعله

---

(١) سورة الأحزاب آية ٥٩

(٢) التربية القرآنية : للكاتبة : نعمت صادق

بشعرها . إنما تغش نفسها وليس هذا جمالا وإنما هو قبح ودمامة وليتها تسمع قول القائل :

قل للجميلة أرسلت أظفارها ... إنى لخوف كدت أمضى هاربا
إن المخالب للوحوش نخالها ... فمتى رأينا للظباء مخالبا ؟
بالأمس أنت قصصت شعرك غيلة ... ونقلت عن وضع الطبيعة حاجبا
وغدا نراك نقلت ثغرك للقفا ... وأزحت أنفك رغم أنفك جانبا
من علم الحسناء أن جمالها ... فى أن تخالف خلقها وتجانبا
إن الجمال من الطبيعة رسمه ... إن شذ خط منه لم يك صائبا

* الأمر فى هذه الآية :

فى هذه الآية أمر للنبى صلى الله عليه وسلم أن يوجه أنظار زوجاته وبناته ونساء المؤمنين إلى التزام الحشمة والستر لأجسامهن حفاظا لكرامتهن أن تُمتَهن من جانب الفجار . لأنه كان من عادة نساء بعض العرب فى الجاهلية التبذل فى الملابس حتى اختلط الأمر بين الحرة والرقيقة خاصة عند خروجهن لقضاء الحاجة حيث لم تكن البيوت آنذاك مجهزة (بدورات المياه) فكن يتعرضن لمعاكسة مرضى القلوب من الشباب والشيوخ .

فأمر الله الرسول ﷺ بأن يعلم زوجاته وبناته ونساء المؤمنين الأدب الإسلامى فى الستر ليفرق الماجنون بين الحرة والأمة .

وذلك بإطالة الثوب ليستر الجزء الأسفل من جسد المرأة حتى عقبيها لأن المرأة متى أدركها البلوغ حرم ظهور شئ من جسدها سوى الوجه والكفين .

* توجيه إسلامى :

فى يوم الجمعة ١٩ شوال سنة ١٣٩٢ الموافق ١٩٧٢/١٢/٢٤ أوردت جريدة أخبار اليوم على لسان السيد وزير التربية والتعليم قوله : إن الرئيس محمد أنور السادات إيمانا منه بأن مجتمع العلم والإيمان يجب أن يقوم أول ما يقوم على القيم الأخلاقية والروحية .

وأن فتياتِنا أمهات المستقبل والصَّرْح الشامخ لهذا المجتمع . وحرصا من الرئيس على تقاليدنا العربية الأصيلة . وقيمنا المستمدة من أصالة هذا الشعب وعراقته .

وعمـلا على تجميل المظهر المدرسى وإبراز الشخصية المتميزة للقطاع التعليمى كقدوة صالحة فى البيئة تسعد الآباء والأمهات وتسعد كل وطنى يحب وطنه ومجتمعه . فقد أبدى الرئيس توجيها كريما بأنه : يسعده غاية السعادة أن يرى بناته الطالبات فى مدارسنا . وقد أرتدين زيا يتسم بالوقارة والبهجة يحترمه المجتمع ويؤيده وهو (البدلة الكـاملة) . كما أبدى الـرئيس رغبتـه فى أن يرى فى زى الأخـوات الفاضلات من الناظرات والمدرسات والموجهات قدوة لبناتهن . بما يكمل للجو المدرسى رونقه وقدسيته ومما لا شك فيه أن هذا التوجيه قد قوبل بالارتياح التام من كل أولياء الأمور ومن كل غيور على الدين حريص على الفضيلة .

وكما يقول المثل : أول الغيث قطر ثم ينهمر . فهذه بداية إسلامية .

ولقـد اتخذ الرئيس الليبى معمر القذافـى قـراراً حاسما على نفس الطريق حيث حرم تسريح الرجال شعور النساء ومنع محلات (الكوافير الرجالى) للنساء وبين القرار بأن الحكمة فيه أن الرجل لا يصح أن يلمس شعر امرأة أجنبية عنه .

فوفق اللهم ولاة أمور المسلمين إلى تطبيق أحكام الدين ليسعد الناس ديناً ودنيا وتحترم المرأة دينها ونفسها . . آمين .

★ ★ ★

تشـــريعات الطـلاق

قال الله تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾ (١)

يشمل الحديث عن هذه الآية :

(١) مقدمة عـن الطلاق
(٢) ســـبب الـــنزول
(٣) متـــى يصح الطلاق
(٤) معرفة أحكام العدة وأنواعها
(٥) ما يترتب على الطلاق

المقـدمـــــة :

يرى بعض الناس أن الطلاق من المآخذ التى تؤخذ على الإسلام . لأن الطلاق فى نظرهم هدم للأسر وضياع للأبناء .

وهذا فى الواقع ضِيقُ أفق . وعمىً عن الحق وعن المصلحة العامة .

فالإسـلام الـذى رعى الأسرة وصان قداستها . وأحاطها بسياج من الإجلال منيع . وأمر كلا من الزوجين بالمحافظة على هذه الشركة الإنسانية الدائمة . وبلزوم المـرحمـة والمـودة . وجعـل الـزوجات سكنا ومأوى للأزواج . وألزم الأزواج برعايتهن والحدَب عليهن مع مافيهن من عِوَج . وانقياد للعاطفة .

أهذا الدين يؤخذ عليه مايدعيه الحمقى الذين أعتلّ تفكيرهم ؟

---

(١) سورة الطلاق آية ١

لقد كان الأولى بهم أن يُعْملوا أفكارهم . وأن يأخذوا التشريع من مصادره . وأن يعلموا أن ما ينساق إليه الجهلة من المسلمين من التطليق دون سبب . ليس حجة على دينهم .

أولى بهم أن يُشحذوا أفكارَهم ليروا ما يجب أن يشتغل به المسلمون من الإنتاج وتحسين سُبُل المعيشة حتى لا تضيق بالناس حياتُهم فيجعلوا النساء هدفا للأيمان الفاجرة .

والعيب ليس فى التشريع ولكنه فى أسلوب التطبيق بغير فهم لحكمة الطلاق . مِنْ أولئك الذين لم يتبعوا ما أمرهم الله به فى سبيل بناء الأسرة .

والله سبحانه يرسم الطريق واضحا أمام العقلاء إذا ما عنَّ لأحدهم شئ يهزُّ كيان الأسرة فيقول العليم الحكيم : ﴿ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾[1]

فلقد وضع الدين سُلَّما للإصلاح الأُسرَى . وبيَّن درجاته لمن أراد أن يقيم أسرة على أساس قويم ولقد غفل كثيرون من المسلمين عن هذا السبيل وأصبحوا يتسرعون بالطلاق لأسباب واهية وهم لا يعلمون أن الطلاق جُعِل علاجا لأسرة أصبح من العسير تعايشها تحت سقف واحد بعد نفاذ صبر كلا الزوجين . وعدم فاعلية العلاج المأخوذ من (صيدلية) القرآن الكريم . وهناك مثل عربى دارج يقول (آخر العلاج الكى بالنار) .

ونحن نلمس مثلا مشابها فى حياة الناس العاديه . هو أنه إذا أصيب عضو فى جسد الإنسان بعلة . وحاول الأطباء علاجه بكل الوسائل العلمية فلم تفد

---

(١) سورة النساء آية ٣٤ ، ٣٥

جهودهم . وأصبح هذا العضو يهدد الجسد كله بالتلف . فأيهما أجدى ؟ الإبقاء على العضو رغم ما فى بقائه من أخطار تهدد الجسد كله ؟ أم بتْر هذا العضو التالف لإنقاذ بقية الأعضاء ؟ نظن أن العقل يرجح الرأى الأخير وهو بتر العضو التالف صيانة لبقية الجســـد .

والامر كذلك بالنسبة للطلاق . فإن الأسرة التى حاولت علاج مابينها من خلاف بكل وسائل العلاج من وعظ وهجر فى المضجع وضرب غير مبرِّح وتحكيم ثم لم ينصلح حال المعْوَج فيها سواء كان الزوج أو الزوجة فإن الشرع يعطى الرجل حقه فى فض هذه الشركة التى لا يتحقق من ورائها غير الخسارة وإهدار الكرامة .

ولقد تكفل الله العليم بالنوايا فى حالة الافتراق أن يعطى كل واحد من الزوجين حسب ما فى قلبه من خير أو شر ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾ (١) .

وهذا لجوء إلى المكروه الذى لا بد منه . يقول ﷺ : « يامعاذ : ما خلق الله شيئا على وجـه الأرض أحب إليه من العتاق ولا خلق شيئا على وجه الأرض أبغض من الطلاق . فإذا قال الرجل لمملوكه : أنت حر إن شاء الله فهو حر ولا استثناء له وإذا قال الرجل لامرأته : أنت طالق إن شاء الله فله استثناؤه ولا طلاق عليه » (٢)

ومن هنا يرد كيد الكائدين للإسلام إلى نحورهم .

وليعلموا أن الطلاق دواء وليس بداء وأنه مرحمة وليس مذلة . بدليل أن الإسلام ألزم المطلق بالنفقة والسكنى طوال مدة العِدة فليتهم يعقلون ويثوبون إلى رشدهم .

---

(١) سورة النساء آية ١٣٠

(٢) الدارقطنى

سبب نزول الآية :

هناك رأيان يمكن أن يرجع سبب النزول إلى كل منهما على حِدَة :

الأول : أن الأية نزلت عقب تطليق عبد الله بن عمر لامرأته وكانت حائضا وكان قد طلقها تطليقة واحدة . فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يراجعها ثم يمسكها حتى تطهر وتحيض ثم تطهر . فإذا أراد أن يطلقها فليطلقها حين تطهر دون أن يمسها . فتلك العدة التى أمر الله تعالى أن يطلق لها النساء .

الثانى : إن نزول العدة فى أسماء بنت بن السكن الأنصارية . فلقد أورد أبو داود عنها : أنها طلقت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولم يكن حتى ذلك الوقت للمطلقة عدة فأنزل الله تعالى العدة للطلاق حين طلقت أسماء . فكانت أول من أنزل فيها العِدَّة للطلاق ولا مانع مَنْ أن يكون نزول الآية شاملاً للرأيين [1]

* متى يقع الطلاق صحيحاً ؟

إن السادة الفقهاء يقسمون الطلاق إلى نوعين . سُنِّى . وبِدْعى .

أما طلاق السنة فهو أن يطلق الرجل امرأته وهو بكامل وعيه فى طُهر لم يجامعها فيه ، وبالالفاظ المعتبرة شرعا . وهذا الطلاق يعتبر صحيحا ويقع .

أما الطلاق البدعى فهو أن يطلق الرجل امراته أثناء حيضها أو نفاسها أو فى طهر جامعها فيه فالرجل فى هذه الحالة آثم والطلاق يقع على رأى جمهور المسلمين . وسبب الأثم إطالة العدة على المرأة

وهناك من يرى عدم وقوع الطلاق البدعى ومن هؤلاء فقهاءُ الشيعة وسعيد ابن المسيب . وعبد الله بن عمر . واختاره الإمام ابن عَقيل من الحنابلة وبعض آل البيت . واختاره كذلك ابن تيمية .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن مجلد ٧ ص ٦٦٢٨ ، وكذا أسباب النزول للنيسابورى

وأرى أنه ليس على المشرع أو المفتى من ضمير فى الأخذ بهذا الرأى حتى يمكن أن نوقف هذا السيل المدمر من الطلاق الذى يهدد الأُسَر بالضياع والأبناء بالتشرد جريا وراء نزوات بعض الرجال ممن لا خُلُق لهم ولا غَيْرة عندهم وسعيا وراء مغنم حرام أو تجارة يراد الترويج لها أو حتى ليثبت أحدهم رجولته المهتزة أمام زوجة واثقة من نفسها وليرجع فى ذلك الى الكتب الفقهية المختصة .

* ما المقصود بإحصاء العدة ؟

إن المقصود بإحصاء العده هو معرفة الوقت الذى أوقع فيه الطلاق حتى تحصى العدة للمدخول بها فعلا (أى التى تم عقد قرانها وانتقلت إلىٰ بيت الزوجية وعاشرها زوجها معاشرة الأزواج) .

أما غير المدخول بها فلا عدة لها كما أخبرنا رب العالمين بذلك ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ (١)

* ما هى أنواع العدة :

لقد بين القرآن الكريم أنواع العدة فى أكثر من موضع كما يلى :

أ ـ المرأة التى اعتادت الحيض :

إذا طلقت فعدتها ثلاثة قروء بمعنى أنها لا تحل لزوج جديد إلا بعد أن يأتيها الحيض بعد الطلاق ثلاث مرات وتَطْهُرَ من المرة الأخيرة . بين ذلك رب العزة سبحانه بقوله ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة الأحزاب آية ٤٩

(٢) سورة البقرة آية ٢٨٨

ب ـ المرأة التى لم تحض أبدا لمرض أو غيره .

وكذلك المرأة الكبيرة التى انقطع حيضها لبلوغها سنَّ اليأس (من ٤٥ ـ ٥٠) فإن عدة كل منهما إذا طلقت هى ثلاثة أشهر تكون بعد أنتهائها حلالاً للأزواج يقول العليم الخبير ﴿ وَٱلَّـٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَـٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّـٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ﴾ (١) أى فعدتهن كذلك ثلاثة أشهـر .

جـ ـ المرأة الحامل .

إذا طلقها زوجها أثناء حملها فإنها لا تحل لأى زوج آخر طول مدة حملها . فإذا وضعت حلت للأزواج إن أرادت الـزواج . الـدليل على ذلـك قولـه الله تعـالى : ﴿ وَأُو۟لَـٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ (٢) وقوله ﷺ لامرأة طُلِّقت أثناء حملها ثم وضعت « حللت للأزواج فانكحى من شئت » (٣).

(د) المرأة المتُوفىَّ عنها زوجها .

عدتها أربعة أشهر وعشرة أيام لا تتزين فيها ولا تلبس ثياباً ملونة ولا تتعطر حتى وهى فى البيت لقول الله تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (٤)

ولقول الرسول ﷺ « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاثة أيام إلا امرأة على زوجها أربعة أشهر وعشرا » .

---

(١) سورة الطلاق آية ٤

(٢) سورة الطلاق آية ٤

(٣) راجع الجامع لأحكام القرآن مجلد ٨

(٤) سورة البقرة آية ٢٣٤

ومن الآثار فى ذلك أن السيدة أم حبيبة زوجة رسول الله صسلى الله عليه وسلم حين مات أبوها أبو سفيان دعت بطيب فى اليوم الرابع فمست منه ومسحت رأس طفلة كانت عندها وقالت : (والله ما بى للطيب من حاجة ولكنه أمر الإسلام فى عدم الحزن أكثر من ثلاثة أيام على غير الزوج) .

ماذا يترتب على العدة :

يترتب على العدة عدة أشياء منها :

* عدم إخراج الزوجة من بيت الزوجية قبل إنتهاء العدة المقررة لها ما لم تخرج هى بغير حق متعدية بذلك حدود الله تعالى التى أمرها بها ومالم تفحش فى القول أو تَقُمْ بإيذاء أهل زوجها بلسانها . ولقد روى عن سعيد بن المسبب أنه قال فى فاطمة بنت قيس حين طلقها زوجها حفص بن عمرو وامرها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخروج من بيت الزوجية إلى بيت ابن أم مكتوم قال سعيد : (تلك امرأة استطالت على إحمائها بلسانها . فأمرها رسول الله أن تنتقل) .

وعلى هذا فليس للزوج إخراجها من مسكن الزوجية مادامت فى العدة . ولا يجوز لها أيضا أن تخرج الا لضرورة ظاهره . . وهذا الحكم يشمل الرجعية والبائنة .

وهناك من يرى أن البائن لها أن تخرج لحاجتها نهارا فقط . لأنها قد انقطع أملها من زوجها وأمل زوجها منها فلا حاجة لكل منها إلى الآخر .

أما الرجعية . فليس لها ذلك لأنها تظل تحت تصرف زوجها مادامت فى عدتها حيث يجوز له مراجعتها إن شاء .

بل أبعد من ذلك فإنها إذا ماتت وهى فى عدتها ورثها وكذلك إذا مات وهى فى العدة ورثته .

كما أبيح للمطلقة الخروج من بيت الزوجية وهى فى العدة إذا خافت على نفسها بأن كانت وحيدة فى البيت وليس معها من يحميها .

ومما يترتب على العدة كذلك قيام الزوج بالإنفاق على الزوجة لحين إنتهاء عدتها .

وهذان الأمران . (المسكن والنفقة) واجبان للمعتدة ولكن كثيرا من الناس لا يعملون بمقتضاهما . بل بمجرد وقوع الطلاق وحتى بمجرد وقوع الخلاف بين الزوجين يطرد الزوج زوجته من بيت الزوجية . أو تتركه هى بنفسها . وبالتالى يقطع عنها النفقة بحجة أنها انتهى أمر ها وأصبحت أجنبيه عنه .

وقد يدفع إلى ذلك العناد الذى يبدو من أسرة الزوجة وضرورة الإسراع فى المقاضاة واللجؤ الفورى إلى ساحات المحاكم التى تجلب كثيرا من المشاكل فتتسع هوة الخلاف وتودى فى النهاية بالحياة الزوجية

* مراجعة الزوج لزوجته :

طالما أن الزوجة مازالت فى فترة العدة فللزوج مراجعتها وإعادتها إلى الحياة الزوجية من جديد وذلك ممكن فى الطلقة الأولى والثانية عقب وقوع كل منهما .

فإذا انتهت فترة العدة فى الأولى أو فى الثانية وأراد مراجعة زوجته . بعد أن راجع نفسه ورأى من الضرورى عودة الحياة الزوجية إلى ما كانت عليه . فعليه أن يعقد عقدا جديدا ويقدم صداقا جديدا .

لان الزوجة بخروجها من العدة بانت من زوجها بينونة صغرى وتعود على مابقى من طلقات أما إذا وقع الطلاق للمرة الثالثة فإنها تبين منه وتصبح محرمة عليه . ولا تحل له حتى تتزوج برجل آخر . يعقد عليها بمحض إرادته ويعاشرها معاشرة الازواج فإن طلقها أو مات عنها جاز لزوجها الأول أن يعود لزواجها . بعد انتهاء عدتها من زوجها الثانى . يقول الله تعالى مبينا ذلك ﴿**فَإِن طَلَّقَهَا** - زوجها الأول - **فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ فَإِن طَلَّقَهَا** - الزوج الثانى - **فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ** على الزوج الأول والزوجة - **أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ**﴾ [1] وهذه هى صورة التحليل الصحيح التى أرادها الإسلام .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٣٠

* المحلل الزائف :

أما ما يقوم به بعض مَنْ لا خَلاقَ لهم . كأن يطلق زوجته ثلاثا وتصبح محرمة عليه . فيأتى برجل جاهل لا يعرف حكم الله أو برجل خبيث النفس يعرف ما يراد منه . ثم يتفق الزوج مع أى منهما على أن يعقد قرانه عليها ثم يدخل بها لمدة ليلة أو ليلتين لا يمسها فيها وقد يبيت كل منهما فى حجرة بعيدة عن حجرة الآخر . ثم يطلب منه أن يطلقها فى الصباح مقابل مبلغ من المال متفق عليه ليحلها لزوجها الأول .

فهذا ضرب من الزنا لا يرضى به الله . ولا يقره العقلاء من الناس .

ولقد حاول أعداء الإسلام أن يطعنوا فى سلامة هذا الدين منتهزين مثل هذا العمل الشائن . وهذا المسلك المختل . وصوَّروا للناس أن هذا هو الإسلام .

ولو أنهم أخذوا التشريع من مصادره الصحيحة لعرفوا الحقيقة ولتأكد لهم أن دين الله برىء من هذا العبث . ولتأكد لهم كذلك مما لا يدع مجالا للشك أن ارتكاب شخص لجريمة ما لا يطعن فى القانون الذى حرمها وسن لها عقوبة رادعة .

والرسول عليه السلام يصف المحلِّل المزعومَ بوصف هو خليق به فيقول : « هل أدلكم على التيس المستعار؟ قالوا : بلى يارسول الله قال : المحلل »[1] قال عمر رضى الله عنه : لو أتيت بمحلل ومحلل له لرجمتهما . فلما سأل ابن عمر عن سبب الرجم قال : لأنهما زانيان .

★ ★ ★

(١) رواه البخارى

الأيمان وكفاراتها

قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (١)

يتناول الحديث فى هاتين الآيتين موضوعين :

أ ـ سبب نزولهما .

ب ـ تحريم الرجل زوجته على نفسه .

* سبب نزول الآية :

ارتضى كثير من السادة العلماء أن سبب نزول الآية هو ما وقع من السيدتين عائشة وحفصة .

وتفصيل ذلك : أن رسول الله ﷺ كان يحب الحلواء والعسل . وأن السيدةَ زينبَ بنتَ جحش كانت تَحْرِصُ على إرضائه ﷺ . وكانت تُعدُّ له العسل ليشربه . فوقعت من ذلك غَيْرةٌ شديدة للسيدتين عائشة وحفصة .

وأرادتا أن تثيرا حفيظة رسول الله ﷺ فاتفقتا على أن تقول كل واحدة منهما عند دخوله عليها : إنى أجد منك ريح مغافير . أكلت مغافير ؟ ـ والمغافير اسم نبات جبلى له رائحةٌ مميزة ـ فلما دخل ﷺ على إحداهما قالت له ذلك . فقال : « بل شربت عسلا عند زينب بنت جحش . ولن أعود له . » فنزل قوله تعالى :﴿ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ ﴾ (١) .

---

(١) سورة التحريم آية ١ ، ٢

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى مجلد ٨ (التحريم)

ويرى بعض العلماء أن سبب النزول .

هو أن النبى ﷺ التقى بمارية فى نفس منزل حفصة وفى يومها . فغضبت حفصة لذلك فأخبرها النبى عليه السلام بأنه حرم مارية على نفسه إرضاء لحفصة وطلب من حفصة كتمان هذا الأمر . فأخبرت به عائشة وخالفت بذلك أمر رسول الله ﷺ فلما بلغه الخبر غضب عليه السلام واعتزل نساءه شهرا . فلما مضى تسع وعشرون ليلة أنزل الله تعالى ﴿ لِمَ تُحَرِّمُ ما أحل الله لك ؟ ﴾ .

الحكم الشرعى فى التحريم . .

لو حرَّم الرجل على نفسه طعاما أو شرابا أو شيئا آخر تلزمه كفارةٌ على مذهب الإمامين مالك والشافعىِّ

أما الإمام أبو حنيفة وما عليه جماعةٌ من الصحابة والتابعين كالثورى وابن مسعود فإنهم يُلْزِمونَ من حَرَّم على نفسه شيئا الكفارةَ إذا عاد إليه . هذا فى الأشياء العادية .

تحريم الرجل زوجته على نفسه :

إذا حرم الرجل زوجته على نفسه كأن قال لها أنت علىّ حرام . أو تَحْرُمِين علىّ . فإنه إذا أراد الطلاق وقع الطلاق طلقة رجعية إذا كانت الأولى أو الثانية .

واذا لم ينو الطلاق فلا شىء عليه ويرى ابن عباس أنها يمين يُكَفِّرها ثم قال : ﴿ لقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [1] وأخرج النسائى عن ابن عباس أنه أتاه رجل فقال : إنى جعلتَ امرأتى علىّ حراما فقال : (كذبت ليست عليك بحرام) ثم تلا هذه الآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ - قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم ﴾ [2] ثم قال للسائل عليك أغلظ الكفارة عتق رقبة .

هذا وقد وردت فى التحريم أقوال بلغت بضعا وثلاثين قولا أوردها الإمام القرطبى فى تفسيره فلْيَرْجع إليها من شاء الاستزادة .

---

(١) سورة الأحزاب آية ٢١

(٢) الدارقطنى

وعلى كل فإن الحكم فى ذلك يرجع إلى حالة القائل . إن كان متدينا واستثير حتى غضب فقال ما قال دون أن يعرف حكمه . خُفِّف عنه الحكم واعتبر كأن لم يكن ويُرْجَعُ به إلى رأى ابن عباس وإن كان من المتمردين على أحكام الدين المستهترين بقواعد الشريعة . الذين يتّبِعون اليمين غيرها شُدِّد عليه الحكمُ وأوخذ حسبما يرى المفتى . ويطبق عليه ما يردعه حتى لا يعود لمثلها .

والآية نزلت عتابا للنبى عليه السلام على ترك الأوْلى . فما كان له أن يحرم شيئا من أجل إرضاء زوجاته سواء كان عسلا إذا أخذنا بالرأى الأول فى سبب النزول أو كان مارية إذا أخذنا بالرأى الثانى .

ومن هنا أنزل الله سبحانه كفارة اليمين تيسيرا ورحمة ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ وفى هذا تخفيف عام عن المسلمين جميعا وليس الحكم خاصا بالنبى عليه الصلاة والسلام وكفارة اليمين موضحةٌ فى سورة المائدة . وكذا فى سورة المجادلة . . والله أعلم .

★ ★ ★

تأديب أعداء الله

قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (١) .

إذا كان إنسان بذل فى سبيل هداية قومه كلّ جهد . وسلك معهم كلّ طريق وجرَّب كل وسيلة فذلك الإنسان هو محمد ﷺ فقد استنفذَ كلّ أساليب الدعوة . ولمس من الناس كل جانب ونفّذ أمر ربه كاملا .

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ (٢) .

ولكنهم مع ذلك تمردوا وكأنهم كانوا يُصْغُون لأصوات آبائهم الأقدمين حين قالوا لنوح عليه السلام :

﴿ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ (٣)

أو قولهم لهود عليه السلام :

﴿ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴾ (٤) .

بعد هذا التمرد وبعد أن تحجرت قلوبهم وعميت بصائرهم وأخذ العناد بخناقهم لم يعد يُجدى معهم غير التأديب المادى باستعمال السيف والغلظة فى القول والتوبيخ فالكافرون يردعهم السيف والمنافقون يوقفهم عند حدهم التوبيخُ وتَهُزُّ من كبريائهم الغلظة بإقامة الحجة عليهم ردعا لهم وإظهارا لمكرهم .

---

(١) سورة التوبة آية ٨٣ والتحريم آية ٩

(٢) سورة النحل آية ١٢٥

(٣) سورة هـود آية ٣٢

(٤) سورة الشعراء آية ١٣٦

وفى النهاية يخبر الله تعالى بأن جهنم مأوى هؤلاء وأولئك وهو مصير بئيس :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ [1] .

* **والحكم فى الآية هو** : الأمر بالجهاد والغلظة فى القول لكل من الطائفتين ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [2] .

★ ★ ★

(١) سورة النساء آية ١٤٠
(٢) سورة النحل آية ٣٣

استمرار التأييد لرسول الله ﷺ وللمؤمنين

قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (١) .

لقد ثبَّت الله رسوله وشد أزره وبين له أنه معه . وذلك فى قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ ﴾ (٢) أما هذه الآية ففيها استمرار لهذا التأييد والتثبيت للنبى ﷺ ولمن معه من الأتباع المخلصين وربط على قلب الرسول بالثقة الكاملة فى الله بعد أن تكاثر مكر الكافرين وزاد خداعهم فطمعوا فى النيل من رسول الله ﷺ ومن أصحابه خاصة بعد أن سمعوا أن إله محمد دعاه الى الدخول فى السلم إذا جنح أعداؤه إليه . وأن محمدا لن يخالف هذا الأمر .

وحسبوا أن السِّلم الذى دعا إليه محمد ﷺ هو السلم الذى يفهمونه وهو الإستسلام من جانب المسلمين والخضوع لِقُوى الشرك والتنازل عن الحق مقابل رفع العذاب عنهم وهذا دأب الطغاة فى كل زمان ولعل اليهود الآن يمثلون هذا الاتجاه المتعنت القديم حين يطلبون من العرب الذين احتُلَّت أراضيهم الدخول فى محادثات سلام مباشرة .

والواقع أن السِّلم الذى كان مراداً فى الماضى وهو نفس السلم المطلوب الآن : هو السلم القائم على العدل بحيث لا تُنتهك الحرماتُ . ولا تضيَّعُ الحقوق . ولا تُقْتَطع الأرض ولا يشرَّد الأبرياء دون مأوى ، وإذا كان المشركون فى الماضى قد حاولوا خداع رسول الله ﷺ فكان الله حسبه وكافيه .

﴿ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُ ﴾ (٣)

---

(١) سورة الأنفال آية ٦٤

(٢) سورة المائدة آية ٤١

(٣) سورة الأنفال آية ٦٢

فإن اليهـود اليوم وصهـاينة العصر لن يستطيعوا خداع الحذرين المتيقظين من العـرب والمسلمـين الـذين يتخـذون الله لهم حَسَبا وكافيا . وكفى به نصيرا ومؤازرا للمتوكلين عليه الآخذين بأسباب النصر :

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ (١) .

★ ★ ★

(١) سورة الطلاق آية ٣

الدعوة إلى الجهاد وتحريض المؤمنين

قال الله تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ (١) .

* أهمية رفع الروح المعنوية :

أمر الله رسوله عليه السلام بتحريض المؤمنين على القتال ليثبت القلوب . ويمكن لعقيدة القتال فى نفوسهم . وليكونوا على بينة من أمر القضية التى يقاتلون من أجلها لأن الجندى إذا اقتنع بما يقاتل من أجله انطلق فى اتجاه عدوه انطلاق السهم إلى هدفه وقاتل بوعى وإدراك ولم يبال أوقَعَ على الموت أم وقَعَ الموتُ عليه واستسهل كل صعب وقرب ساعة النصر وهذا ما يسمى فى قاموس العصر الحديث برفع الروح المعنوية للجند .

ولقد سبق القرآن فى هذه الناحية كل تشريع . فتولى الله سبحانه بنفسه تثبيت القلوب ورفع الروح المعنوية فى غزوة بدر استمعوا إليه وهو يقول :

﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ ﴾ (٢)

إن هذه الآية كافية لإعادة ثقة الجندى بنفسه وبربه الذى سيكون معه فى المعركة ماديا بملائكته المقاتلين إلى جواره ومعنويا بالقاء السكينة فى قلبه .

---

(١) سورة الأنفال آية ١٢

(٢) سورة الأنفال آية ٦٥

ورأينا الرسول ﷺ القائد ينزل إلى أرض المعركة ويحث المؤمنين على القتال ويَعِدُهم بنصر الله إن أخلصوا وأقبلوا ولم يدبروا .

وراح يَصُفُّ الجنود ويخطط للمعركة . ولا شك إن هذا العمل فيه ما فيه من رفع الروح المعنوية للمقاتلين .

وها هو خالد بن الوليد يأخذ بهذا المبدأ بأسلوب عملى فى (اليرموك) . فقد جمع النساء المسلمات وأعطى كل واحدة منهن سيفا وأوقفهن صفا خلف الرجال وقال لهن : (إن رأيتن أحداً يفر من الرجال فاقتلنه فرفع هذا العمل من روح المقاتلين ، وحبب إليهم الموت على يد الأعداء لا على يد النساء ولذلك كان يباهى برجاله وبجسارتهم وطلبهم للموت فيقول لقائد الروم : (جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة) .

ورأينا كذلك المارشال (مونتجومرى) قائد معركة العلمين يقول : إذا أراد لقائد كسب معركة فعليه أن يكسبها أولا فى قلوب رجاله .

بعد هذا كله يبين الله سبحانه أن النصر نتيجة حتمية للصبر وحسن الاستعداد وأن العدد القليل المملوء إيمانا . الجيد تدريبا يمكن أن يتغلب على العدد الكثير الذى لا يعرف هدفه يظهر هذا من قوله تعالى : ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ﴾[٣] وكلما ضَعُفَ العزم والاستعداد احتاج المسلمون إلى وعى أكثر . لا سيما وقد بعدنا كثيرا عن روح الدين .

فنحن الآن فى حاجة مُلِحَّة الى الثبات والاستعداد المادى القائم على العلم المتطور فليست العبرة أبدا بكثرة الجند . ولا بكثرة العتاد الحربى لأن (صاروخا) واحدا أو قذيفة متطورة تكفى لتدمير كثير من التحصينات . وتهلك من الأفراد وتدمر من العمائر ما لا حصر له . فالعبرة إذن بعظمة العقيدة فى الجيش المقاتل وبارتفاع الروح المعنوية . وباقتناء كل جديد من معدات القتال واستيعاب دقائقه وحسن التدريب على استعماله وبالجملة فالعبرة بالكيف لا بالكم والقرآن يحدد ذلك :

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (١) .

الحكم المأخوذ من الآية :

ظهر أن الحكم الموجود فى الآية هو :

ضرورة تحريض المؤمنين على القتال ورفع روحهم المعنوية وإعلامهم بأن الله معهم إذا صبروا .

★ ★ ★

(١) سورة البقرة آية ٤٩

أمـــر الأســـرى فى بـــدر

قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾[1] .

عقب انتصار المسلمين على المشركين فى بدر وقع فى أيديهم جماعة من الأسرى فاستشار الرسول ﷺ أصحابه فى شأنهم فتركزت الآراء فى رأيين :

أحـــدهما . .

يتسم بالمـوادعـة والعفو مقابل فدية تؤخذ من هؤلاء الأسرى يستفيد منها فقراء المسلمين أو يشترى بها سلاح للجيش المسلم . وكان هذا هو رأى أبى بكر رضى الله عنه .

وثانيهما .

اتسم بالتشـدد مع زعـماء الشرك ورؤس التحريض . ويحبذ قتل الأسرى حتى يكونوا عبرة لغيرهم ممن يحاولون العدوان على المسلمين .

وكان هذا هو رأى عمر بن الخطاب رضى الله عنه

ومال الرسول عليه السلام إلى الرأى القائل بأخذ الفداء من الأسرى . ثم تسامح معهم لدرجة أن من لم يجد من الأسرى مالاً يفتدى به نفسَه كان يقوم بتعليم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة . وهذا يعتبر أول مشروع فى العالم على ما أظن لمحو الأمية .

وكان من بين هؤلاء الأسرى العباس بن عبدالمطلب . وكان ذا مال كثير . فلما

---

(١) سورة الأنفال آية ٦٥

جِيءَ به إلى رسول الله ﷺ طلب منه الفداء . وكان فداء كل أسير أربعين أوقية . إلا العباس فإن النبى عليه السلام قال : « أضعفوا الفداء على العباس » وكلفه أن يفدى ابنى أخويه عقيل بن أبى طالب . ونوفل بن الحارث فأدى عن كل منهما أربعين أوقية . وعن نفسه ثمانين أوقية ذهبا بالإضافة إلى عشرين أوقية أخذت منه عندما أسره أبو اليسر- صحابى نحيف ضعيف - فقال العباس للنبى ﷺ مظهرا الفقر : لقد تركتنى ما حييت أسأل قريشا بكفيٍّ . فقال له النبى ﷺ : « أين الذهب الذى تركته عند امرأتك أم الفضل » ؟ فقال العباس : أى ذهب ؟ فقال له النبى ﷺ : « إنك قلت لها لا أدرى ما يصيبنى فى وجهى هذا فإن حدث بى حدث فهو لك ولولدك »

فقال : يا ابن أخى من أخبرك بهذا ؟ قال : « الله أخبرنى » . قال العباس : أشهد أنك صادق . وما علمت أنك رسولُ الله قطُّ إلا اليوم . وقد علمت أنه لم يطلعك عليه إلا عالم السرائر، أشهد أن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله وكفرت بما سِوَاه . وأمر ابنى أخويه فأسلما [1] .

* سبب نزول الآية :

لقد نزلت الآية التى معنا فى العباس ومن معه . كما ورد أنه حين طُلب من العباس الافتداء قال هو وبعض مَنْ معه : كنا مسلمين . ولكن الرسول عليه السلام لم يعفهم من المال . لأنهم لم يظهروا إسلامهم قبل وقوعهم فى الأسر فإن كان ما يقولونه حقا فَسَيخْلُف الله عليهم ما أخذ منهم ويعوضهم خيرا ويغفر لهم . وإن كان هذا القول مرادا به المكر والخداع فإن الله سبحانه سيظهر نبيه عليه وسيمكن منهم مرة أخرى كما مكن منهم المسلمين فى غزوة بدر . والله غالب على أمره لا يُقْهَرُ ولا يُخَادعَ .

ولذلك يقول العلى الغالب ﴿وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ [2] . ويمكن الرجوع الى كتب السيرة لمعرفة موقف الرسول واستشارته أصحابه فى أسرى بدر وهل أقره الله على ما اتخذه أم عاتبه عليه فهناك الكفاية .

---

(١) راجع سيرة ابن هشام جـ ٣

(٢) سورة الأنفال آية ٧١

بيعة النساء عقب الفتح

قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) .

فى السنة الثامنة من الهجرة وعقب فتح مكة جاء الطلقاء إلى رسول الله عليه السلام فبايعهم على الإيمان والجهاد .

ثم جاء النساء من الطليقات يطلبن البيعة والدخول فى الإسلام كالرجال فأمر الله تعالى نبيه ﷺ بأن يبايعهن . وبين له ما يبايعهن عليه من الأمور .

فبايعهن عليه السلام كَلاَماً ولم يمس يد واحدة منهن . ولقد أورد المؤرخون أنواعا للبيعة :

* منها أنه عليه السلام بايعهن كلاما وأمر عمر بأن يسلم عليهن .

* ومنها أنه عليه السلام بايعهن وبين يده وأيديهن ثوب .

* ومنها أنه بايعهن كلاما ثم أتى بوعاء فيه ماء فوضع عليه السلام يده فيه ثم وضعن أيديهن فى الإناء بعد رسول الله .

وعلى كل حال فإنه عليه السلام قد بايع النساء على ما جاء فى الآية . وورد فى ذلك حديث صحيح روى أنه قال : « على ألا يشركن بالله شيئا » قالت هند بنت عتبة

---

(١) سورة الممتحنة آية ١٢

وعلى وجهها نقاب خشية أن يعرفها رسول الله لما صنعته بحمزة فى « أحُد » قالت : (والله إنك لتأخذ علينا أمرا ما أخذته على الرجال) . فقال النبى : « ولا يسرقن » فقالت هند : إن أبا سفيان رجل شحيح وإنى أصيب من ماله قوتنا . فقال أبو سفيان وكان حاضرا هو حلال لك . فضحك النبى عليه الصلاة والسلام وقال : أنت هند ؟ فقالت : عفا الله عما سلف . ثم قال : « ولا يزنين » فقالت هند : أوتزنى الحرة ؟ ثم قال : « ولا يقتلن أولادهن » بمعنى لا يئدن البنات ولا يُسقِطْن الأجِنَّة . فقالت : هند ربيناهم صغارا وقتلتموهم كبارا فأنتم وهم أعلم . فضحك عمر حتى استلقى . ثم قال : ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معروف » .

والمعنى المراد من الجزء الأخير : أنهن لا يُلحقن بأزواجهن أولاداً ليسوا منهم حيث كانت المرأة تلتقط الولد فتلحقه بزوجها وتقول : هذا ولدى منك وهذا بهتان وافتراء . وأما قوله تعالى : ﴿ ولا يعصينك فى معروف ﴾ فالمراد منه النهى عن كل منكر نهى الإسلام عن ارتكابه .

فهذه الآية كانت دستور المبايعة الذى شمل المنهى عنه فى الدين . أو الأشياء الكبيرة التى يجب اجتنابها . وهذا الدستور مستمر فى كل زمان ومكان . شامل للرجال والنساء . ولكن الرسول أكده للنساء لضعف عقولهن وانسياقهنَّ للعاطفة .

تتمـــــة :

وحيث إن المرأة استقلت بالبيعة ولم يبايع الرجال لها فهذا دليل على استقلالها فى المسئولية الشخصية وترتب على ذلك ما يلى :

١ ـ المرأة المؤمنة لها أجرها ولو كانت تحت زوج غير مستقيم والمرأة العاصية عليها وزرها ولو كانت لأحد رُسُلِ الله والمثال على ذلك . زوجتا نوح ولوط عليهما السلام .

٢ ـ المرأة لها حق مبايعة الحاكم وليس له أن يرفض بيعتها .

٣ ـ المرأة تتحمل مسئولية تصرفها فى الدنيا كالرجل سواء بسواء فإن أحسنت جُوزِيَت وأن أساءت عُوقِبت دينا وقانونا .

٤ ـ المرأة يترتب جزاؤها الأخروى على طاعتها ومعصيتها

﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (١) .

وأخيرا نورد عدة أمور يتساوى فيها الرجل والمرأة حتى يعرف الناس سماحة الاسلام . .

إن الرجل والمرأة يتساويان فيما يلى :

١ ـ المساواة فى أصل الخلقة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ﴾ (٢) .

٢ ـ المساواة فى أن كلا منهما هبة من الله سبحانه ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴾ (٣) .

٣ ـ المساواة فى الاستقلال فى المسئولية .

٤ ـ المساواة فى إباحة الكسب الحلال ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۚ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ ﴾ (٤) .

٥ ـ المساواة فى استحقاق الإرث بحكم الصلة ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ (٥) .

---

(١) سورة الأحزاب آية ٣٥
(٢) سورة الحجرات آية ١٣
(٣) سورة الشورى آية ٤٩
(٤) سورة النساء آية ٣٢
(٥) سورة النساء آية ٧

٦ ـ المساواة فى توجيه الخطاب فى الآداب العامة قال تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ ﴾ ثم قال: ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ ﴾ (١).

٧ ـ المساواة فى التكافل الاجتماعى ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ (٢).

٨ ـ المساواة فى دفع الأذى عن كل منهما ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ (٣)، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴾ (٤).

٩ ـ المساواة فى حق الوقاية والرعاية ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَـٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (٥).

١٠ ـ المساواة فى طلب استغفار الرسول لهما ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ﴾ (٦).

---

(١) سورة النور آية ٣٠ ، ٣١
(٢) سورة التوبة آية ٧١
(٣) سورة الأحزاب آية ٥٨
(٤) سورة البروج آية ١٠
(٥) سورة الفتح آية ٢٥
(٦) سورة محمد آية ١٩

١١ - المساواة فى حق الدفاع عن النفس ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ۝٦ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۝٧ وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ۝٨ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (١).

وهكذا كرم الإسلام المرأة وأعطاها من الحقوق فوق ما تطلب وأكثر مما تأمل وكيف لا وهو تشريع العليم الخبير.

★ ★ ★

(١) سورة النور آية ٦ - ٩

الفصل الثانى

النداءات الموجهة إلى المؤمنين

مقدمة توضيحية :

إن هذا الفصل سيتناول بعون الله الأحكام الشرعية : كالعبادات والمعاملات كما أنه سيشمل طائفة من الأخلاق والآداب الإسلامية التى تضمنتها الأحكام الواردة . قرين كل نداء بـ ﴿ يأيها الذين آمنوا ﴾

وسأحاول قدر ما يهبنى الله من جهد أن أذكر سبب النزول وبالله التوفيق .

★ ★ ★

الإيمان والطاعة

قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ (١) .

فائده عامة :

لو رجعنا إلى القرآن الكريم لنبحث عن كلمات الإيمان لوجدنا الآتـى :

الأمر الصريح بالإيمان ﴿ آمِنـوا ﴾ = ١٨ مرة

الإيمان كصفه عامة ﴿ آمَنُوا ﴾ = ٢٥٨ مرة

مشتقات لفظ ﴿ إيمان ﴾ = ٤٥ مرة

الإيمان كصفة تخضع لموصوفها ﴿ مُؤمـن ﴾ = ٢٣٠ مرة

هذا بخلاف مشتقات لفظ آمن بجميع أستعمالاته فقد وصل المئات .

*** الإيمان من ناحية العقيدة :**

الإيمان هو نطق باللسـان وأعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح تم تطبيق ذلك عن طريق الاتصال الوثيق بالله تعالى فى السراء والضراء . فى المرض والعافية فى الشباب والشيخوخة . فى الوحدة ومع الجماعة .

والرسول عليه الصلاة والسلام بَيَّن الإيمان عقيدة وتطبيقا بقوله لجبريل حين سأله ما الإيمان ؟ فقال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وتؤمن بالبعث» (٢) وبين

---

(١) سورة النساء اية ٥٩

(٢) رواه الشيخان

الجانب التطبيقى للإيمان بقوله : « ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى اقلب وصدقه العمل وإن قوما غرتهم الأمانى فخرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم وقالوا نحسن الظن بالله . وكذبوا فلو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل » [1] .

ثم يوضح صلى الله عليه وسلم أشكالا للعمل التطبيقى حتى لا يضُنينا البحث عنها بقوله « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » [2] فحب الخير لغير شكُلُ من أشكال الإيمان . ويقول مبينا منزلة الأمانة « لا إيمان لمن لاأمانة عنده » [3]

والمؤمن الصادق الإيمان يعلم يقينا أن الإيمان أنطلاقٌ من القيود التى تفرضها الدنيا على النفس البشرية لأن الإيمان أملٌ بلا قيودٍ ولا حدودٍ حيث أن الأشياء التى يسعى الإنسان من أجلها كالرزق والأجل والسعادة والشقاء . كلها بيد الله تعالى . فأمسنا الماضى لا يمكن أستعادته وغدنا المرتقب لا ندرى ماذا يَكَنَّ لنا فيه وحاضرنا تجرى لحظاتَه . والكيس من أمسك ببعضها وملأها بخير العمل وأما العاجز فإنها تتفلت منه تفلُّت الماء من بين الأصابع غير المتضامَّة لتلحق بالأمس الذاهب :

الإيمان كذلك أمان من الخوف والفقر والمرض والعدو . سواء كان ذلك العدو نفسا أو شيطانا أو أنسانا متسلطا . وهو أيضا حياة للقلب . ونورٌ للروح وأشراق للنفس وحافزٌ للجوارح على العمل إنصياغا لأمر الله وفرارا من المعاصى ـ يشبه فرارَ الأعزل أمام حيوان ضار وهو سلاح لا يَثْلم حدُّه . ولا ينحنى نِصله . وتجارة رابحة لا تبور . وسيل عارم من الأخلاق الكريمة التى تؤلف بين القلوب . وتوحد بين الأهداف . وتجمع الكلمة .

هذه لمحات سريعة عن الإيمان . غالبا ما تكون متوفرة لدى المؤمنين الخلص بربهم وعقيدتهم .

---

(١) رواه الشيخان

ولذلك غلب النداء بعد الهجرة للأنصار والمهاجرين بصفة الأيمان ﴿ يأيها الذين آمنوا﴾ لأن الأيمان ارتكـز فى القلوب . وتبلور تضحيةً وبـذلاً من المهاجرين للوطن والأهل والمال .

ومن الأنصار للبذل والإيثار والمحبة والأيواء لمن هاجر بسماحة وإخلاص . فكان الجميع أهلا لهذا النداء الرقيق يسبق كل أمر يراد توجيهه إليهم وأكْرِمْ بصفة الإيمان ينادَى بها المؤمنون .

*** المراد من الآية :**

أن الله سبحانة يأمر المؤمنين باستدامة طاعته وطاعة رسوله ﷺ وأقول : باستدامة الطاعة لأنها موجودة فعلا . ومُلازِمَةٌ للإيمان الصحيح فالأمر بها ليس عبثا . ولكنه نوع من التأكيد ليظل المؤمن متذكراً الطاعة ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [1] والإنسان يحتاج إلى التذكير الدائم لأنه سريع النسيان والتذكير فيه نفع للمؤمن قال تعالى ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [2] .

ما المقصود بطاعة الله ورسوله وأولى الأمر المؤمنين ؟

أ ـ طاعة الله تعالى :

هى تنفيذ أوامره وتَجَنُّبُ نواهيه . هى إحلال ما أحل وتحريم ما حرم . هى التزام كتابه والأعتصامُ بدينه الخ . . .

ب ـ طاعة رسول الله ﷺ :

هى الأقتداءُ به والائتمارُ بأمره
﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [3]

---

(١) سورة طـه آية ١١٥
(٢) سورة الذاريات آية ٥٥
(٣) سورة الحشر آية ٧

هى تطبيقُ تعاليمه وملازمةُ سنته ومعرفةُ أن طاعته من طاعة الله ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾[1] بل إنَّ من يجمع بين طاعة الله وطاعة رسوله يُرفع إلى الدرجات العلا مع من أنعم الله عليهم

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾[2]

والرسول يؤكد ذلك بقوله عليه الصلاة والسلام « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » هذا وقد تكرر لفظ (أطيعوا) بصيغة الأمر ١٩ مرة سواء كانت الطاعة لله أو للرسول ﷺ وحده . وتكرر لفظ (أطيعونى) على لسان الأنبياء السابقين الذين ورد ذكرهم فى القرآن الكريم ١١ مـــره .

جـ ـ طاعة أولى الأمر :

إن طاعـة أولى الأمر واجبة مالم يأمروا بمنكر أو ينْهَوْا عن معروف . بمعنى أن طاعتهم ثابتـة ما أستقـامـوا على طريق الحق . ينصرون الدين . ويحمون الوطن . ويَسْعَـوْن جادّين لإحلال الأمن محلَّ الخوف . والطمأنينة محل الفزع . والغنى محلَّ الفقر والصحةَ محل السقم والعلمَ محل الجهل ولا يدخرون وسعا فى ترقية مجتمعهم وترشيد مواطنيهم . ولنضرب مثلا لذلك :

هذا هو أبو بكر الخليفة الأول يلزم نفسه أمام الله وأمام المسلمين بما يجب على ولى الأمر فيطلب من المسلمين أتباعه ومناصرته ما دام على الحق ويجعلهم فى حل من ذلك إذا أنحرف عن الطريق السوى (أطيعونى ما أطعت الله فيكم فإن عصيت فلا طاعة لى عليكم) ثم يوضح أن الحقوق ستصل إلى أصحابها وأن كل إنسان محاسبٌ على عمله لا فرق بين الشريف وغيره . الكلُّ أمام الله سواء
القوى فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه والضعيف عندى قوى حتى آخذ الحق له

---

(١) سورة النساء آية ٨٠
(٢) سورة النساء آية ٦٩

ومثال آخر عمر بن الخطاب أمير المؤمنين الشديدُ الوَرِع يطلب من الرعية أن تقوم بدورها فى بذل التوجيه المخلص للراعى . وأن تقوِّم أعوجاجه إذا أعوج . يروى التاريخ أن عمر وقف على المنبر وقال : أيها الناس اسمعوا وأطيعوا : وإذا برجل من عامة الناس يقول : (لا سمع ولا طاعة) إنه شىء جديد ومنطق غريب يسمعه عمر لأول مرة من مسلم . ويرى ضرورة أستطلاع الأمر وتبين السبب . فيقول عمر بلهجة المؤمن المسترشد . ولم يا أخا الإسلام ؟ فيقول الرجل : لقد وزعت علينا من الغنائم قميصا قميصا وأنت رجل طِوال فمن أين لك هذا القميص الطويل ؟ فلم يجب عمر بنفسه لأنه الآن فى موقف المتَّهَم . ولكنه نادى : أفى الناس عبد الله بن عمر؟ فيقول عبد الله : نعم يا أمير المؤمنين . فيقول له عمر : أجب عنى . فيقول عبدُالله لقد أعطيت قميصى لأبى فوصله بقميصه فلبسه . إلى هنا انتهت القضية وانقشع اللَّبْسُ وتَبَيَّن الحق . فقال الرجل بعد أن أطمأن قلبه وأستعاذ بالله من سوء الظن . الآن يا أمير المؤمنين قل نَسْمَعْ لك ونُطِعْ ؟

أى طراز هذا من الرعاة والرعية . أى صدق وأى قوة فى الحق . رجل من العامة يحاسب الأمير على مرآى ومسمع من الناس . وأميرٌ يعلن عدالته ويرتاح للمحاسبة . إن كلا منهما تربى فى مدرسة محمد بن عبد الله ﷺ .

ومن هنا يقول الأمام على بن أبى طالب رضى الله عنه : (حقٌّ على الإمام أن يحكم بالعدل ويؤدىَ الأمانة . فإذا فعل ذلك وجب على المسلمين أن يطيعوه) . لأن الله تعالى أمر بأداء الأمانة والعدل ثم أمر بالطاعة .

من هذا كله نعرف صفة ولى الأمر الذى يجب أن يطاع ويُنَفَّذَ أَمْرُه .

الأحتكام إلى الله وإلى الرسول عند المنازعة :

إن القرآن وجهنا إلى جهة الفصل فى القضايا عند الاختصام والتنازع . وهذه الجهة ليست محكمة أرضية مدنية يحكمها مستشارون . ولا مجلسا لفض المنازعات . ولا محكمة ولا هيئة دولية . ولكن جهة الفصل هى الجهة العلمية التى تُشرِّع وتأمر

بالتنفيذ . إنها القانون السماوى ممثلا فى كتاب الله تعالى وفى رسول الله ﷺ أثناء حياته .

وفى سنته القولية والعملية بعد أنتقاله إلى الرفيق الأعلى . لأن الكتاب والسنة هما مصدر التشريع الثابت . لأن القرآن المجيد حوى كل ما يحتاج إليه الناس فى حاضرهم ومستقبلهم ولأن السنة المحمدية شارحة للكتاب مفصلة لمجمله . مبينةٌ للغامض فيه . والرسول ﷺ يقول : « ما نهيتكم عنه فأجتنبوه وما أمرتكم به فأفعلوا منه ما أستطعتم فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة مسائلهم وإختلافهم على أنبيائهم »[1] ومن الكتاب والسنة أخذ أئمة الإسلام الأحكام التشريعية لأنهما أقوى مرجع واعزُّ دستور ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾[2] ومن هنا ندرك سر قول الرسول ﷺ (لقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبدا كتاب الله وسنة رسوله)[3] .

قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾[4]

هذه الآية فى أفتتاحيتها كسابقتها التى مر شرحها آنفا . ولكنها أبرزت أمرين .

الأول :

عدم الانصراف عن الرسول ﷺ . وضرورة التمسك بطاعته فيما أمر ونهى .

---

(١) رواه أصحاب السنن

(٢) سورة النساء آية ١٠٥

(٣) رواه مسلم

(٤) سورة الأنفال آية ٢٠ ، ٢١

الثانى :

عدم التشبيه بالمتمردين من اليهود الذين قالوا لرسلهم : سمعنا وأطعنا . ولكنهم لم يسمعوا ولم يطيعوا . ولهذا وجدنا القرآن يصفهم بالدواب الصماء البكماء التى لا تعقل . وينفى عنهم الخيرية فقلوبهم ليست أهلا لأحلال الإيمان فيها . بل أحكم الكفر إقفالها فأنغلقت ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾[1] ثم أنهم سيقرون على أنفسهم بذلك يوم يلقى بهم فى جهنم حيث تسعر بهم ويقولون فى مرارة وأسى ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[2]

من هنا نلمس حرص الإسلام على أبنائه . وبعده بهم عن المخالفة . وأمره أياهم بدوام السمع والطاعة لله ولرسوله . حتى لا يندموا كما سيندم غيرهم يوم الدين .

وهذا الدين يشعر المؤمنين ويوحى إليهم بأن عدم الطاعة يشين العقلاء حيث يخالفون ما أتفقوا عليه وعزموا على تفيذه . وفى هذا كذب لا يليق بالمؤمن .

قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذْكُرُوٓا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[3] .

---

(١) سورة الأنفال آية ٢٣

(٢) سورة الملك آية ١٠

(٣) سورة الأنفال آية ٢٤ ـ ٢٦

النداء موجه إلى المؤمنين . والحكم المطلوب تنفيذه هو سرعة الاستجابة لله تعالى ولرسوله . وهذه الإجابة تتمثل فى تنفيذ الأوامر الصادرة إليهم . والتزام ما جاء به الكتاب العزيز . وما أمر به الرسول المرشد ﷺ .

وفى الاستجابة تبادل محبة بين المؤمنين وبين رسول الله ﷺ . فكلما توثقت بمبدأ الاتباع زادت المحبة فتنزل الرحمات وعم فيض المغفرة ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ (١) .

والاستجابة المأمور بها هنا ليس خارجة عن مصلحة المؤمنين وإنما فيها إحياء لقلوبهم وصقل لأرواحهم وتطيب لأبدانهم . وسعادة فى الدنيا ونعيم فى الآخرة . لأنها تشمل كل أنواع المجاهدات التى يؤمر بها . ولقد روى أن أبا سعيد بن المعلى كان يصلى فى المسجد فدعاه النبى عليه السلام فلم يجبه . فلما أنصرف من صلاته أتى النبى فقال : يا رسول الله إنى كنت أصلى . فقال له النبى : ألم يقل الله عز وجل : ﴿ إستجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ؟ ﴾ (٢) .

من هنا يرى الإمام الشافعى رضى الله عنه : أن الإنسان إذا أتى بفعل أو قول فرض وهو فى صلاته لا تبطل صلاته . لأمر رسول الله ﷺ بالإجابة وإن كان فى الصلاة .

ثم تبين الآية قدرة الله تعالى على وضع حائل بين القلب وبين الفعل الذى يريده العبد .

لأنه تعالى مقلب القلوب كلها ومالك نواصيها . وهو قادر على أن يجعل بين الإيمان أو الكفر وبين القلب حاجزا . بل قد تغير القدرة أستعداد القلب للمؤثرات فتجعله آمنا بدل الخوف أو العكس . يقول عليه الصلاة والسلام : « إن قلوب العباد

---

(١) سورة آل عمران آية ٣١

(٢) راجع تفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبى

بين أصبع من أصابع الرحمن يقلبها كيف شاء » والمقصود هنا بالأصابع الصفات كالقدرة والإرادة .

فمن كانت القدرة صفته وجب على العبد أن يسارع إلى الإستجابة لأمره خاصة وأنه تعالى إليه المصير .

وأن الكل سيحشر إليه فيجازى كل إنسان بما عمل ولن يقبل عذراً من معتذر مقصر عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أوراض بما يفعله قومه من شرور . لأن العذاب يعم الجميع . يعم المسيئين بسبب إساءتهم والمحسنين لتخاذلهم عن النصيحة .

ثم يبعث الناس على أعمالهم الحسنة أو القبيحة

﴿ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾[1]

ويقول الله تعالى لرسوله وللمؤمنين :

﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾[2]

وورد كذلك أن الله تعالى قال لأحد رسله :

(انى مهلك من قومك أربعين الفا من خيارهم وستين الف من شرارهم : قال : يارب الاشرار بعملهم وما ذنب الأخيار قال : لأنهم رأوا الشر ولم ينهوا عنه) .

وما ربك بظلام للعبيد .

★ ★ ★

---

(١) سورة الأنفال اية ٢٥

(٢) سورة هـود آية ١١٣

خطر الارتداد عن الدين

* قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

الـــردة :

هى الرجوع عن الدين . والإسلام يعاقب المرتد بالقتل . فيقول الرسول ﷺ مبينا ذلك : « لا يحل قتل مسلم إلا بأحدى ثلاث خصال : محصن يرجم . ورجل قتل مسلما متعمدا فيقتل . ورجل يخرج من الإسلام فيحارب الله ورسوله فيقتل أو يصلب أو ينفى من الأرض » (٢)

وفى رواية (من بدل دينه فأقتلوه) وقد يرى بعض قصار النظر أن هذه العقوبة معناها الزام المرء بالدين . ولكنُ حقيقة ذلك : أن المرء لا يجبر على الدخول فى الدين بادئ ذى بدء فإذا دخله كان ملتزما بتبعاته . منفذا لأوامره . وإلا كان الأمر فوضى وتلاعب الناس بالدين يدخلونه عندما تبدوا لهم مصلحة فى ذلك . فإذا ما تحققت تخلوا عنه .

*** وهناك أشياء يعتبر الأتيان بها أو بأحدها إرتدادا عن الدين هى :**

١ ـ الرجوع الصريح عن الدين باللفظ من غير إكراه .

٢ ـ سب الله تعالى أو أحد رسله أو القرآن الكريم .

---

(١) سورة المائدة آية ٥٤

(٢) رواه أبو داود والنسائى وصححه

٣ ـ إنكار صفة واجبة من صفات المولى عز وجل .
٤ ـ السخرية بالأحاديث القدسية أو النبويه الصحيحة .
٥ ـ إنكار ركن من أركان الإسلام الخمسة .
٦ ـ سب الدين الإسلامـــى .

ولا يرتد عن دينه إلا من تسلطت أهواؤه على نفسه . وطار وراء أهداف دنيوية زائلة . أما من خالطت حلاوة الإيمان قلبه لا يترك دينه مهما لقى فى سبيل المحافظة عليه والأستمساك به من عنت ومشقة . يبين هذا رسول الله ﷺ فى قوله لأحد أصحابه حين سأله الدعاء ليخفف الله عنهم ما يلاقون من المشركين « إن من كان قبلكم كان يؤتى بالمنشار فيوضع على فرق رأسه فيشق نصفين ما يصرفه ذلك عن دينه » [1] وكذلك تظهر لنا هذه المحادثة التاريخية بين أبى سفيان قبل إسلامه ـ وبين قيصر الروم حين سأله القيصر عن محمد وأتباعه . . هل يرتد أحد منهم سخطة على دينه بعد أن دخل فيه ؟ فقال أبو سفيان : لا يرتد أحد منهم عن دينه . فقال القيصر : وكذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب فإنه لا يفارقها .

من هنا نرى أن هذه الآية فيها توجيه للمؤمنين . وتحذير ضمنى من أمر خطير نبأ به الرسول ﷺ قبل وقوعه وهو الأرتداء عن الدين . وهذا من الإعجاز القرآنى فعلا .

ولقـد وقعت الـردة عقب وفـاة الرسول ﷺ . ومنع جماعة من العرب الزكاة . وأعتبروها ضريبة كانت مفروضة عليهم فألهم الله أبا بكر (رضى الله عنه) الوقوف فى وجه الفتنة التى كادت تمزق وحدة المسلمين . وتطمع فيهم أعداءهم وأثبت التاريخ أن أسباب الردة كان من بينها الفتنة التى قام بها الموتورون من أصحاب الممالك التى عفا عليها الإسلام . وأقام مكانها صروح العدل والحرية . كما أن اليهود كانت لهم يد محركة فى ذلك . محاولة منهم لأستعادة مكانتهم الأقتصادية وسيطرتهم على رأس المال

(١) راجع سيرة ابن هشام جـ ٢

عن طريق الـربا وقضى أبو بكر على الفتنة وأستشهد من المسلمين عدد كبير ولعب التخطيط العسكرى لمعركة اليمامة بقيادة (خالد بن الوليد) دوراً فعالا فى القضاء على رأس الفتنة مسيلمة الكذاب الذى قاد المرتدين وعاد للإسلام كثير من المرتدين بعد أن عرفوا أنهم غُرِّر بهم .

وألمحت الآية كما ورد فى سبب نزولها إلى أن الله سبحانه تعالى سيختار قوما يقفون فى صلابة لنصر الحق ورفع راية الإسلام .

* سبب النـــزول :

ورد فى الخبر أن الآية نزلت فى الأشعريين لأن سفائتهم جاءت عقب نزول الآية . وقبائلهم اليمنية الشجاعة فأبلوا فى عهد الرسول ﷺ بلاء حسناء فى المعارك .

كما ساهموا فى الفتوحات الإسلامية الكبرى وكانوا أعزة على الكافرين لا يستذلون لهم ولا يلينون . وفى الوقت ذاته كانوا متواضعين للمؤمنين لا يتعالون عليهم . فكانوا بهم فى رحمة الوالد بولده . يؤكد هذا قول الله تعالى فى وصف أصحاب النبى محمد ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ (١) وفعلا كان هؤلاء الأشعريون وغيرهم . من الـذين وعد الله بالإتيان بهم - يعشقون الجهاد فى سبيل الله ولا يعرفون الفرار أمام الأعداء ولا يخافون فى الله لومة لائم لأنهم ثابتون على الحق . لا يخشون ما ينزل بهم فى سبيل غاياتهم النبيلة . فكانوا بهذه الصفة يخالفون المنافقين الذين تزلزلهم النوازل وتهزهم الشدائد . ويرهبون كل نداء خشية أن يكون مقصدهُ الإيقاع بهم ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة الفتح آية ٢٩

(٢) سورة المنافقون آية ٤

وأخيراً فإن الصفات المتقدمة . التواضع للمؤمنين والتعالى على الأعداء . والجهاد فى سبيل الله وعدم الخوف من قول كلمة الحق . وردع الظالمين . كل هذه الصفات من فضل الله تعالى الذى يجود بفضله على من يشاء من عباده ممن يراهم أهلا لحلول هذا الفضل . والله ذو فضل واسع وعطاء جزيل .

★ ★ ★

التحذير من الخيانة

قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [1] .

سبب نزول الآية :

نزلت هذه الآية أثناء حصار المسلمين لبنى قريظة وذلك لأن يهودَ بنى قريظة ساعدوا قريشا أثناء غزوة الأحزاب . وأوشكوا أن يدلوهم على عورات المدينة ونقضوا بذلك عهدهم مع رسول الله ﷺ . فذهب الرسول ﷺ إليهم عقب إندحار الأحزاب ورحيلهم عن المدينة ـ

وحاصرهم مدة عشرين يوما فاشتد عليهم الكرب . وأوشك ما عندهم من طعام على الفناء فطلبوا أن يرسل الرسول إليهم : « أبا لبابة بنَ المندر » لاستشارته وكان من الأوس ولكنه أسلم فبعث به الرسول ﷺ إليهم . فلما أقبل على بنى قريظة واجهوه بالبكاء والعويل . ثم قالوا له : هل تزل على حكم محمد؟ قال: نعم وإلا : ثم أشار بيده إلى حلقه يعنى الذبح ـ قالها أبو لبابة ثم أدرك لساعته أنه خان الله ورسوله . يقول أبو لبابة : والله ما زالت قدماى حتى علمت أننى قد خنت الله ورسوله .

فلما نزلت الآية شد أبـو لبابة نفسه إلى سارية بالمسجد وأقسم لا يذوق طعاما ولا شرابا حتى يموت أو يتوب الله عليه . فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال : « أما إنه لو جاءنى لاستغفرت له فأما إذ قد فعل ما فعل فما أنا بالذى أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه » [2] فنزلت توبة أبى لبابة على رسول الله ﷺ وهو فى بيت أم مسلمة .

---

(١) سورة الأنفال آية ٢٧

(٢) راجع أسباب النزول للنيسابورى : وكذا الجامع لأحكام القرآن للقرطبى

فسمعت الرسول من السحر وهو يضحك . قالت : مم تضحك يا رسول الله أضحك الله سنك ؟ قال : تيب على أبى لبابة . قالت : أفلا أبشره يا رسول الله ؟ قال : بلى إن شئت . فقامت على باب حجرتها ـ وذلك قبل أن يضرب الحجاب عليهن ـ فقالت : يا أبا لبابة أبشر فقد تاب الله عليك فثار الناس ليطلقوه . فقال : لا والله حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذى يطلقنى بيده . فلما مرّ الرسول ﷺ خارجا إلى صلاة الصبح أطلقه .

من هنا ندرك أن الإشارة أو الكلمة إذا وصلت العدو أعتبرت خيانة لأنها تضر بمصلحة الأمة . وتضع يد عدوها على ما يريد الحصول عليه من معلومات .

الحكم المأخوذ من الآية :

إن الحكم الذى يفهم من لفظ الآية هو ضرورة الأمانة على أسرار الأمة وهو ما يعرف عسكرياً (بأمن المعلومات) لأن العدو يحلل كل صغيرة وكبيرة تحليلا دقيقا . يصل من ورائه إلى هدفه الذى ينشده فى تفتيت كلمة المسلمين .

وتبين الآية أن إفشاء الأسرار خيانة كبرى . لا تغتفر لصاحبها أبداً . بل لا بد وأن يؤاخذ عليها دون إبداء رأفة أو رحمة فى المؤاخذة ليكون العقاب زاجرا لغيرة ممن تسول له نفسه الخبيثة التعاون مع الأعداء . والرسول عليه الصلاة والسلام ينفى صفة الإيمان عن الخائن فيقول : « لاإيمان لمن لا أمانة عنده » [1] . لأن الأمانة فيها الأمن والطمأنينة . ولأن الخيانة فيها الخذلان والهزيمة .

---

(١) رواه أصحاب السنن

الأمر بالصدق

قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ (١) .

النداء الموجه فى هذه الآية مقصود منه أن يتجمل المؤمنون بأكمل الصفات . ويتحلوا بأخلاق الإسلام . إعزازا لكرامتهم وتثبيتا لوجودهم . وذلك لأن الصدق من أجَلِّ الصفات التى يجب على المؤمن أن يحرص عليها . ولأن الكذب عار ومنقصة مهدرة للكرامة ومخلخلة للمروءة . من أجل ذلك تكررت مشتقات كلمة « الصدق » فى القرآن الكريم ﴿ قرابه مائه وثلاث وعشرين مرة ﴾ وأمرنا ربنا سبحانه وتعالى بأن نكون مع الصادقين الذى تستوى ظواهرهم وبواطنهم . حتى نكون بمنآى عن صفات المنافقين . الذين يظهرون غير ما يبطنون

﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ (٢)

وهذا كفيل بأن يصيب الإنسان بمقت الله تعالى ويعرضه لسخطه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٣) .

والرسول عليه الصلاة والسلام يدفعنا إلى الأمام لنلحق بركب الأبرار الذين يحظون بمرتبة الصديقة عند الله فيقول : « عليكم بالصدق فإن الصدق يدعوا إلى البر وأن البر يدعو إلى الجنة . وما زال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا » ثم ينهانا فى الوقت نفسه عن محاكاة الكذابين الفجرة الذين يبوؤهم الكذب

---

(١) سورة التوبة آية ١١٩

(٢) سورة آل عمران آية ١٦٧

(٣) سورة الصف آية ٢ ، ٣

منازل فى جهنم فيقول : « واياك والكذب فأن الكذب يدعو إلى الفجور وإن الفجور يدعو إلى النار . وما زال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا »[1] .

والصدق من صفات الله تعالى ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾[2] وهو صفة ثابتة للأنبياء حيث ثبت فى كتب العقائد إن الصفات الواجبة للانبياء عليهم الصلاة والسلام هى : (الصدق والأمانة والتبليغ والفطانة) ويقول الله سبحانه عن إسماعيل عليه السلام :

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾[3] .

ثم إن الصدق من سمات المخلصين . والكذب من صفات المغرورين الحمقى .

والذى يتأمل الصدق بإمعان فكر وروية . يرى أنه من أجلِّ الدعائم التى ترتكز عليها الفضيلة . ومن أسمى وسائل الرقى حيث يؤكد الصلة بين الفرد والجماعة . والرسول عليه السلام يقول : « كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثا هو لك به مصدق وأنت له به كاذب »[4] فالصدق إذن أمانة والكذب خيانة . والصدق سواء فى القول أو الفعل يؤدى إلى رضوان الله تعالى . فلو أستشارك مسلم فأشرت عليه بغير الحق فقد خنت الأمانه يقول عليه الصلاة والسلام : « من أشار على أخيه بأمر يعلم أن الرشد فى غيره فقد خانه »[5] . والأندماج فى زمرة الصادقين يزيد المؤمن إيمانا ويضفى على وجهه نضارة ونوراً يعلو به مقاما ويدتيه من الجنة . ولقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ ثم سأله قائلا : يا رسول الله ما عمل أهل الجنة ؟ قال : « الصدق إذا صدق العبد بر . وإذا برآ من . وإذا آمن دخل الجنة . قال : يا رسول الله وما عمل أهل النار؟

---

(١) رواه البخارى ومسلم
(٢) سورة النساء آية ٨٧
(٣) سورة مريم آية ٥٤
(٤) رواه أحمد وأبو داود بسند صعيف
(٥) رواه أبو داود والحاكم

قال : الكذب . إذا كذب العبد فجر . وإذا فجر كفر . وإذا كفر دخل النار »[1] .

وليس بغريب أن يكمل الرسول محمد ﷺ دعوة أخوانه المرسلين إلى الصدق فنحن نجد نبى الله موسى عليه السلام يناجى ربه ﴿ أى عبادك أحب إليك يارب ؟ فيقول الله تعالى له : الذى لم يفجر قلبه ولم يزن فرجه ولم يكذب لسانه ﴾ .

ونجد عيسى عليه السلام يقول لأتباعه : الحق أقول لكم إن كل كلمة بطالة يعطى الناس عليها حسابا يوم الدين .

ثم يبين الرسول لنا عقاب الكذابين بأنهم يأتون يوم القيامة سودَ الوجوه يعلوهم الخزى وذلك معلوم من كتاب الله تعالى

﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾[2] .

بعد هذا كله نرى حرص الإسلام على أن يتخلق أبناؤه بخلق الصدق لأن ذلك خير لهم فى معاشهم ومعادهم وإن الذى يدفع المرء إلى الكذب إنما هو تحصيل عرض زائل من أعراض الدنيا التى قيل فى ذمها

هى الدنيا ، إذا كَسَتْ : أوْ كَسَتْ واذا حَلَتْ : أوْ حَلَتْ

* هل تقبل شهادة الكاذب :

يرى بعض الأئمة أن الكاذب لا تقبل له شهادة ويستدلون على ذلك بقوله تعالى عمن يقذفون المؤمنين والمؤمنات زورا وبهتانا

﴿ وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[3] .

---

(١) رواه أحمد

(٢) سورة الزمر آية ٦٠

(٣) سورة النور آية ٤

وسئل شريك بن عبد الله فقيل له (يا أبا عبد الله رجل سمعته يكذب متعمداً . أوصلى خلفه ؟ قال : لا) وقال مالك : لا يقبل خبر الكاذب فى حديث الناس وإن صدق فى حديث رسول الله ﷺ .

وقال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ (١) .

هذه الآية فى مقصودها مشابهة للآية السابقة . لأنها تسير فى نفس الاتجاه الذى يؤكد ضرورة الصدق ويحذر من الكذب . وهى فى دعوتها إلى القول السديد تؤكد التمسك بالخير والفضيلة .

سبب نزول الآية :

يرى بعض العلماء أنها نزلت لتحض المسلمين على قول الصدق وصواب الاتجاه فى شأن قصة زيد بن حارثة وزينب بنت جحش . وإن لا ينْسِبُوا إلى الرسول ﷺ من القول فى حق زينب مالا يليق بمقامه الكريم . كما فعل المنافقون الذين أشاعوا قول السوء عنه ورموه عليه السلام بأنه رأى زينبا فى بيت زيد فأعجبه جمالها وقال : « سبحان مقلب القلوب » ولقد تمسك المستشرقون وأعداء الإسلام بهذا القول ليطعنوا به شرف الإسلام ومقام رسوله . ثم وعد الله المتمسكين بسديد القول بأنه سيصلح أعمالهم وسيغفر لهم ذنوبهم . وحسبهم بذلك كرامة نُزُل . لأنهم أطاعوا ربهم وكفى بالفوز جزاء على طاعته سبحانه وتعالى وطاعة رسوله ﷺ

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ . (٢)

---

(١) سورة الأحزاب آية ٧٠ ، ٧١

(٢) سورة الأحزاب آية ٧١

التذكير بالقيامة والحث على التقوى

قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ (١) .

لما كانت القيامة آتية لا محالة فقد عبر عنها القرآن بالشيء القريب من يوم الأنسان وهو غده . فكلما أن الإنسان لا يشك فى مجيء الغد . فلابد وأن يتأكد من مجيء القيامة . لأن كل آت قريب . يقوى هذا الأتجاه قوله تعالى :

﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ ﴾ (٢) .

والأمر فى هذه الآية مقصود بالحث على تقوى الله تعالى بالتوبة عما مضى من الذنوب . والخشية من عقاب الله مستقبلا . والابتعاد عن المخالفات . أستعدادا للآخرة ومراجعة لكشف الحساب . فيما بين الناس وبين أنفسهم قبل العرض على الله . وقبل أن تدفع إليهم الكتب التى لم تفرط فى قليل من العمل أو كثير

﴿ وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴾ (٣) .

فالمؤمن الكيس هو الذى ينتهز فرصة حياته فيأخذ منها لموته . ويأخذ من شبابه لهرمه .

---

(١) سورة الحشر آية ١٨ ، ١٩

(٢) سورة النحل آية ١

(٣) سورة الكهف آية ٤٩

ويأخذ من صحته لمرضه . ويأخذ من غناه لفقره . يستعد بذلك كله ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم . وأما العاجز فهو الذى تغره الأمانى الباطلة . ويشده بريق الدنيا الراحلة . ويشتغل باللذات عما هو آت . يؤثر هواه على حسن الأتباع . وينس أنه مأمور بالطاعة . فهذا الأنسان قد نسى نفسه . ويوم القيامة سيكون عقابه النسيان . وسيحس بضنك الحياة وقسوتها وبسوء الخاتمة والعياذُ بالله . حيث يحشر أعمى البصر والبصيرة

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ (١) .

وهذا يؤكده ويقويه قوله تعالى حاثا المؤمنين على تذكر الله دائما وعدم النسيان فضله حتى يسلموا من الخروج عن طريق الحق إلى سبيل الباطل

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (٢) .

والله سبحانه وتعالى خبير بعمل عباده ومجاز لهم على ما قدموا

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ (٣) .

* * *

(١) صورة طـه آية ١٢٤ ـ ١٢٦
(٢) سورة الحشر آية ١٩
(٣) سورة الكهف آية ٣٠

وجوب ذكر الله تعالى

قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾ (١)

مقدمـــــــة :

الذكر قسمـــان :

١ ـ ذكر لذات الله تعالى ٢ ـ ذكر لنعمة وآلائه .

ومما لاشك فيه أن القسم الثانى وهو ذكر نعم الله وآلائه يوصل إلى ذات الله ووجـوده . لأن النعمة لا تذكر وحدها . ولكنها معبرة فى الحقيقة عن وجود صاحبها وفضله . ولنبدأ بالقسم الأول .

القسم الأول :

الذكر لذات الله تعالى . إن الأمر بالذكر فى الآية يبين أن ذكر الله تعالى لا يختص بحال دون حال . فهو مطلوب فى كل وقت وعلى أى حال يقول الله تعالى :

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ (٢)

ويقول لحجاج بيته الحرام :

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ (٣)

---

(١) سورة الأحزاب آية ٤١ ، ٤٢

(٢) سورة النساء آية ١٠٣

(٣) سورة البقرة آية ٢٠٠

ويقول :

﴿ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ ﴾ (١)

والله سبحانه وتعالى قدر رضى من عباده أن يتقوه ما أستطاعوا أما فى الذكر فإنه أمرهم بالأكثار منه صباحا ومساء ﴿ أذكروا الله ذكراً كثيراً ﴾ .

ولقد أوضح النبى ﷺ مكانة الذكر بين العبادات فقال لأم أنس حين قالت له : يا رسول الله أوصنى فقال : « أهجرى المعاصى فإنها أفضل الهجرة . وحافظى على الفرائض فأنها أفضل الجهاد . وأكثرى من ذكرالله فإنك لا تأتين بشى ء أحب إليه من كثرة ذكره » .

وجاء أعرابى فقال : يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت علىّ فأنبئنى منها بشى ء أتشبث به . فقال له الرسول ﷺ : « لا يزال لسانك رطبا بذكر الله عز وجل » (٢) .

بل إن طاعة الله تعالى تعتبر أسلوبا من أساليب الذكر النافع يقول ﷺ : « من أطاع الله فقد ذكر الله . وإن قل صلاته وصومه وصنعه للخير . ومن عصى فقد نسى الله وإن كثر صلاته وصومه وصنيعه للخير » .

والذكر يعلى شأن المؤمن عند الله تعالى ويجعله فى مأمن من الشيطان . ويلين القلوب ويرطب الألسنة . ويحسن الأعمال . ويقرب العبد من ربه . ويطرد من النفوس القلق . ويعرض الذاكر لنفحات ربانية لا يحس بها غير الذاكرين . يقول ﷺ : « ما من قوم أجتمعوا يذكرون الله عز وجل لا يريدون بذلك إلا وجهه إلا ناداهم مناد من السماء : أن قوموا مغفوراً لكم بدلت سيئاتكم حسنات » (٣) .

---

(١) سورة البقرة ١٧٨

(٢) رواه أحمد

(٣) رواه أحمد بإسناد حسن

والـذاكـر يكون دائما فى بحبوحة الجنة يشم ريحها ويحس قلبه حلاوتها . يقول عبد الله بـن عمرو قلت يا رسول الله : (ما غنيمة مجالس الذكر؟) قال : « غنيمة مجالس الذكر الجنة » .

ويقول ﷺ : « إذا رأيتم رياض الجنة فارتعوا . قالوا : وما رياض الجنة يا رسول الله قال حِلق الذكر »[1] وكفى بالذاكرين شرفا أن يذكرهم ربهم فى الملأ الأعلى ﴿ومن ذكرنى فى ملإٍ ذكرته فى ملإٍ خير منه﴾[2]

وقال ذو النون المصرى عن الذكر : (من ذكر الله تعالى على الحقيقة نسى فى جنب ذكر الله كل شىء . وحفظ الله فى كل شىء وكان له عوضا كل شىء) .

وقال عبد الرحمن النهدى : (إنى لأعلم الساعة التى يذكرنى الله فيها . قيل له ومن أين تعلمهـا ؟ قال : يقـول الله تعالى : ﴿ فاذكرونى أذكركم ﴾ وسئل الإمام الواسطى عن الذكر فقال : (الخروج من ميدان الغفلة إلى فضاء المشاهدة على غلبة الخوف وشدة الحب)[3] .

وقـال سهل بن عبد الله التسترى : (ما من يوم إلا والجليل سبحانه ينادى : عبدى ما أنصفتنى أذكرك وتنسانى وأدعوك وتذهب إلى غيرى . وأُذْهِب عنك البلايا وأنت معتكف على الخطايا . يا أبن آدم ما تقول غدا إذ جئتنى ؟) .

وقـال الحسن : (تفقـدوا الحلاوة فى ثلاثة أشياء . فى الصلاة . والذكر وقرآءة القرآن . فإن وجدتم وإلا فاعلموا أن الباب مغلق) .

بعـد هذه اللمحـات القدسية النورانية ندرك لماذا أمر الله المؤمنين بالإكثار من الذكر . لأنه يريد لهم الخير ويريد لقلوبهم أن تطمئن ولنفوسهم أن تهدأ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾[4]

---

(١) رواه الترمذى
(٢) رواه أصحاب السنن
(٣) الرسالة القشيرية
(٤) سورة الرعد آية ٢٨

ويريد الله سبحانه أن تنعكس أنوآر الذكر وأشعته على أعضاء الذاكرين عملا صالحا ومرحمة دائمة . وتعاونا بناء .

وأنـواع الذكر كثيرة تبتدىء من قراءة القرآن إلى التسبيح والتأمل . والصلوات والاستغفار والتوبة والدعاء فذلك هو الاستغراق الكامل فى شهوده تعالى . والتعرف الدائب عليه واللجوء المستمر إلى حماه الركين .

ثم إن المؤمن مأمور بالذكر حين يأوى إلى فراشه وعند أستيقاظه من نومه وعند الطعام والشراب وعند دخول البيت والخروج منه . وعند لبس الثياب وخلعها . وعند رؤية المريض أو الفقير . بل أبعد من ذلك عند أتصال الرجل بأمرأته .

من هنا نرى أن المؤمن الكامل الإيمان هو الذى لا تلهيه الدنيا وزخرفها عن ذكر الله

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ (١) .

وعمار بيت الله هم أولئك الذين وصفهم مولاهم بأن التجارة لم تطغ عليهم ولم تعطلهم عن أداء ما أفترضه الله عليهم

﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ (٢)

ونحس فى الآية أمرا بعدم اللهو بزخارف الدنيا لئلا يتعرض اللا هى للخسران المبين ونعوذ بالله من الغفلة عن ذكره .

---

(١) سورة المنافقون آية ٩

(٢) سورة النور آية ٣٧

* **وأما القسم الثانى :**

وهو ذكر نعم الله تعالى . فأنه لا محالة موصل إلى ذكر صاحب النعمة وضرورة الأعتراف بالجميل .

ونعم الله لا يحصيها عادّ . ولقد ختمها الله تعالى بالإسلام حيث أختاره دينا لعباده . ثم التوفيق إلى صالح الأعمال . ثم المحبة والتآخى إلى غير ذلك من آلأء رب العالمين

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ۚ ﴾ (١)

فلنرطب ألسنتنا بذكر الله . ولنشغل أنفسنا بطاعته . ولنتدبر نعمه وخيراته فإننا لو فعلنا لجوزينا الخير . ولنذكر لله تعالى بكل جوارحنا . بالقلب وباللسان وبهما معا . وكما يقولون : إن من يطيل الطرق على الأبواب لابد وأن تفتح له .

فاللهم ذكرنا بك على كل حال . وأكشف الغطاء عن بصائرنا حتى ندرك نور الحق واكفنا ما يهمنا . آمين .

★ ★ ★

(١) سورة آل عمران آية ١٠٣

التوبة إلى الله تعالى

قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) .

مقدمـــة :

إن دموع الندم تغسل القلب من أدران المعصية . والذنب يشبه القذر يعلق بالثوب . والتوبة تمحو كل أثر للذنب . ونعلم أن الثوب إذا وقع عليه شيء من الدهن فإن لم يبادر صاحبه بغسله وإزالة ما علق به أنتشر الدهن فى نسيج الثوب وتجمع عليه التراب حتى يتغير لونه . فإن سارع صاحبه بغسله عاد إلى الثوب بياضه . كذلك القلوب إذا رانت عليها الذنوب وخيمت المعاصى عليها دون أن يتداركها أصحابها بالاستغفار والتوبة . فإنها لا شك سيغزوها السواد فتصبح كالزجاجة المغبرة لا ينفذ منها الضوء ولا تجدى صاحبها يقول ﷺ : « إذا أذنب العبد ذنبا نكتت فى قلبه نكتة سوداء . فإن تاب وأستغفر محيت هذه النكته . والا أسوَدَّ القلب . وهذا هو الران المذكور فى كتاب الله تعالى

﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾

ولأمر ما كان عليه السلام يكثر الإستغفار والتوبة حتى يعلم أمته .

فما كان له عليه السلام من ذنب يتوب إلى الله منه . لأن ربه وعده بالمغفرة

---

(١) سورة المطففين آية ١٤

﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ (١)

ومع ذلك كان يحث المسلمين على التوبة . ويريهم من نفسه دأبا وأستمراراً عليها « يأيها الناس توبوا الى الله واستغفروه فإنى أتوب فى اليوم مائة مرة » (٢) وكأنه عليه السلام يريد أن يؤكد عبوديته لله القاهر فوق عبادة ليحظى بمحبته وفضله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ ﴾ (٣) ولقد أعطته القدرة الإلهيه منزلة عظيمة فجعلته بابا يوصل العباد إلى مغفرة الله تعالى والله يقول :

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ (٤)

ولقد روى أن رجلا جاء إلى قبر الرسول ﷺ فقال : السلام عليك يا رسول الله لقد قال الله تعالى :

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ (٤)

وقد جئتك مستغفراً لذنبى مستشفعا بك إلى ربى ثم أنشأ يقول :

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه ... فطاب من طيبهن القاع والأكم

نفسى الفداء لقبر أنت ساكنه ... فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم أنصرف ذلك الرجل . وكان جالسا بالقرب منه رجل صالح يسمع كلامه فأخذته سنة من النوم فرآى النبى ﷺ يقول له : (إلحق بالأعرابى فبشره بأن الله قد غفر له) . والاستغفار والتوبة ينفعان صاحبهما ويفرجان عنه بإذن الله . وليس أدل على ذلك مما وقع لصاحب الحوت يونس عليه السلام

---

(١) سورة الفتح آية ٢

(٢) رواه مسلم

(٣) سورة البقرة آية ٢٢٢

(٤) سورة النساء آية ٦٤

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (١)

والتوبة أول منازل السالكين طريق الحق . ويرى السادة الصوفية أن التوبة تأتى بعد أداء الفرائض . . والإلزام بالأوامر والانتهاء عن المعاصى . وتكون بتقدير الله تعالى للعبد الذى أخلص نيته ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ ﴾

ولقد سئلت رابعة العدوية : هل إذا تبت تاب الله على ؟ فقالت للسائل : (لا . بل إذا تاب الله عليك تبت) ولعلها كانت عند الأجابة مستحضرة لقول الله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ ﴾ .

بعد هذه المقدمة الموجزة ندرك عظمة الأمر الصادر إلى المؤمنين بوجوب التوبة الخالصة النصوح . لأن فيها أمل القبول . ويعقبها رجاء تكفير الذنوب والتفضل من جانب الله بإدخالهم الجنة التى تجرى من تحتها الأنهار حيث يسيرون تتلألأ أنوارهم المنبعثة من إيمانهم فتجعل الوجوه مشرقة والأفواه باسمة . أنوار تغشاهم عن أيمانهم وعن شمائلهم ومن أمامهم ومن خلفهم . فهم بالتوبة يخلعون ثياب المعاصى . ويحسون حلاوة الطاعة التى لو أدركها الملوك لقاتلوا أصحابها بالسيوف للحصول عليهـــا .

والمؤمن بمداومته التوبة والاستغفار يوجِّه إلى الشيطان سهاما مسمومة يُصِمُّ بها قلبه . وكلما زلّت قدمه فارتكب خطيئة استيقظ ضميره وأسرع إلى الله وأبصر بعين اليقين ما فعل

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾ (٢) .

وهو دائم الأمل فى رحمة الله بجانب مداومته للعمل الصالح . لا يعرف اليأس أو القنوط إلى نفسه سبيلا لأنه يأخذ تلك النفس بالترغيب والترهيب حتى يروضها على

---

(١) سورة الأنبياء آية ٨٦ ، ٨٧

(٢) سورة الأعراف آية ٢٠١

طريق الخير . وينفعها بالبلسم الشافى . وهو لا شك بعد ذلك كله سينعم بمنحة الرحمة

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (١) .

فلنتب إلى الله ونستغفره كما أمرنا فذلك أرجى لنوال ما عنده يقوله الله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (٢)

وليكن هتافنا دائما

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (٣)

ولنرج الفلاح لندخل من باب التوبة

﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٤) .

★ ★ ★

(١) سورة النساء آية ٢٧
(٢) سورة الأنفال آية ٣٣
(٣) سورة الأعراف آية ٢٣
(٤) سورة النور آية ٣١

الوفاء بالعقود

قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ (١)

* سبب نزول الآية :

قيل إنها نزلت فى أهل الكتاب . ولكن الواضح أنها نزلت فى عموم المؤمنين من أهل الكتاب وغيرهم لأن الجميع ملزمون بمقتضى ما فى كتب الله الصحيحة من خير .

الأحكام التى تضمنتها الآية :

١ ـ الوفاء بالعقود

وهى تشمل عقود المعاملات المادية فيما بين الناس بعضهم مع بعض كالبيع والشراء وغيرها . وكذلك تشمل عقود المعاملات المعنوية كالعلاقة بين الله وبين عباده من حيث الحلال والحرام والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . والعبادات مطلقا . فالوفاء بها كلها واجب على العباد ومن لم يوف بها فقد خان عهده وضيع أمانته والعقد والعهد والميثاق كلها قريبة المعنى . يستحق الموفون بها الفردوس

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ

---

(١) سورة المائدة آية ١

وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (١)

أما الذين ينقضون العهد ولا يوفون بالميثاق فأولئك هم المستحقون لسخط الله والطرد من رحمته وتنزل لعناته عليهم . ويصابون بقسوة القلب يقول الله تعالى :

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ﴾ (٢)

كذلك يقول

﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ (٣) .

هذا وقد وردت مشتقات لفظ الوفاء فى القرآن الكريم أحدى وأربعين مرة وورد الأمر الصريح بالوفاء أحدى عشرة مرة .

٢ ـ تحليل ما كان محرما من البهائم .

فلقد كان العرب يحرمون على أنفسهم أنواعا معينة من الانعام وشاركهم فى ذلك أهل الكتاب لاعتقادات زائفة . أو تقاليد بالية أمثال : **البحيرة** : وهى الناقة التى تشق أذنها بعد أن تلد خمسة أبطن بحيث يكون الخامس ذكراً . فكانوا يحرّمونها فلا يركبونها ولا يأكلون لحمها . بل كانوا يتركونها ترد المرعى والماء دون تعرض لها بسوء .

وكذلك **السائبة** : وهى الناقة التى كانت تترك وفاء لنذر إذا نجى الله صاحبها من سوء وأيضا **الوصيلة** : وهى الشاة التى تولد فى بطن واحد مع ذكر . فكانوا يسيبونها ويقولون إنها وصلت أخاها فلا تؤذى .

---

(١) سورة المؤمنون آية ٣ ـ ١١

(٢) سورة المائدة آية ١٣

(٣) سورة الرعـد آية ٢٥

وكذلك **الحامى** وهو الجمل الذى ينتج من صلبه عشرة أبطن فإنهم كانوا يقولون عنه . حمى نفسه أو حمى ظهره . فلا يحملون عليه متاعا . ولا يركبونه . ولا يصدونه عن ماء ولا مرعى .

ولذلك قال الله تعالى :

﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾

بمعنى أن الأنعام حلال لكم تطعمون منها وتشربون ألبانها . وتنتفعون بأصوافها وأوبارها وأشعارها . وتحملون عليها أمتعتكم . غير أن هناك ما حرم عليكم لخبثه . وما فيه من ضرر . ولقد ورد هذا فى قوله تعالى :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ (١)

(ذكر أسم غير الله عليه عند ذبحه) ـ وَالْمُنْخَنِقَةُ ـ وَالْمَوْقُوذَةُ ـ وَالْمُتَرَدِّيَةُ ـ والنَّطِيحَةُ ـ (التى نطحتها بهيمة أخرى فماتت فى الحال) وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ (أى ما افترسها حيوان آخر فأنقذت منه ولكنها فارقت الحياة قبل التمكن من ذبحها) وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ (ما ذبح بين يدى الأصنام تبركا)

ثم أكد ذلك فى آية أخرى

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا ﴾

أى سائلا

لأنهم كانوا يفصدون عرقا من عنق الحيوان فيأخذون الدم على قدر حاجتهم ثم يحسمون الجرح بالنار ليتوقف نزيف الدم منه ثم يقومون بطبخ هذا الدم وأكله . وكثيراً ما كانوا يفعلون ذلك لا سيما أثناء السفر) .

﴿ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾

ولعل العلة فى تحريم الدم المسفوح هى أن الدم يسرع إليه الفساد وتتحلل مركباته بسرعةٍ فيصيب الإنسان بأمراض لا يعرف مداها . وعلى رأسها عسر الهضم . وأما لحم

---

(١) سورة المائدة آية ٣

الخنـزير فلخُبثه ولأن الخنزير يأكل القاذورات وهو مع ذلك بليد الطبع فخيف على الإنسان أن يصاب بهذا التبلد فضلا عما ثبت علميا من أن لحمه يحتوى على جراثيم تعرف بالديدان الشريطية تتكاثر فى الأمعاء وتُحدث أضرارا جسيمة تصل إلى الكبد وغيره من أعضاء الجسم فتتلفها .

وليس هذا وحـده هو الـذى حَرُم على الإنسان تناوله . بل هناك ما أشار إليه الحـديث الشريف الـذى قال فيه الرسـول ﷺ : « أكل كل ذى ناب من السباع حرام »[1] وما أشار إليه الأثر (نهى رسول الله ﷺ عن كل ذى ناب من السباع وكل ذى مخلب من الطير)[2] .

ونحن نعلم أن الرسول ﷺ لا ينطق إلا عن وحي

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾[3] .

٣ ـ حرم الله الصيد على المُحْرم وعلى وجه الخصوص صيد البر : أما صيد البحر فهو حلالاً

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ ﴾[4]

فإذا تحلل المؤمن وانتهى من أعمال الحج أو العمرة أو هما معاً لمن كان قارنا بينهما أصبح صيد البر حلالا له .

ولقـد حرم الله الصيد الـبرى على المُحْرِم لأنه تعالى يريد اختبار تحمل المؤمنين وصبرهم على الصيد رغم أنه فى متناول أيديهم

﴿ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ ﴾

---

(١) رواه مالك فى الموطأ
(٢) رواه مسـلم
(٣) سورة الحشـر آية ٧
(٤) سورة المائدة آية ٩٦

فالحيوان أو الطائر الذى يأوى إلى الحزم آمن لا يُروَّع ولا يُصَاد . ولذلك يقول الله تعالى فى الآية التى معنا :

﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ ﴾

ثم تختم الآية بتوكيد ضرورة تنفيذ الأحكام السابقة لأن الله سبحانه وتعالى عليم بكل شىء . حكيم لاراد لحكمه وهو المشرع الخبير بما يصلح شأن عباده .

★ ★ ★

تعظيم الحرمات

قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ ۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (١) .

النداء فى هذه الآية موجه إلى المؤمنين ليقفوا عند حرمات الله ويعطوها القدر الواجب من الاحترام والقدسية وفى الآية عدة أحكام تستلفت نظر القارىء على التوالى .

١ عدم التعرض للْبُدْنِ - الإبل -

التى اعتاد العرب إهداءها إلى الحرم لتنحر فيه تقربا إلى ما يعبدون فى الجاهلية فلما جاء الإسلام أقر هذا المبدأ إلا أنه بين حقيقة المُهدى إليه وأستمر حُجّاج بيت الله الحرام يسوقون هذه البدن أمامهم إلى الحرم مُعْلِمين إياها بشعار معروف هو شق السَّنام ليسيل منه بعض الدم وليعرفه كل الناس فلا يتعرضون له بأذى ولا ينالونه بسوء .

سبب نزول هذه الفقرة من الآية . أو لعله بعض سبب الآية كلها .

أن المشركين اعتادوا إرسال هذه الإبل إلى الحرم كهدايا فلما اضْطُرُّوا المسلمين إلى الهجرة وأنزلوا بهم الأذى أراد بعض المسلمين أن يغيروا على هذه الإبل المُشْعَرة كى يستولوا عليها معتقدين أن الله تعالى لا يقبل من المشركين شيئا . وفى الوقت ذاته انتقاما من المشركين . فأنزل الله تعالى

---

(١) سورة المائدة آية ٥

﴿ لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ ﴾ وأكد فى آية أخرى المقصود من هذه الهدايا فهى لا ينالُ الله منها شيئا ولا يتلذذ بريح شِوائها كما كان المشركين يعتقدون . بل وصل بهم الأمر إلى أنهم كانوا يلطخون الكعبة بالدماء التى تسيل من هداياهم فقال تعالى :

﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ (١) .

ويرى بعض السادة العلماء أن المقصود بشعائر الله هى الأوامر والنواهى فكأن المسلمين مطالبون بالمحافظة عليها حتى لا يُحِلوا حراما ولا يُحرِّموا حلالا . وبِمِثْلِ هذا التحريم حَرُم الأعتداء على الهَدْى . وهو ما يهدى إلى الحرم من الأغنام وغيرها دون إسالة دماء منه . وأنها كانوا يقلدون شيئاً منها النعال يعلقونه فى رقابها ليُعْلَمَ أنها مهداة إلى الحرم .

٢ ـ تعظيم الأشهر الحرم :

وهى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب . بمعنى إعطائها القدسية التى تليق بها فلا يرفعون فيها سلاحاً ولا يعتدون على أحد . وكان العرب يعظمونها فى جاهليتهم . ويجعلونها بمثابة الهدنة فيما بينهم . فإن جاءت أثناء الحرب أوقفوا القتال . ولكن بمضى الزمن غيروا فيها وبدلوا . فإذا جاء شهر منها وهم فى القتال قالوا نَنْقُلُ حرمتَه إلى شهر غيره من الأشهر الحلال إلى أن تنتهى الحرب وهذا ما يسمى بالنسىء ـ أى نقل حرمة شهر إلى آخر

﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ ﴾ (٢) .

من هنا وجدنا الإسلام يحض أبناءه على المحافظة على حرمة هذه الأشهر طالما وَفَّى المشركون بعهودهم . فإذا أعتدَوا على المسلمين أو حرضوا عليهم فالمسلمون فى حل من قتالهم

---

(١) سورة الحج اية ٣٧

(٢) سورة التوبة آية ٣٧

قال تعالى :

﴿ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ (١) .

وقال الله تعالى مجيبا على تساؤل المشركين الذين وجهوه إلى رسول الله ﷺ :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ (٢)

من هذه الأجابة ندرك ضرورة تعظيم الأشهر الحرم مالم يَعْتَدِ فيها أعداء الله على العزل الآمنين . وما لم تنتهكْ الحرمات وتداسُ المقدسات فإن وقع ذلك فلنستعنْ بالله ولنقاتل والله مع المجاهدين . .

النهى عن ترويع الآمنين :

وعلى وجه الخصوص المتوجهون إلى البيت الحرام فى فترة الحج أو العمرة بل فى كل أيام السنة . وإن كان أعطى الأشهَر الحرم هذه العناية بالذات لأن الحج يقع فى أوسطها . والناس يستعدون فيها لأداء هذه الشعيرة ذهابا وإيابا .

ويروى فى سبب نزول الآية :

أن المشركين عام الفتح أرادوا الحج فعزم المسلمون الأغارة عليهم قبل دخول منطقة الحرم فمنعهم الرسول ﷺ من ذلك ونزل قوله

تعالى ﴿ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ ﴾ .

ويبدوا أن المقصود من هذه الآية هو إيلاف من لم يُسْلم وبيانُ تسامح المسلمين مع غيرهم حتى بعد الفتح المبين . وفى هذا تهذيب لنفس من أراد الله له الخير . إلا أن

---

(١) سورة البقرة آية ١٩٤

(٢) سورة البقرة آية ٢١٧

المشركين أستمروا فى غلوائهم وتعنتهم الأمر الذى جر عليهم البلاء ففى السنة التاسعة نزل تحريم البيت الحرام على المشركين ما داموا على كفرهم ونجاسة أعتقادهم

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ﴾ (١)

وبعث رسول الله ﷺ على أبن أبى طالب إلى مكة ليدرك الناس فى موسم الحج وكان أبو بكر أميرَ الحج وقتئذ . فنادى على (أيها الناس لا يدخلن مكة بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان) فلما تمادى المشركين أكثر وأكثر وثاروا على هذا الأمر أغرى الله المسلمين بقتالهم عند أنتهاء الأشهر الحرم

﴿ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ (٢) .

٤ ـ التعاون على البر والتقوى :

وجه الله أمراً عاما مؤداه التعاونُ على البر والتقوى والتمسكُ بكل ما أمر الله تعالى به من الخلال الطيبة والصفات الحميدة والتحلي بالفضائل . والتخلى عن المذمومات فى الصفات والأفعال . فهذا بعينه البر الذى أُمرِ المسلمون بأن يتعاونوا عليه . لأن التعاون الخيرِ النافع يسمو بالمجتمع ويرشد أبناءه ويعلو بأقدارهم .

أما التقاطع والاجتراء على الآثام ومعاونة الأعداء بالكلمة أو العمل فهو إزْراء بالأمم واحتقارٌ لكرامتها من جانب المخربين المنتسبين إليها حيث ينزلهم من علٍ ويدفعهم إلى الفجور والرذيلة والعدوان .

ولهذا وجدنا الله تعالى يدعو فى آخر الآية إلى التقوى والخشية ويهدد كل معتمد على حدوده وحرماته ويؤكد أنه سبحانه شديد العقاب لمن عصاه .

---

(١) سورة التوبة آية ٢٨

(٢) سورة التوبة آية ٥

ترك مالا يفيد

قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴾ [1] .

سبب نزول الآية :

ورد فى سبب نزول الآية أن الله سبحانه حين فرض الحج على المسلمين .

سأل جماعة منهم رسول الله ﷺ قائلين . يا رسول الله . أفى كل عام ؟ فسكت . فقالوا أفى كل عام ؟ قال : « لا : ولو قلت نعم لوجبت . » فنزلت الآية الكريمة التى معنا [2] . يؤكد هذا ما رواه أبو هريرة قال : قال يا رسول الله ﷺ : « يأيها الناس كتب عليكم الحج » فقام رجل فقال : فى كل عام يارسول فأعرض عنه . ثم عاد فقال : فى كل عام يارسول الله ؟ فقال عليه السلام : « من القائل ؟ » قالوا : فلان قال : « والذى نفسى بيده لو قلت نعم لوجبت ولو وجبت ما أطقتموها ولو لم تطيقوها لكفرتم » فأنزل الله تعالى

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾

والأشياء المنهى عن السؤال بخصوصها قد يكون المقصود بها ما وقع من المسلمين من أعمال كانت مباحة فى صدر الإسلام كالربا والخمر والزواج من زوجات الآباء بعد وفاتهم . فإن الإسلام فى الأول كان ينهى عنه نهيا قاطعا حتى لايتعرض المسلمون لمشقات تفرض عليهم بسبب أسئلتهم التى أحدثوها وألحوا فيها .

---

(١) سورة المائدة آية ١٠١ ، ١٠٢

(٢) اسباب النزول للنيسابورى

لأن الأمر قد يكون خارجا عن طاقتهم فلا يستطيعون القيام به فيلحقهم غضب الله لتقصيرهم فى تنفيذ أوامره . وهذا ما يؤكده الرسول ﷺ بقوله : (أعظم المسلمين جُرماً من سأل عن شى ء لم يحرم فحرم من أجله مسألته) [1] .

وإن كان الثانى : فإن الله سبحانه قد عفى عن المسلمين وحط عنهم وزر ما فعلوه فى صدر الإسلام لأنه كان مباحا ولم ينزل حكم بخصوصه بعد . والأمر دائما كما يقول الفقهاء ـ على الإباحة ما لم يحرمه نص من قبل الشرع ـ والله يوضح للمسلمين ذلك بقوله : ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾

هل السؤال محرم على أطلاقه ؟

إن الواقع يوضح أن المنهى عنه من السؤال هو مالم يقع فعلا . أو ما وقع مجملاً وفى تفصيله مشقة على المسلمين وما عدا ذلك فالسؤال عنه مباح خاصة إذا قصد منه تفصيل مجمل أو شرح غامض . فهذا يدعونا إليه رب العالمين لنزداد علما ﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [2] ويشرح ذلك أيضا فى قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ ﴾

لأن الأجابة عنها فى هذا الإطار ستبين الحلال وحدوده والحرام وأفاقه . فيكون السائل والمسلمون جميعا على بينة من أمر دينهم .

ثم نرى القرآن يرشدنا إلى حكمة المنع من السؤال عما لم يقع من الأحكام حتى لا نكون سائرين على طريق من سبقونا من أهل الأديان السماوية وغيرهم حين سألوا أنبياءهم أشياء كانوا فى غنى عنها فلما كلفهم الله بها عجزوا عن تطبيقها أو تصديقها واتِّباعها فكفروا . ونأخذ نموذجا لذلك قوم صالح عليه السلام . حين طلبوا منه أن يدعوا ربه ليخرج لهم ناقة من الصخر . فلما خرجت الناقة ورأوا أن كثير من الناس يوشك أن يؤمن برسالة صالح كذبوا المعجزة وعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم فأستحقوا العقاب

---

(١) راجع ابن كثير مجلد ٢ ص ٩٦

(٢) سورة النحل آية ٤٣

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾ ﴾ (١) .

وقوم فرعون حين أبتلاهم الله بالآيات

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ﴾ (٢)

ولما آذتهم تلك الآفات طلبوا من موسى عليه السلام أن يدعو ربه ليرفع عنهم البلاء ووعدوه بالإيمان برسالته إذا كشف عنهم هذا الرجس

﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ (٣)

وعندما أستجاب الله لدعاء موسى عليه السلام وكشف ما بهم نكثوا عهدهم

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ (٤)

وبنوا إسرائيل حين قالوا ﴿ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۚ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ ﴾ (٥)

---

(١) سورة الشمس وضحاها آية ١١ ـ ١٥
(٢) سورة الأعراف آية ١٣٣
(٣) سورة الأعراف آية ١٣٤
(٤) سورة الأعراف آية ١٣٣ ـ ١٣٦
(٥) سورة البقرة آية ٢٤٦

فقد سألوا فأستجيب لهم ولكنهم ـ لسوء طويتهم ـ لم يوفوا بوعدهم .

من هنا نأخذ أن الآية نهت المؤمنين عن السؤال فيما لا يفيدهم أو التحدث فيما لا يعنيهم حتى يكونوا بمنآى من غضب الله تعالى وحتى لا يكونوا عرضة للشر . وفى الحديث الشريف يقول الرسول ﷺ : « إن الله يرضى لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا . يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا . وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا . وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم ويكره لكم القيل والقال . وكثرة السؤال وأضاعة المال »[1] والمثل يقول : (من تحدث فيما لا يعنيه لقى مالا يرضيه) .

فلنلتزم بأمر الله ولا نلقى بأنفسنا فى ميادين لا نقدر عليها فتسبب لنا حرجا ومشقة . والله لطيف بعباده فلقد فرض الفرائض وحد الحدود . وسكت عن أشياء رحمة بنا غير ناس لها .

فالأولى لنا أن نبتعد عن السؤال عنها والله الموفق .

★ ★ ★

(١) رواه مسلم

الصلاة على النبى ﷺ

قال الله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ (١) .

إن الصلاة من الله على عباده هى رحمته بهم وبره وبركته . وصلاة الملائكة على المؤمنين دعاؤهم لهم بالرحمة والتوفيق . وصلاة العباد على النبى ﷺ هى دعاؤهم له بأن يبوئه الله مقاما محمودا ويعطيه الشفاعة .

والـذى ينظر إلى الآية التى معناها يحس معانى التكريم والإجلال لرسول الله ﷺ . حيث بدأت بصلاة الله تعالى عليه . ثم ثنى فيها بصلاة الملائكة عليه أيضا تعـظيما لشأنه . ثم تبع هذا الإعلام أمر من الله تعالى أصدره إلى المؤمنين بالصلاة والتسليم عليه أقتداء بالرب سبحانه وبالملائكة المكرمين .

ولقد جرت العادة أن الإنسان إذا كان لامرىء عليه نعمة فإنه يشكر له صنيعه ويقدر له جهده ويحفظ له الجميل . وأى نعمة وأى جميل يصل إلى جميل محمد ﷺ . الذى تحمل الكثير من المشقات فى سبيل الرسالة حتى أوصلها إلى الناس نقية عزيزة . فهـداهم بها بعـد ضلال . وأرشـدهم بعـد تخبط وغى . وحـررهم بعـد أستذلال وأستبعاد . وقواهم بعد ضعف فأصبحوا سادة الدنيا ورعاة الأباطرة . إنه بلا شك يستحق من أمته التكريم والتجله . وعلى قدر تعظيمه ﷺ ينال المسلم الفضل وعلى قدر محبته يسعد المؤمن بانتسابه إليه . وتكمن محبته فى طاعة الله تعالى . وتنفيذ أوامره والانتهاء عما نهى عنه من المآثم التى لا تليق بمسلم . ولقد سأل رجل رسول الله ﷺ السؤال التالى : يا رسول الله متى أكون مؤمنا صادقا ؟ قال : « إذا أحببت الله » . فقيل ومتى أحب الله قال : « إذا أحببت رسول الله » . فقيل ومتى أحب رسول الله ؟

---

١) سورة الأحزاب آية ٥٦

قال : « إذا أتبعت طريقه وأستعملت سنته وأحببت بحبه **وابغضت** ببغضه ووالیت بولايته وعاديت بعداوته . ويتفاوت الناس فى الإيمان على قدر **تفاوتهم** فى بغضى . (ألا لَاإيمان لمن لا محبة له) [1] يقول الراوى وكرر العبارة الأخيرة ثلاثا ثم إن النبى ﷺ يحْظى برضوان الله وتتنزل عليه رحماته .

فلقد ورد فى الأثر . أصبح رسول الله ﷺ طيب النفس يَرى فى وجهه البشر فقالوا : يا رسول الله أصبحت طيب النفس يرى فى وجهك البشر قال : « أجل أتانى آت من ربى فقال : من صلى عليك من أمتك مخلصا من قلبه صلى الله عليه بها عشر صلوات . وكتب له بها عشر حسنات . ومحا عنه عشر سيئات ورفع له عشر درجات » [2] وكفى بالمرء بخلا أن يسمع أسم الرسول ﷺ ولا يصلى عليه . وسيكون قرب الناس أو بعدهم من رسول الله ﷺ يوم القيامة على قدر صلاتهم عليه . يروى أبن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « أولى الناس بى يوم القيامة أكثرهم على صلاة » .

ويكفى تعظيما لرسول الله ﷺ أن الله تعالى لم يأمر أمة بالصلاة على نبيها غير أمة محمد ﷺ . بل أكد للأمة ـ كما ذكرنا ـ أنه تعالى بنفسه يصلى على ذلك الرسول الكريم . وفى هذا استمرار لتعظيم أمير الأنبياء وقائد المجاهدين .

من هنا وجدنا المؤمنين يضرعون إلى الله الرحيم أن يرفع قدر نبيهم فوق كل قدر . وأن يشرفه ويعظمه فوق كل تشريف وتعظيم .

ثم إنهم بصلاتهم عليه يؤكدون انتسابهم إلى الدين الذى بعث به هذا الرسول العظيم القدر إلى أمة ذات قدر .

وكفاه تكريما أن يقرن بأسم الله فى الأذان ، والإقامة والتشهد . وأن يشرح الله له صدره وأن يعلى له ذكره وأن يضع عنه وزره .

---

(١) رواه ابن عساكر

(٢) رواه أحمد والنسائى

ولذا وجدنا المحبين له ﷺ يتفننون فى وضع صيغ للصلوات تتنوع حسبما جادت به قرائحهم كمحبين له ومتلذذين بذكره وساعين لوصل أرواحهم بروحه ﷺ قدوة وانتماء نسبا والتزاماً .

وأخيراً ندرك أن الصلاة على الرسول الكريم لا حدود لفضائلها لأنها فى الأعم الأغلب تنبع من قلوب أشربت محبته . ومن نفوس هامت فى أجواء تقديسه . ومن أرواح حلقت بجوار روحه فى سماء القداسة والأحترام فرواها الإيمان ودفعها الحنين . وصلاة الله وسلامه ورحمته وبركاته على سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله عدد خلق الله ورضاء نفس الله وزنة . عرش الله ومداد كلمات الله آمين . .

★ ★ ★

الإنفاق فى سبيل الله

قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (١) .

يرى بعض العلماء

أن الإنفاق فى هذه الآية مقصود به الزكاة الواجبة . **ويرى البعض الآخر**

أن المقصود به مجرد الإنفاق فى سبيل الله فيشمل الزكاة الواجبة وغيرها . كالصدقة وإعداد الجيوش وبناء المساجد والمدارس والمصحات وغيرها .

والرأى الثانى

له وجاهته لشموله وعلى كل فالأمر يكون للوجوب إذا كان المقصود به الزكاة المفروضة . ويكون للندب إذا كان عاما والإنفاق فى سبيل الله نوع من التحدث بنعمة الله تعالى على العبد . وإعطاء من مال الله الذى أستخلف عليه عباده الأغنياء

﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ (٢) .

والأنفاق يرفع من قدر صاحبه فى الدنيا والآخرة . ويبارك الله بسببه فيما بقى من المال يقول الله :

﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾ (٣)

ويقول ﷺ : « ما نقص مال عبد من صدقة » (٤) ولقد حذر الله سبحانه وتعالى من البخل لأنه يقطع الصلة الإنسانية بين الناس ويعوق مسيرة الحياة المتعاونه التى قصدها

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥٤
(٢) سورة الحديد آية ٧
(٣) سورة الروم آية ٣٩
(٤) رواه الترمذى

الإسلام . ويورث الأحقاد والضغائن بين الفقير المحتاج والغنى الممسك ولهذا وجدنا الله تعالى يحث على الصداقة قبل انقضاء الأجل . وقبل أن يرى المرء عاقبتة بخله فيندم ويتمنى أن يعيده الله إلى الدنيا ليبذل كل درهم عنده فى سبيل الله ولكن هيهات .

هيهات

﴿ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ﴾ (١)

والأنفاق نوع جليل من أنواع الجهاد يقول ﷺ : « جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسهم والسنتكم » (٢) ولقد عرفنا كيف استجاب المؤمنون الأولون لهذا النداء وسارعوا إلى تنفيذه . وعلى رأس هؤلاء المنفقين أبو بكر وعمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وآخرون .

ثم تحثنا الآية أكثر وأكثر على الأنفاق قبل مجئ يوم القيامة الذى لا مودة فيه ولا شفاعة إلا لمن إذن الله . ففى هذا اليوم الرهيب لا ينفع الأنسان إلا ما قدم من صالح العمل ولا ينجيه من النار إلا ما بذل من صدقات . ولأمر جليل كان النبى ﷺ يقول : « أتقوا النار ولو بشق تمرة » (٣) وحقا فإنه يوم رهيب يفر فيه المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه . ألا فلينفق كل ذى سعته من سعته ولا يظلم نفسه بالكنود والبخل حتى لا يندم ولا يندمج فى عداد الظالمين الكافرين . ثم يتحسر

﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَه ﴾ (٤)

ويؤمر به إلى جهنم ويقال فى حيثيات الحكم

﴿ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ (٥) .

---

(١) سورة المنافقون آية ١٠
(٢) رواه أبو داود
(٣) متفق عليه
(٤) سورة الحاقة آية ٢٨
(٥) سورة الحاقة آية ٣٣، ٣٤

وقال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ (١)

سبب نزول الآية :

ورد أن النبى ﷺ أمر بالصدقة فجاء رجل بتمر ردى ء لم يتم إدراكه (الشيص أو الحشف) فقال ﷺ : « من جاء بهذا ؟ » وكان لا يجىء أحد بشىء إلا نسب إلى الذى جاء به فنزلت الآية

﴿ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴾

والخطاب فى الآية موجه إلى أمة محمد ﷺ . والآية تحس على الأنفاق من طيب الكسب . فإذا كان زكاة مفروضه أشترط فيها بلوغ النِّصَاب المبين فى كتب الفقه . وإن كان صدقة فلا يشترط فيها نِصَابٌ . وإنما أكدت إعطاء الفقير من أنواع المال الجيدة أو الزروع الناضجة

﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ (٢)

ونرى كثيراً من الناس يعمدون إلى إعطاء الفقير أنواعا رديئة من الزرع والثمار وهذا يخالف ما أمر الله به .

ولقد مدح الله المطعمين الطعام على حبه وحاجتهم إليه . وذلك لأنهم خافوا يوما شديد العبوس شديد الهول فنجاهم الله من هول ذلك اليوم وشره . والقرآن يبين ذلك أوكد بيان فيقول :

---

(١) سورة البقرة آية ٢٦٧

(٢) سورة آل عمران آية ٩٢

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ (١) .

وفى الآية فقرة تدل صراحة على الزكاة المفروضة

(ومما أخرجنا لكم من الأرض)

فإذا بلغ الخارج نصابا أُخرجت زكاته . وإن لم يبلغ فلصاحبه الخيار فى أن يتصدق أو لا يتصدق . وإن كانت الصدقة أفضل تطهيراً واستجلاباً للبركة

﴿ اتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ﴾ (٢)

والرسول المعلم ﷺ يؤكد لنا مع الآية ضرورة الإنفاق من الأصناف الجيده فيقول : « إن الله طيبٌ لا يقبل الا الطيب » والخبيث لا يستطيبه الأنسان لنفسه فكيف يرضاه لأخيه الفقير ؟

وجرت العادة أن الإنسان لا يقبل أقل مما يستحق إلا إذا تهاون فى حقه وتنازل على جزء منه تخفيفا عمن عنده ذلك الحق . لأنه يرى عنده غيره

﴿ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ ﴾ (٤) أما فى جانب الله فلا بد أن يكون المنفق واعيا فلا يخرج إلا الطيب ليرى الجزاء المماثل .

وأخيراً نرى الإنفاق يعود على صاحبه وحده ولا يعود على الله منه شىء لأنه سبحانه غنى حميد واهب للنعم . والكل مفتقر إليه محتاج إلى عطائه

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَآءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِىُّ الْحَمِيدُ ﴾ (٥)

(١) سورة الانسان آية ٨ ـ ١٢
(٢) سورة الأنعام آية ١٤١
(٣) رواه مسلم وأحمد والترمذى
(٤) سورة البقرة آية ٢٦٧
(٥) سورة فاطر آية ١٥

ولو أن الناس جميعا سألوا ربهم مسائل فأعطاهم . ما نقص هذا العطاء من خزائنه شيئا وفى الحديث القدسى « يا عبادى لـو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم أجتمعوا فى صعيد واحد ثم سألونى فأعطيت كل واحد منهم مسألته ما نقص ذلك مما عندى شيئا إلا كما ينقص المخيط لو غمس فى البحر » [1] فالله الحمد والمنة .

★ ★ ★

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه

النهى عن المن والأذى فى الصدقة

قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (١) .

إن المن والرياء محبطان للعمل . وكل عمل لا يبتغى به وجه الله تعالى هو عمل باطل لا يرجى لصاحبه ثواب . ولا يطيب له فى أجر مهما كثر ذلك العمل . ولهذا وجدنا الإسلام يحذر أبناءه من جعل العمل لغير الله . لأن العاملين سيواجهون يوم القيامة بمن عملوا من أجلهم . فإذا أنفق العبد نفقة ليرى إنفاقه أو ليقال إنه سخىء كريم ردت عليه تلك النفقة وعذب بسببها يوم الدين .

وكذلك سائر العبادات المالية والبدنية والرسول ﷺ يوضح لنا ذلك بقوله : « إن أول الناس يقضى يوم القيامة رجل أستشهد فأتى به فعرفه الله نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت قال : كذبت . ولكنك قاتلت لأن يقال جرىء فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجه حتى ألقى فى النار . ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن . فأتى به فعرفه الله نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها ؟ قال تعلمت العلم فعلمته وقرآت القرآن . قال : كذبت ولكنك تعلمت ليقال عالم وقرأت ليقال قارىء فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار .

ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال فأتى به فعرفه الله نعمه فعرفها

---

(١) سورة البقرة آية ٢٦٤

قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها ذلك . قال : كذبت ولكنك فعلت ليقال جواد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار »[1] فهذا الحديث يؤكد ما هدفت إليه الآية من ضرورة إخلاص العمل لله تعالى : والمن بالصدقة أو أذى الفقير باللسان أو اليد عمل لا إخلاص فيه لأن صاحبة يحاول ستر نفاقه ورياءه بأسلوب أو بآخر ولكنه لا يلبث أن ينكشف أمره ويقول الشاعر :

أفسدت بالمن ما قدمت من نعمٍ ليس الكريم إذا أسدَى بمنَّانِ

والقرآن الكريم يشبه ذلك الذى يحاول أن يستر نفسه لتظهر على غير حقيقتها يشبهه بالصخرة الصماء يعلوها جزء يسير من التراب وتنبت عليه بعض الأعشاب الواهنة يحسبها من يراها تربة خصبة عميقة . فأذا ما هطل السيل عليها انزاح ذلك الجزء اليسير من التراب . وظهرت الصخرة جرداء ملساء لا تنبت عشبا ولا تمسك ماء ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ﴾[2].

والرسول ﷺ يقول : «من راآى راآى الله به»[3] ويقول : « من تصدق يرائى فقد أشرك » .

والمعطى إذا مَنَّ بعطائه توقف الملك عن كتابة ثواب هذا العطاء . وبطل عمله أساساً فأصبح كالكافر بالله واليوم الآخر

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾[4].

---

(١) رواه مسلم

(٢) سورة البقرة آية ٢٦٤

(٣) متفق عليه

(٤) سورة الفرقان آية ٢٣

ولقد بلغ التشبيه فى الآية حد الروعة . إذ جعل الذى يمن بالصدقة ويؤذى الفقير كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر . ثم بين أن الجميع لن ينالوا شيئا من رضوان الله تعالى لأنهم قصدوا من عملهم جزاءً دنيويا زائلا وأجراً تافها . فجوزوا حسب مقاصدهم ونية المرء مقياس عمله .

★ ★ ★

الالتزام بقول الحق

قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (١).

فى الآية أمر صادر إلى المؤمنين بأن يلتزموا بقول الحق وأن ينهجوا منهج الصدق فى أقوالهم وهذا يستلزم منهم العدل فى الشهادة إذا دعوا إليها . والبعد عن الأتهام الباطل إحقاقا للحق وإظهار للعدل . ولو طلب من أحدهم أن يقول الحق على نفسه أو على والديه وهما أقرب الناس إليه وآثرهم عنده كان عليه أن يتحرى الصدق لآ يبالى ولا ينظر إلى عظم قدر والديه عنده . لأن الحق قديم وإظهاره واجب وكتمانه جريمة أخلاقية

﴿ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ﴾ (٢) .

ووقع كاتم الحق تحت طائلة العقاب المعد لشاهد الزور ومرتكب الجريمة الكبرى . وإذا كان الإنسان مطالبا بقول الحق على نفسه ووالديه كان مطالبا من باب أولى بقول الحق على أقاربه وكل أصدقائه . ويجب ألا ينظر إلى المكانة الأجتماعية للمشهود عليه . وألا يبهره غناه أو يدعوه فقره إلى غمطة حقه وظلمه إرضاء لغنى أو ذى سلطان لأن الغِنى والفقر حالتان غير دائمتين . ولذلك يتأكد على المسلم أن يتغاضى عنهما وأن يتحرى الصدق لا غير والله سبحانه أولى بالغنى والفقير .

---

(١) سورة النساء آية ١٣٥

(٢) سورة البقرة آية ٢٨٣

والقرآن المجيد يبين أن سبب كتمان الحق قد يكون نابعا عن الهوى الذى يضل صاحبه ويبعد به عن الجادة . ولهذا وجدنا العليم الخبير يأمر نبيه داود عليه السلام بأن يحكم بين الناس بالحق ولا يتبع الهوى مخافة الضلال والتعرض لعذاب الله ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ [1] .

وأتباع الهوى فى الشهادة هو أن يلوى الإنسان لسانه ليغير مساره عن طريق الحق ويميل به إلى الباطل مجاملة لصديق أو مقابل أجر يعطاه ليشهد الزور فيوبق الأبرياء ويطلق سراح المجرمين ليعيثوا فى الأرض فساداً .

وكل إنسان يشهد الزور أو يكتم الشهادة كلية آثم ويصبح حلال الدم غير مقبول الشهادة معرضا للعقوبة . ويقول ﷺ : « لَيُّ الواجِدِ يُحِل عرضه وعقوبته » وهذا كله فى الأنسان العادى . أما الحاكم فهو مطالب بالعدل فى رعيته وعدم اتباع الهوى . وأن يخشى الله فى كل ما يأتى وما يذر . يقول الشعبى : (أخذ الله عز وجل على الحكام ثلاثة أشياء . ألا يتبعوا الهوى وألا يخشوا الناس ويخشوه . وألا يشتروا بآياته ثمنا قليلا) ولتكن الشهادة دائما مقصوداً بها وجه وما عنده من خير . ثم تختم الآية ببيان أن الله سبحانه خبير بما يعمل عبادُه مطلع على نواياهم محاسب لهم على كل شئ وكفى به حسيبا .

---

(١) سورة ص آية ٢٦

وقال الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (١).

يبين سبحانه أنه أتم لعباده نعمة ويأمرهم بضرورة القيام بالعدل فى القول أبتغاء ما عنده من ثواب . وينبه ـ كما نبه فى الآية السابقة ـ على أنهم مطالبون بقول الحق على أنفسهم ووالديهم وأقاربهم . بل أكثر من ذلك لو كان المشهود له غير مسلم فلا بد من أعطائه حقه دون هضم أو تقصير ودون تمييز بسبب الدين لأن الشهادة مقصودة لذاتها دون أى أعتبار تغليبا للعدل الذى يقرب صاحبه من التقوى التى تدفعه بدورها الى الجنة والرضوان ولذا قال :

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾

وحتى مع الذين بيننا وبينهم خصومة وكراهية لابد من قول الحق إذا كان فى جانبهم تمشيا مع الجانب الإنسانى . لأننا مأمورون بالعدل

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ ﴾ (٢).

فليكن قولنا عدلا وفعلنا حسنا لننال ما عند الله من مثوبة يقدرها سبحانه بعلمه وخبرته ولهذا ختمت الآية بما ختمت به الآية السابقة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ .

---

(١) سورة المائدة آية ٨

(٢) سورة النحل آية ٩٠

الوقاية من النار

قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾ [1] .

يأمر الله تعالى المؤمنين بأن يقوا أنفسهم وأهليهم من النار .

ووقاية الإنسان نفسه تكون بالعمل الصالح المستمر والخشية من الله الذى لا تخفى عليه خافية .

﴿ فلا تخشوا الناس واخشون ﴾ [2] .

بالمواظبة على أداء الفرائض التى كلفته بها الشريعة الغراء . فلا يتهاون فى صلاة ولا زكاة ولا صوم ولا حج . ولا أمر بمعروف ولا نهى عن منكر وبالجملة يكون خيراً فى حياته باذلا المعروف ما استطاع إلى ذلك سبيلا . كافا شره على الناس . فإذا ما وطَّنَ نفسه على الطاعات انبرى ليرعى أهله فيوصيهم بالخير ويساعدهم عليه لأنه مكلف برعايتهم ماديا وروحيا . « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته . فالإمام الذى على الناس راع وهو مسئول عنهم . والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم » [3] ويدخل فى الأهل الأولاد لأنهم ثمرة الزواج ولذا حث الإسلام أبناءه على الأحسان إلى ذريتهم بحيث يعلّمونهم الحلال والحرام ليميزوا بين الطيب والخبيث ويعرفوا حدود الطاعات والمعاصى . وألزم الرجل بأختيار الزوجة الدَّينةً حتى تنتج له ذرية صالحة تكون أرضا خصبة لبذر الخير فيها فقال ﷺ : « حق الولد على الوالد أن يحسن اسمه

---

(١) سورة التحريم آية ٦

(٢) سورة المائدة آية ٩٠

(٣) رواه البخارى

ويعلمه الكتابة ويزوجه إذا بلغ » ونبه الرجل كذلك إلى ضرورة حث أسرته لتسير فى طريق الخير ولتجدَّ على درب الهدى وتسارع إلى عمل ما يقرب من الله تعالى فيقول ﷺ : «رحم الله امرءاً قام من الليل فصلى فأيقظ أهله فأن لم تقم رش وجهها بالماء . رحم الله امرأة قامت من الليل تصلى وأيقظت زوجها فإذا لم يقم رشت على وجهه بالماء » .

ولقد ورد أن عمر بن الخطاب رضى الله ـ عنه لما نزلت هذه الآية قال يا رسول الله : (نقى أنفسنا فكيف لنا بأهلينا ؟ فقال : « تنهونهم عما نهاكم الله وتأمرونهم بما أمرالله »)

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أمرنا بذلك كله فلأنه رحيم بنا لا تضره معاصينا ولا تفيده طاعتنا .

وهو بذلك يخوفنا من النار التى وصفها لنا . بأن وقودها الناس والحجارة . حيث تشتعل الأجسام وتساعد الحجارة الكبريتية التكوين . على الأشتعال . وهذا الوصف وحده كاف فى إثارة الرعب فى قلوب العصاة . ولقد وصفها الله فى آية أخرى حينما تكلم مخبرا عن تعذيبه لأحد العصاة المتمردين

﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴾ (١)

وفى آية ثالثة

﴿ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴾ (٢) .

وفى آية رابعة

﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴾ (٣)

---

(١) سورة المدثر آية ٢٦ ـ ٢٩

(٢) سورة المعارج آية ١٦ ـ ١٨

(٣) سورة المرسلات آية ٣٢ ـ ٣٣

وغير هذه الأوصاف مما يهز كيان الطغاة ويزلزل كبرياءهم وينزل الرعب فى قلوب الآثمين . والرسول ﷺ يؤكد ذلك الوصف بقوله عن جهنم « لو أن قطرة من الزقوم قطرت فى دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم . فكيف بمن يكون طعامه ؟» (١)

ثم وصف الله القائمين بتعذيب العصاه بأنهم (ملائكة غلاظ شداد) لا تعرف الرحمة إلى قلوبهم طريقا . ولا تأخذهم بأعداء الله رأفة . ولا يؤثر فيهم منظر المعذبين والنار تشتعل فى أجسامهم . وهو يصطرخون فيها قائلين :

﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ (٢) .

وذلك لأن الموكلين بالعذاب . من الغضب خلقوا . فهم يستعذبون القيام بهذا العمل كما يستطيب الظمآن شربة الماء البارد . أو كما يدرك الجائع طعم أكله دسمة على مسغبة .

وفى آية أخرى وصفهم الله تعالى بالقوة التى لا قبل لأحد من البشر بها ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ (٣) حتى قال أحد أشداء مكة ـ واسمه أبو الأشد ـ لمن حوله : اكفونى واحدا منهم ـ فإذا أمكنكم ذلك أكفكم الثمانية عشر الباقين . ثم زاد الله فى وصفهم بأنهم مطيعون لله لا يعصون له أمراً ومنفذون لمهمتهم بكل أمانة ودقة ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (٤) فاللهم نسألك النجاة من النار لنا ولأهلينا وأحبابنا آميـــن .

★ ★ ★

---

(١) رواه ابن كثير عن مجاهد
(٢) سورة فاطر آية ٣٧
(٣) سورة المدثر آية ٣٠
(٤) سورة التحريم آية ٦

أدب مخاطبة النبى ﷺ

(١) قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [1] .

سبب نزول الآية :

وُرد أن كلمة راعِنا كثرت فى مجالس المسلمين يطلبون فيها من النبى ﷺ الالتفات إليهم عند الحديث . ولكنها كانت فى أسلوب مخاطبة اليهود بعضهم بعضا . عبارة عن السباب الذى معناه اسمع لاسمعت . فاغتنمها اليهود فرصة وكانوا يخاطبون النبىَّ - ﷺ - بهذا اللفظ وهم يظهرون الرضا والتكريم . فإذا ما انصرفوا تفكهوا بذلك وقالوا كنا نسبه سراً . والآن نسبه علانية . فسمعهم سعد بن معاذ وكان عالما بأساليب الخطاب فيما بينهم . فقال لهم : (لعنة الله عليكم لئن سمعتها من أحد منكم يوجهها إلى رسول الله فلأضر بن عنق القائل) فقالوا بخبث : أو لستم تقولونها ؟ فنزلت الآية تنهى المسلمين عن مخاطبة الرسول ﷺ بهذا الذى يحمل معنى التعريض والانتقاص حتى لا يتشبهوا باليهود فى خبثهم .

وطلب الله من المؤمنين أن يستعملوا لفظا آخر أكثر تكريما وإعظاما لمقام النبى ﷺ وهو (انظرنا) بمعنى أقبل علينا وانظر إلينا لتروى ظمأ قلوبنا بالنظر إلى وجهك الأنور . وفى هذا رجاء لأنه من الأدنى إلى الأعلى . وليكن قصدهم إصلاح حالهم بالتعليم بدل الجهل . والهداية بدل الضلال . ثم ختمت الآية بأمر آخر . وهو السمع والطاعة لله تعالى تمجيداً وإجلالا . ولرسول الله ﷺ اعترافا بالقدر والمكانة . ونحن ندرك أن طاعة الرسول واجبة .

---

(١) سورة البقرة آية ١٠٤

(٢) وقال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١).

سبب نزول الآية :

الواقع أنه وردت عدة أسباب لنزولها ولا مانع من الجمع بين الكل وعلى رأس هذه الأسباب ما أورده البخارى عن الزبير قال : (قدم ركب من تميم على النبى ﷺ) فقال أبو بكر : (أمِّر القعقاعَ بن معبد .) وقال عمر : (بل أمِّر الأقرع ابن حابس .) فقال أبو بكر : (ما أردتَ إلا خلافى .) فقال عمر : (ما أردت خلافك .) فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما فنزل فى ذلك قوله :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ ﴾ (٢).

وفى الآية أمر صادر للمؤمنين بالتزام الأدب فى مجلس رسول الله ﷺ بأن لا يسرعوا فى الحكم الذى لم يبد فيه رسول الله رأيه . ولابد من أن يكونوا تبعا لرسول الله ﷺ فلا يتقدمونه بقول أو فعل حتى يبدأ هو أولا .

وإذا كان ذلك قد طُلب من المؤمنين فى حياة رسول الله ﷺ فإنه يتحتم استمراره فى عصرنا هذا وإلى يوم القيامة وينبغى ألا نتقدم سنته الصحيحة بقول أو عمل أو مشورة . ـ لأنها بعد القرآن دستورنا ـ « تركت فيكم ما إن تمسكتم به فلن تضلوا بعده أبداً كتاب الله وسنة رسوله » (٣)

---

(١) (٢) سورة الحجرات آية ١

(٣) رواه أصحاب السنن

وفى هذا تحكيم للحق المطلق الذى مثله رسول الله ﷺ ولن يتحقق للمؤمنين إيمانهم إلا عندما يرضون بحكم رسول الله ﷺ فى كل أمورهم غير جذعين ولا متبرمين ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (١).

وفى هذا ردع للمتطاولين على السنة الذين يأكلون ويشربون المحرمات بحجة أنها لم ترد نصا فى القرآن فهم بهذا التقول كافرون بقوله تعالى :

﴿ مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ۚ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ۚ ﴾ (٢).

(٣) وقال الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ (٣).

لقد كان فى العرب نوع من الغلظة لبعضهم فى الحديث . ولم يكن لديهم مانع من رفع أصواتهم إلى الحد الذى يتأذى منه العقلاء من الرجال . ولقد جرت العادة بين الناس أنهم إذا تحدثوا فى حضرة عظيم منهم أن يخفضوا أصواتهم إجْلالا لهذا العظيم . فأمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بأن يغضوا أصواتهم فى مجلس رسول الله ﷺ . وألا يصيحوا إلى الحد الذى يؤذيه . وأن يكونوا أخفض منه صوتا . لأن رفع الصوت والجهر بالحديث يبطل الأعمال ويذهب بالهيبة . ولقد أخبرنا القرآن بهذا الأدب حيث أورد حديث لقمان لابنه فى هذا المضمار

---

(١) سورة النساء آية ٦٥

(٢) سورة الحشر آية ٧

(٣) سورة الحجرات آية ٢

وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ [1] .

ولقد ورد أن النبى ﷺ افتقد ثابت بن قيس فقال رجل : يا رسول الله أنا أعلم لك علمه . فأتاه فوجده جالسا فى بيته منكسا رأسه . فقال له : ما شأنك ؟ فقال : شر . كان يرفع صوته فوق صوت النبى ﷺ . فقد حبط عمله . وهو من أهل النار . فأتى الرجل النبى عليه السلام فأخبره أنه قال : كذا وكذا . فرجع إليه المرة الأخرى ببشارة عظيمة فقال : اذهب إليه فقل له : « إنك لست من أهل النار ولكنك من أهل جنته » وفى رواية « أما ترضى أن تعيش حميداً . وتقتل شهيداً وتدخل الجنة ؟ » [2]

وإذا كان الأدب فى مجلس رسول الله ﷺ يقتضى عدم التقدم عليه بقول أو فعل أو رفع صوت بين يديه تعظيما وتوقيرا . فأولى أن يستمر هذا الأدب حتى مع سنته فلا يرفع المؤمن صوته عند قراءتها بعد وفاته ﷺ . فهى فى الرتبة الثانية احتراماً وتقديراً . والقرآن قيل فى شأنه

﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [3] .

وقبر الرسول ﷺ يأخذ هذا الحكم أيضا عند زيارته من حيث التشريف . لأن جثمانه الطاهر يرقد غضا كيوم انتقاله إلى الرفيق الأعلى لأن الله حرم على الأرض أن تأكل أجسام الأنبياء . وروى أن رجلين رفعا صوتيهما فى المسجد النبوى فسمعهما سيدنا عمر فجاء فقال : (أتدريان أين أنتما ؟) ثم قال : ممن أنتما ؟ قالا من أهل الطائف : فقال : (لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما) ثم نرى الآية تأمر بعدم الجهر بالصوت عند رسول الله كما يجهر بعضهم لبعض حفظا للأعمال . وطلبا لرحمة الله .

---

(١) سورة لقمان آية ١٩

(٢) رواه البخارى عن أنس رضى الله عنه

(٣) سورة الأعراف آية ٢٠٤

وأملا فى تقواه . والله سبحانه يقول :

﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ (١) .

بمعنى لا تنادوه بيا محمد يا أحمد . لأن ربه عظمه فلم يناده باسمه مجرداً . وإنما ناداه . بيا أيها الرسول . يأيها النبى . توقيراً وتكريماً .

(٤) وقال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢) .

سبب نزول الآية :

أكثر المسلمون السؤال . وألحوا على رسول الله ﷺ فيه حتى شق ذلك عليه . فأراد الله سبحانه وتعالى أن يخفف عن رسوله فأنزل هذه الآية فأمتنع كثير من المسلمين عن السؤال بعد أن كانوا يختلون به عليه السلام ويناجونه فى مسائلهم الخاصة . وقد تكون هذه المسائل هامة أو غير هامة . حتى ظن بعض المسلمين أن هؤلاء الذين يناجون رسول الله ﷺ ينتقصونهم عنده وبعض الظن إثم كما حدثنا القرآن .

ولقد قصدت الآية ـ كما أوضحت آنفا ـ التخفيف عن النبى . وتطهير قلوب المسلمين من أن يشك أحدهم فى أخيه أو يظن ظنا يؤثر على إيمانه ﴿ ذلك خير لكم وأطهر ﴾ والآية كذلك تأمر المسلم الذى يريد مناجاة الرسول أن يقدم صدقة قبل أن يتحدث معه عليه الصلاة والسلام ويبدوا أن هذا الأمر شق على نفوس المسلمين وعلى

---

(١) سورة النور آية ٦٣

(٢) سورة المجادلة آية ١٢

الأخص الفقراء منهم لأن الأغنياء يمكنهم التصدق ومحادثة الرسول . فخف الله على الفقراء بقوله تعالى :

﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [1] .

ثم نُسخ هذا الحكم بقوله سبحانه :

﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [2] .

وفى هذا الأنتقال ـ من حكم شديد إلى حكم أقل منه شدة ـ تخفيف عام عن المسلمين وتيسير لهم . وروى فى بعض الآثار : (أن أحداً لم يعمل بآية الصدقة هذه عند إرادة مخاطبة رسول الله غير على بن أبى طالب كرم الله وجهه حيث قال : (آية من كتاب الله لم يعمل بها أحد قبلى ولن يعمل بها أحد بعدى وهى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ . ﴾ الآية .

ويرى بعض العلماء أن أحدا لم يعمل ، قط . لا علىٌّ ولا غيره ويستدلون على ذلك بقوله تعالى :

﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾

وهذا الرأى تؤيده اللغة العربية بمعنى : وحيث إنكم لم تفعلوا ذلك ولم يقدم أحد منكم صدقة وتاب الله عليكم . فهناك شروط أخرى لإباحة المناجاة وهى : إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ووجوبُ طاعة الله ورسوله . والله أعلم .

---

(١) (٢) سورة المجادلة آية ١٣

حرمة المسلم

(١) قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (١)

سبب نزول الآية :

قيل إن هذه الآية نزلت فى حق ثابت بن قيس حيث كان فى أذنه وقر . وكان أصحاب الرسول ﷺ يفسحون له المجلس بالقرب من رسول الله ﷺ ليسمع فجاء فدخل المسجد فوجده مكتظا بالناس . فأخذ يتخطى الرقاب ويقول : افسحوا افسحوا إلى أن بقى بينه وبين الرسول رجل واحد . فقال له ثابت افسح فقال الرجل : وجدتَّ مكانا فاجلس . فقال ثابت من هذا ؟ فقيل له : فلان . قال : ابن فلانه ؟ يعيره ـ بأمه ـ فنزلت الآية . وقيل إنها نزلت فى جماعة كانوا يقولون كلما رأوا عكرمة بن أبى جهل : هذا ابن فرعون هذه الأمة ـ فكان عكرمة يتأذى بها . فنزلت . ولكن يبدو أن الله أراد أن يأخذ هذه الأمة بأدب الإسلام . وأن يجعل الخطاب فيما بينهم مثلا لتعظيم بعضهم بعضا . وحماية لأعراضهم وعلوا لكرامتهم . وإعزازا لحرماتهم . لأن فى السخرية استهزاء وإهدارا للقيم . والفرد إذا أُهْدِرت قيمته من أخيه كان أكثر تعرضا للإهدار من عدوه . وبالتالى تضيع كرامته وكرامة مجتمعه المبنى على أساس الأفراد .

ثم إن ذلك الأنسان المستضعف المسخور منه . قد يكون أكرام منزلة ممن سخر

---

(١) سورة الحجرات آية ١١

منه . وأعلى مكانة . لأن الله سبحانه لا ينظر إلى مظاهر الناس البراقة ولا إلى ألفاظهم المنمقة المعسولة . ولكنه ينظر إلى طهارة القلوب وإخلاص العمل . يقول أكرم الخلق محمد ﷺ « رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لا برّه »[1] واحتقار المسلم لأخيه يدنى المحتقر من غضب الله . ويوقع به فى مصيدة الشر « حسبُ امرئ من الشر أن يحتقر أخاه المسلم »[2] وعن الحسن (أن المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم فى الآخرة باب من الجنة فيقال له : هلم فيجئ بكربه وغمه فإذا جاء أغلق دونه . ثم يفتح له باب آخر فيقال : هلم فيجئ بكربه وغمه فإذا جاء أغلق دونه . فما يزال كذلك حتى أن أحدهم لينفتح له الباب من أبواب الجنة فيقال له : هلم فما يأتيه من الإياس) .

ثم تنحو الأية نحوا آخر تعالج فيه عيبا متفشيا بين الناس وهو ذِكْرُه بعضهم بعضا بما يكرهون . وإبداء أحدهم عيب أخيه . وهذا العمل يصل الجرح فيه إلى شغاف النفوس . وجراح اللسان لا دواء لها . ومَن هؤلاء الذين يعيبون الناس ؟ إنهم هم الذين كثرت عيوبهم وفاضت على جوانب ألسنتهم . وطغت على أفكارهم فأرادوا الذود على أنفسهم بالمبادرة إلى عيوب غيرهم .

والإسلام لا يرضى أبداً إطلاق لفظ قبيح على مسلم لأنه فسوق ومعرة . ونداؤك أخاك بلفظ يكرهه يعتبر تعديا على حقه وعدوانا على تعاليم الدين قال تعالى : ﴿ ولا تنابزوا بالألقاب ﴾ ثم هو يعرضك لسخط الله وعقوبته . فيقول عبد الله بن مسعود : (البلاء موكل بالقول . لو سخرتُ من كلب لخشيت أن أُحوَّل كلبا) ورسول الأنسانية ﷺ يقول : « طوبى لمن شغله عيبه عن عيبوب الناس » ويُخشى على من عير أخاه أن يرتكب نفس ما يراه نقيصه فى أخيه (من عير مسلما بذنب تاب منه كان حقا على الله أن يبتليه به ويفضحه فيه فى الدنيا والآخرة) وفى رواية (من عير أخاه بذنب لم يمت حتى يعمله)[3].

---

(١) رواه مسلم
(٢) رواه أبو داود
(٣) رواه الترمذى وابن منيع

والآية فى رأيى عامة فى حماية المسلم والحفاظ على حرمته والأخذ على يد المعتدين الذين يؤذون الناس بألسنتهم قولا أو إشارة . ومن لم يتب عن الحديث فى حقوق الناس ومناداتهم بما يكرهون فقد ظلم نفسه وأوبقها (ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون) والنبى ﷺ يقول : « إن أحبكم إلى أحاسنكم خلقا»

والموطأون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون . وإن أبغضكم إلى المشاءون بالنميمة المفرقون بين الأحبة المتلمسون للبرءاء العيب » ؟

(٢) وقال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) .

سبب نزول الآية :

روى أن سبب نزولها هو أن رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ اغتابا رفيقا لهما فنزلت .

وتفصيل ذلك : أن النبى ﷺ كان إذا سافر يضم الرجل المحتاج إلى رجلين موسرين ليخدمهما ويطعم معهما . فضم (سلمان) إلى رجلين فتقدم سلمان إلى منزلهما فغلبه النوم فنام ولم يجهز لهما طعاما . فلما حضرا ولم يجدا شيئا . قالا له : انطلق فاطلب لنا طعاما أو إداما من النبى ﷺ فذهب فبعثه إلى أسامة بن زيد ليعطيه أسامة شيئا من طعام أو إدام فلم يجد عند أسامة بن زيد شيئا . فرجع سلمان إليهما فأخبرهما . فقالا قد كان عنده ولكنه بخل . ثم بعثا سلمان إلى جماعة من الصحابة

---

(١) سورة الحجرات آية ١٢

فلم يجد عندهم شيئا فقالا : لو بعثنا سلمان إلى (بئر سميحة) لغار ماؤها . ثم انطلقا يتجسسان هل عند أسامة شئ . فرآهما النبى ﷺ فقال : « مالى أرى خضرة اللحم فى أفواهكما ؟ » فقالا : يا نبى الله ما أكلنا فى يومنا هذا لحما ولا غيره . فقال : ولكنكما ظللتما تأكلان لحم سلمان وأسامة فنزلت الآية .

والآية تنهى عن مجموعة من المذمومات التى يجب على المسلم أن يتورع عنها حفاظا على الأعراض وتقديسا للحرمات .

أولهـــا : الظن

والظن قسمان محمود ومذموم . فالمحمود ما سلم معه دين الظان والمظنون به عند بلوغه . وأما المذموم فهو ما كان غير ذلك فإذا كان المظنون به تقيا ورعا غير مجاهر بإثم فالظن الشر فى حقه حرام والنبى ﷺ يقول : « أياكم والظن فإن **الظن** أكذب الحديث »[1]. أما ذلك الإنسان الذى يصع نفسه موضع التهم . ولا يبالى . فقد حرض الناس بنفسه على أن يظنوا به الظنون السيئة .

والدين الحنيف يعلم المسلم كيف يصنع أمام الظن . فيأمره بأن لا يحاول التحقق من الظن الذى يطرأ على فكره فى إنسان ما . خصوصا إذا علم فيه الصلاح فيقول ﷺ : « إذا ظننت فلا تحقق . وإذا حسَدْتَ فلا تبغ . وإذا تطيرت فأمْض »[2] ومن هنا كان الرأى الراجح أنه لا يجوز الظن القبيح بمن ظاهره التقوى . بخلاف من كان ظاهره الفساد والشر فالظن به لا حرج فيه . ولقد قرأت فى كتاب (كليلة ودمنه) هذين البيتين فأعجبت بهما :

قل لمن يعجل بالظن الذى ... يُورِث الأثم ويأتى بالندم
إن بعض الظن إثم . كَمْ به ... عَثَر الناسُ وكم زلت قدم

---

(١) متفق عليه
(٢) رواه الطبرانى

ثانيها : التجسس :

وهو محاولة معرفة أخبار الغير وإذاعتها لنشر مثالبهم . والعمل على فضيحتهم ولقد نهى النبى ﷺ عن التجسس وتَتبع أخبار الناس وعيوبهم وكشف عوراتهم فقال : « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان فى قلبه لا تتبعوا عورات المسلمين فإن من تتبع عورات المسلمين فضحه الله فى قعر بيته »[1].

ومن هنا يجدر بنا أن نعلم بأن من أغلق عليه بابه واستتر عن أعين الناس يجب أن لا يدخل أحد عليه بيته إلا بأذنه . حتى ولو كان يرتكب المنكر داخل بيته .

ولقد ورد أن عمر بـن الخطاب خرج ليلة يعس بالمدينة فسمع صوت رجل فى بيته يتغنى فتسور عليه ووجد عنده امرأة وخمراً . فقال عمر : يا عدو الله أظننت أن الله يسترك وأنت على معصية فقال : وأنت يا أمير المؤمنين لا تعجل على . إن كُنْتُ عصيتَ الله واحدة . فقد عصيت أنت الله فى ثلاث قال : ﴿ ولا تجسسوا ﴾ وقد تجسست علىَّ وقال : ﴿ وأتوا البيوت من أبوابها ﴾ وقد تسورت وقال :

﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ﴾[2] . وقد دخلت بغير أذنى . وكأن الرجل قال لعمر تبعاتك أكثر من تبعاتى . ومسئوليتك أشد من مسئوليتى فقال له عمر : فهل عندك خير إن عفوت عنك ؟ قال الرجل : نعم والله يا أمير المؤمنين لئن عفوت لا أعود إلى مثلها أبداً فعفا عنه عمر وخرج وتركه) .

والإثم المترتب على التجسس كبير والعذاب المُعَدَ لمن يَفْعَلُ ذلك أليم شديد . يدلنا على ذلك هذا الأثر المروى عن عمرو بـن دينار . (أنه كان فى المدينة رجل له أخت فاشتكت فكان يعودها . فلما ماتت نزل فى قبرها ودفنها فسقط كيس دنانير كان فى كمه فى القبر فأستعان ببعض أهله فنبشوا القبر وأخذ الكيس . ثم قال : لأكشفن

---

(١) رواه أبو يعلى

(٢) سورة النور آية ٢٧

حتى أنظر ما آل حال اختى اليه . فكشف عنها فإذا القبر مشتعل ناراً . فجاء إلى أمه فقال : أخبرينى ما كان عمل أختى ؟ فقالت له : قد ماتت أختك فما سؤالك عن عملها ؟ فلم يزل بها حتى قالت له : كان من عملها أنها كانت تؤخر الصلاة عن مواقيتها . وكانت إذا نام الناس قامت إلى بيوتهم فألقمت أذنها أبوابهم فتتجسس عليهم وتُخرج أسرارهم فقال: بهذا هلكت .)

ثالثهما : الغِيبة -

وهى أن تذكر أخاك بما يكره سواء كان ذلك من ناحية الخُلُق أو الخَلْق ولقد سئل النبى ﷺ عن الغيبة فعرفها بقوله : « أن تذكر أخاك بما يكره . فإن كان فيه فقد أغتبته وأن لم يكن فيه فقد بهته »[1] .

والغيبة غالبا ما تكون نتيجة للغيظ والهياج ومجاملة الرفقاء ومجاراة الجلساء . بل وتكون حسداً وغيرة .

والإسلام صور المغتاب بصورة بشعة تأباها النفس المعتدلة ويشمئز منها الطبع المستقيم . حيث صوره بمن يأكل لحم أخيه بعد موته . وهذا يوضح أن الإنسان المغتاب يمزق لحم أخيه وهو غافل لا يحس بما يقال فى حقه . كما أن الميت لا يحث إذا قطع لحمه (يقول الحسن . الغيبة ثلاثة أوجه . كلها فى كتاب الله تعالى .

(الغيبة . والإفك والبهتان . فأما الغيبة فهى أن تقول فى أخيك ما هو فيه وأما الإفك فأن تقول فيه ما بلغك عنه . وأما البهتان فأن تقول فيه ما ليس فيه) .

وروى أن ماعزا الأسلمى حينما جاء الى النبى ﷺ واعترف له بالزنا وأمر النبى برجمه وتم الرجم . سمع النبى ﷺ رجلين يقول : أحدهما للآخر . أنظر الى هذا

---

(١) رواه أبو داود

الرجل ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رُجِمَ رَجْمَ الكلب . فسكت النبى عنهما . ثم سار ساعة حتى مر بجيفة حمار شائل برجله . فقال : « أين فلان وفلان ؟ فقالا : نحن إذا يا رسول الله قال : « أنزلا فكلا من جيفة هذا الحمار » . فقالا يانبى الله : ومن يأكل من هذا ؟ قال : فما نلتما من عِرض أخيكما أشد من الأكل منه . والذى نفسى بيده إنه الآن لفى أنهار الجنة يتغمس فيها (ولقد سمع على بن الحسين رجلا يغتاب آخر فقال : (إياك والغيبة . فإنها إدام كلاب الناس) [1] .

وتحرم الغيبة إذا قيلت فى حق إنسان تقى غير مجاهر بمعاصيه . أما إذا كان فاسقا أو ظالما فلا غيبة له . ولا يعاقب من اغتابه إذا كان يقصد بذلك تحذير الناس من شره . يؤكد هذا ما روى فى الخبر (من القى جلباب الحياء فلا غيبة له) والرسول ﷺ يقول : « اذكروا الفاجر بما فيه كى يحذره الناس » [2] .

ولقد ورد عن الحسن أنه قال : (ثلاثة ليست لهم حرمة : صاحب الهوى والفاسق المعلن . والإمام الجائر)

وكذلك لو أستشارك إنسان فى مصادقة إنسان آخر ومصاهرته فإنه من الواجب عليك أن تشير قاصدا بذلك النصيحة والإرشاد . ولقد جاءت أخت الضحاك بن قيس إلى الرسول ﷺ تستشيره فى جماعة جاءوا لخِطبتها فقال لها : « أما معاوية فصعلوك لا مال له . وأما أبوجهم فلا يضع العصا عن كاهله . ثم أشار عليها بالزواج من أسامة بن زيد » . وتختم الآية بالأمر بالتقوى والبعد عن أذى المسلمين والاحتفاظ بالحرمات مصونة والأعراض مكرمة . فمن فعل شيئا من هذه المحرمات فليرجع إلى الله ويلجأ إلى التوبة وليتحلل من صاحب المظلمة قبل يوم الدين الذى يَعَضُّ فيه الظالم على يديه . ويمكن للمغتاب أن يستغفر لمن اغتابه ويتوب إلى الله توبة نصوحا فهو سبحانه التواب الرحيم . وإذا كانت الآية قد حثت على الابتعاد عن

---

(١) رواه أبو يعلى بإسناد صحيح

(٢) رواه ابن أبى الدنيا وابن عدى والطبرانى

الظن والتجسس والغيبة حفظا لكرامة المسلم فهناك آيات أخرى دعت إلى ما هو أكثرُ كالبعد عن القتل أو القذف بجريمة الزنا . أو اتهامه بالسرقة من غير دليل . أو أكل ماله بالباطل . أو هتك عرضه أو غبنة فى بيع أو شراء . أو التعالى عليه واستضعافه . أو فتنته على دينه إلى غير ذلك مما يعتبر أذى للمسلم فمن خالف ذلك فقد استحق غضب الله ومقته . ولا يظلم ربك أحداً .

★ ★ ★

آداب المجلس

قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾ (١) .

* سبب نزول الآية :

كان مجلس رسول الله ﷺ يضيق بالجالسين ، وكان يكرم أهل بدر .

فجاء ناس من أهل بدر فيهم ثابت بن قيس وقد سُبِقوا الى المجلس فقاموا حيال النبى ﷺ على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم . فلم يفسح لهم أحد .

فشق ذلك على النبى ﷺ فقال لمن حوله من غير أهل بدر : « قم يا فلان . وأنت يا فلان » بعدد القائمين من أهل بدر . فشق ذلك على من أقيم . وعرف النبى ﷺ الكراهة فى وجوههم . وانتهزها المنافقون فرصة فتكلموا وغمزوا قائلين : ما أنصف هؤلاء وقد أحبوا القرب من نبيهم فسبقوا إلى المكان . فأنزل الله هذه الآية مبينا أدب المجلس .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ الخ ﴾ وفى هذا تعليم للمسلمين . وبيان يدل على أن طاعة رسول الله ﷺ واجبة فى كل شىء . وإظهار للآداب العامة حيث يراعى إراحة المسلم لأخيه وفى ذلك من تأليف القلوب والمحبة ما فيه . وفيه تنفيذ لحق المسلم قِبَل أخيه . وليس معنى ذلك أن يقيم الإنسان أخاه

---

(١) سورة المجادلة آية ١١

من المجلس ليجلس هو فيه مع وجود مكان آخر . فهذا يعتبر تعديا وحبا للنفس يمقته الإسلام . ويقول النبى ﷺ : « لا يقم الرَّجُلُ الرَّجُلَ من مجلسه ثم يجلس فيه »[1] .

ونحن نرى من الناس من يقيمون غيرهم من أماكنهم ليحتلوها هم خاصة فى المساجد أيام الجمع والأعياد وهذا إن دل على شىء فإنه يدل على رقة التدين وعدم معرفة لآدابه .

وقد يتعلل من يفعل ذلك بأنه حريص على الصلاة مثلا فى الصف الأول ولكنها علة واهية . لأن الحريص حقيقة هو ذلك الذى يسعى للصلاة مبكرا عندما يسمع النداء . والذى يسبق إلى المكان أحق به .

يقول ﷺ : « لا يقيمن أحدكم أخاه يوم الجمعة ثم يخالف إلى مقعده فيقعد فيه ولكن ليقل : افسحوا »[2] فمن فعل ما أمره الإسلام به وتفسَّح لأخيه فى مجالس الخير نال رضوان الله . وأفسح الله له فى قبره ووسع عليه رزقه وفاز بالسعادة الأخروية . هذا مرمى الأمر الأول فى الآية (فافسحوا) .

والمقصود من الأمر الثانى : (فانشزوا) هو سرعة تلبية الداعى إلى الخير . واتباع الأمر بالمعروف . ويشمل ذلك الإسراع إلى المساجد عند سماع النداء للصلاة . والإسراع إلى ميادين القتال عند سماع نفير الحرب . وكذلك إلى الإنفاق والتبرع بالدم عند الحاجة إليهما .

وإذا كان الأمر صادرا بالتوسعة فى المجالس فللمجالس آدابها التى يجب التمسك بها منها :

١ ـ حفظ اللسان عن الخوض فى حقوق الناس .

٢ ـ غض البصر عن المحرمات .

---

(١) رواه احمد وزاد فيه او لكن تفسحوا وتوسعوا .

(٢) رواه الشافعى فى الام بدون زيادة ثم يخالفه الى مقعده فيقعد فيه .

٣ ـ التسليم عند الحضور والانصراف ، قال ﷺ : « إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم ، فإذا أراد أن يقوم فليسلم ، فليست الأولى بأحق من الآخرة » .

٤ ـ عدم التآمر على سفك دم حرام أو هتك عِرْض أو اقتطاع مال بغير حق يقول ﷺ : « المجالس بالأمانة إلا ثلاثة مجالس . سفك دم حرام . أو فرج حرام . أو اقتطاع مال بغير حق » [٤] .

فإذا كانت هذه هى آداب المجلس فان الدين ينصح أبناءه بأن يتخيروا أماكن جلوسهم . فلا يجلسوا على قارعة الطريق ليضيقوا على المارة أو يطلقوا العنان لألسنتهم وأعينهم تنهش الغادين والرائحين رجالا وإناثا . والرسول ﷺ يقول : للمسلمين قولا يعلمهم به تبرئة أنفسهم من التبعات التى ترتكب فى المجالس من حيث اللغو وغيره « من جلس فى مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك : « سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد ألا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، إلا غفر له ما كان فى مجلسه ذلك » وبعد هذا البيان من كتاب ربنا يخبرنا تعالى بأنه سيكرم المؤمنين العالمين بقدره يوم القيامة . والعاملين بما عَلِمُوا وسيرفعهم درجات عالية ومنازل كريمة .

ولعل هذا التذييل للآية يرشد إلى أن الرفعة عند الله تكون بالإيمان والعلم وليست بالتصدر فى المجالس . فرب إنسان يجلس آخر الصف فى مجالس العلم أو فى المسجد ولكنه بإيمانه ويقينه أكرم عند الله ممن يتصدر المجلس أو يحاول تخطى الرقاب . والله سبحانه خبير بأعمال العباد عليم بنياتهم وسلامة قلوبهم كما يقول ﷺ : « رب مبلغ أوعى من سامع » .

النهى عن موالاة الاعداء

قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴾ (١) .

* **سبب نزول الآية :**

روى أن شاس بن قيس اليهودى مر بالمسلمين فى أحد مجالسهم فوجدهم يتحدثون فى ود وصفاء . وقد تلاشى ما كان بينهم من إحَنٍ بسبب دخولهم فى الإسلام . فغاظه ذلك . فدس إليهم من يذكرهم بما كان بينهم من حروب وأنشد بعض أبيات من الشعر قيلت من أحد الفريقين أيام القتال .

فأعملت الفتنة اليهودية الخبيثة عملها وتنادت الأوس يا آل الأوس وتنادت الخزرج يا آل الخزرج وحملوا السلاح واصطفوا استعدادا للقتال فأنزل الله هذه الآية محذرة المسلمين من إطاعة أهل الكتاب عامة واليهود منهم خاصة لأنهم يحملون فى صدورهم حقدا قاتلا للإسلام وأبنائه .

(أسباب النزول للواحدى) :

وليس هذا فى الزمن القديم فحسب ولكنه ما زال الصفة المميزة لهم حتى أيام الناس هذه .

حيث يعتبرون أنفسهم أنقى من غيرهم عنصرا وأسمى عند الله مكانة حيث إنهم (شعب الله المختار) وكانوا وما يزالون مسعرى حرب فى كل مكان . لأن من صالحهم

---

(١) سورة آل عمران آية ١٠٠

أن يدمر غيرهم لتبقى لهم السيادة . وليقيموا (جنة يهوا) على الأرض . ويتمكنوا من حكم العالم بأسره وصدق الله العظيم اذ يقول :

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ﴾ (١) .

ولذلك وجدنا المسلمين يثوبون إلى رشدهم حينما تلا عليهم الرسول ﷺ الآية التى معنا .

فندموا على سرعة استجابتهم للدس الذى قام به اليهود وألقوا السلاح وعانق بعضهم بعضا وكثرت الآيات الحاثة على عدم طاعة الكافرين أو موالاة أعداء الله .

وحذرت من الموتورين والمنافقين الذين ينتهزون الفرصة للدس والوقيعة بين المسلمين وترويع الآمنين والتشكيك فى قدرة المجاهدين فقال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٢) .

فهو سبحانه يقول لنا : لا تجعلوا أسراركم ومشاوراتكم لهؤلاء الذين لا يؤتمنون على سر ولا يحفظون وديعة .

ولا يجب الاستعانة بهم لأنهم غير أمناء على أى عمل ويكفى فى ذلك قول الحق جل فى علاه ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ (٣) فهم يسارعون فى جلب الشر إليكم وإيصال الفساد والتمزق إلى صفوفكم وتحطيم كل جهد تبذلونه لرفع شأنكم .

والرسول ﷺ يقول : « ما بعث الله من نبى ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه . وبطانة تأمره بالشر وتحثه عليه والمعصوم من

---

(١) سورة المائدة آية ٨٢

(٢) سورة آل عمران اية ١١٨

عصمه الله » ويقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه : (لا تستعملوا أهل الكتاب فإنهم يُستحلون الرشا واستعينوا على أموركم وعلى رعيتكم بالذين يخشون الله تعالى) .

ثم إن الموتورين وغير المسلمين يسعدهم وقوع المسلمين فى البلاء . وهذه السعادة تظهر فيما بينهم .

وان كانوا يظهرون التألم لما أصاب المسلمين من سوء (ود وا ما عنتم) فهم يشمتون فى المصاب ويسرون بذلك وفى قلوبهم نار متقدة وحقد قاتل (قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر) ، فليحذر المسلمون دائما . وليبتعدوا عن موالاة هؤلاء .

﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ ﴾ (١) .

ولكننا نرى المسلمين لصفاء قلوبهم وسلامة نياتهم يقربون بعض هؤلاء الموتورين رفقا بهم .

ولكنهم فى الواقع كالأفاعى لينة الملمس شديدة الخطر قال عنترة :

إن الأفاعى وإن لانت ملامسها .. عند التقلب فى أنيابها العطب

فهؤلاء يبدون معسول الكلم ويظهرون التعاطف ولكنهم فى الوقت نفسه خطر يجب التنبه إليه .

﴿ هَٰٓأَنتُمْ أُولَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ ۖ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة آل عمران آية ٢٨

(٢) سورة آل عمران آية ١١٩

وهذه دائما طبيعة المنافقين ومرضى القلوب الذين لا يرضيهم إلا تحقيق مصالحهم الشخصية وتحصيل مآرب زائلة ولو كان فى ذلك دمار لأوطانهم بل وللانسانية كلها . وكأن كل واحد منهم يردد هذا المثل المعبر عن الأنانية (نفسى وليكن الطوفان) .

وقال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴾ (١).

فهذه الآية ـ متضامنة مع سابقتها ـ تؤكد ضرورة البعد عن مولاة أعداء الله أو طاعتهم .

وأعداء الله على عمومهم فى الآية هم المشركون وأهل الكتاب والمنافقون حتى لا يرتد المسلمون على أعقابهم ويعودوا إلى الكفر بعد إذ نجاهم الله منه فيخسروا بذلك الدنيا والآخرة .

ونرى الآيات فى مجموعة من السور القرآنية منتهجة نفس هذا الخط فنجد فى سورة النساء قول الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾ (٢) .

* وفى سورة المائدة قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (٣) .

---

(١) آل عمران آية ١٤٩

(٢) سورة النساء آية ١٤٤

(٣) سورة المائدة آية ٥١

* سبب نزول هذه الآية :

نزلت هذه الآية عقب غزوة أحد حينما أصيب المسلمون بنكسة طارئة وأراد بعضهم تحت وطأة الهزيمة موالاة اليهود والنصارى فنهاهم الله عن ذلك .

وفى هذا النهى لفت نظر للمسلمين بأن من والى أعداء الله يكون منشقا على جماعة المسلمين ويعتبر عدوا لهم . وأن يمسه من العذاب ما يمس هؤلا الأعداء .

﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ (١) .

* والآيتان ٥٧ ، ٥٨ من نفس السور تطلبان من المسلمين البعد عن اتخاذ المشركين وأهل الكتاب أولياء . لأن هؤلاء وأولئك اتخذوا دين المسلمين هزوا وسخرية حتى سخروا من طريقة أداء العبادات الإسلامية وكيفية الجمع لها .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ (٢) .

* والآية ٢٣ من سورة التوبة :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (٣) .

---

(١) سورة هود آية ١١٣

(٢) المائدة آية ٥٧ ، ٥٨

(٣) سورة التوبة آية ٢٣

فالنداء هنا عام للمؤمنين فى سائر الأزمان . وإن كان البعض يرى أنه خاص بمن كان فى مكة من المؤمنين للحض على الهجرة إلى المدينة لحوقا برسول الله ﷺ وصحبه وبُعْدًا عن موالاة أعداء الله حتى ولو كانوا أباء وإخوة ماداموا مقيمين على كفرهم .

وليس هناك ما يمنع من الجمع بين المقصودين فى الآية ، وهذا التحذير ليس معناه منع البر عنهم أو إيصال الخير إليهم فهذه ناحية إنسانية حرص الإسلام على تأكيدها .

﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۚ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ﴾ (١) .

ولهذا وجدنا المسلمين فى بدر يقف بعضهم أمام أبيه وأخيه أو عمه المشرك يريد الانتقام منه لأنه مازال على عناده للاسلام . ولم تأخذهم بهم رأفة فى دين الله .

والآية ـ ١ من سورة الممتحنة يقول تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ ۖ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (٢)

*** سبب نزول هذه الآية :**

هو أن حاطب بن أبى بلتعة بعث بكتاب إلى أهل مكة يخبرهم فيه أن الرسول عليه الصلاة والسلام والمسلمين متوجهون لحربهم بجيش لا قبل لأهل مكة به .

---

(١) سورة لقمان آية ١٥

(٢) سورة الممتحنة آية ١

وقد أرسل هذا الكتاب مع امرأة استأجرها لذلك فعقصت عليه شعرها وسافرت به .

فأخبر الله تعالى نبيَّه بهذا الكتاب فدعا الرسول عليا والزبير والمقداد بن الأسود وقال لهم : (ائتوا (روضة خاخ) ـ مكان فى الطريق إلى مكة ـ فإن بها ظعينة أى امرأة مسافرة ـ معها كتاب فخذوه منها) .

فانطلقوا وأدركوا المرأة وطلبوا منها الكتاب فأنكرت فقالوا لها : والله ما كَذَبَ الله رسولَهُ ﷺ . وما كَذَبَنا رسول الله ﷺ . إما أن تُخرجى الكتاب أو لنضعن الثياب . فخافت وأخرجت الكتاب من عقاصها .

وجاءوا به إلى رسول الله ﷺ . فدعا حاطبا وقال له : (يا حاطب ما هذا ؟ قال : لا تعجل على يا رسول الله .

إنى كنت امرءا ملصقا فى قريش ـ يعنى بذلك أنه ليس له فيها أقارب وإنما كان حليفا لهم ـ وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم . فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يدا يحمون بها قرابتى . ولم أفعل ذلك كفرا أو ارتدادا عن دينى . فعفا عنه النبى وصدقه لأنه ممن شهدوا بدرا . » .

والآية تحذر المسلمين من القيام بأى عمل يمكن للعدو الاستفادة منه . من قريب أو بعيد وبينت الآية سبب المنع من موالاة أعداء الاسلام وهو كفرهم بما جاء به الرسول من الحق وإخراجهم الرسول والمؤمنين معه من ديارهم بسبب إيمانهم بالله الواحد الأحد .

والمؤمن الحق طالما أنه خرج مجاهدا فى سبيل إعلاء لكلمة الله وابتغاء ما عند الله من رضوان لا ينبغى له أن يسر بالمودة إلى الأعداء لأن هذه المودة ستكون على حساب دينه وأمته .

والله سبحانه يعلم خفايا النفوس ووساوسها فيقول :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ﴾ (١) .

ويأتى حكم من يُلقى بالأخبار إلى الأعداء . فإن كان كافرا فهو جاسوس ويقتل وإن كان غير كافر فهو عاصٍ يعاقب بالحبس أو الغرامة ويوضع تحت المراقبة وتكون عقوبته على قدر الجرم الذى ارتكبه . ويقدر ذلك ولاة الأمر المسلمون .

والآية تؤكد فى حزم شديد عدم موالاة الأعداء أو إمدادهم بالمعلومات عن المسلمين طلبا للتقرب منهم وسعيا وراء المادة الملوثة بالخيانة . وكل من يوالى الأعداء يضل طريق الحق ويزيغ فى مساره عن هدى الله ﴿ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (٢) .

والآية ١٣ من نفس السورة :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴾ (٣) .

فهذه الآية امتداد لخط النهى عن موالاة الأعداء الذين غضب الله عليهم لكثرة ما قاموا به من إفساد بين الناس . وبث الفتن التى يقصدون من ورائها بلبلة الأفكار وإضعاف الروح المعنوية بين المواطنين .

وإلى هنا تكون سورة الممتحنة قد خُتِمَتْ بما بُدِئَتْ بمثله وهو التحذير من مساعدة الأعداء واتخاذهم أحبابا . لأنهم لو ظفروا بالمسلمين فلن يرعوا فيهم إلاًّ ولا

---

(١) سورة ق آية ١٦

(٢) سورة الممتحنة آية ١

(٣) سورة الممتحنة آية ١٣

ذمة . والتحذير يشمل كل كافر لا يؤمن بالله . لأنه تعالى غضب عليهم لترك عبادته ولطغيانهم وتجبرهم وسعيهم بالشر بين الناس .

ولقد أحسوا بذلك فيئسوا من خير الآخرة . وكذبوا بما فيها من جزاء يتلاءم مع أعمال العباد .

ويأسهم هذا يشبه يأس أصحاب القبور من العودة إلى الدنيا عندما يشاهدون العذاب فيطلبون الخروج من النار والعودة إلى الحياة الدنيا . ليعملوا صالحا .

﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾ (١) .

فيدركهم اليأس ويسيطر عليهم القنوط .

ثم تطالعنا الآية ١٤ من سورة التغابن :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢) .

والآية تحذر المسلمين من الأعداء عامة . وإن كانت تركز على الأزواج والذرية بالنص .

*** سبب نزول الآية :**

أن بعض الناس أسلموا فى مكة وأرادوا أن يأتوا النبى عليه السلام بالمدينة فيتفقهوا فى دينهم فمنعهم أولادهم وأزواجهم من أتيان النبى .

---

(١) سورة فاطر آية ٣٧

(٢) سورة التغابن آية ١٤

فلما تمكنوا من اللحاق به ﷺ ووجدوا أن إخوانهم قد سبقوهم فى الفقه والتعلم هموا بأزواجهم وأولادهم ليفتكوا بهم جزاء منعهم من اللحاق مبكرا برسول الله . فأنزل الله تعالى هذه الآية ثم أمرهم بالعفو والصفح والغفران أملا فى رحمة الله .

★ ★ ★

أدب الاستئذان وحرمة المنازل

قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ (١) .

* سبب نزول الآية :

ورد فى سبب نزول الآية أن امرأة أتت النبى ﷺ فقالت له : يا رسول الله إنى أكون فى بيتى على الحالة التى لا أحب أن يرانى عليها أحد . لا ولد ولا والد . فيأتينى آت فيدخل على فكيف أصنع . فنزلت الآية ،

ولقد احتفظ الإسلام للبيوت بحرماتها حفظا لكرامة أصحابها . ولما حرم الزنا حرم مقدماته كالنظرة والقبلة والملامسة لأجنبية أو الخلوة بها . ودخول البيوت دون إذن أصحابها لا يليق . لئلا يتأذوا ممن ينظر إليهم دون موافقة منهم على ذلك .

ولقد كانت البيوت قديما مكشوفة دون ستور تحجب من فى داخلها . وكان الناس يتوجهون إلى بيوت أصدقائهم فيفاجئونهم وهم جلوس دون إذن . فعلم الإسلام بنيه أدب المنازل وأمر المسلم إذا أراد الدخول إلى بيت غير بيته أن يقوم بالاستئناس الذى هو الاستئذان ثم يسلم على من فى البيت . فإن أذن له بالدخول دخل . وإلا فليرجع دون تحرج . لأن صاحب البيت له الحق فى الاذن والرفض .

ولم ينس المشرع الحكيم أن يعلم المستأذن كيفية الاستئذان . وهى أن يجعل باب البيت عن يمينه أو شماله . وألا يقابله بوجهه لئلا تقع عينه على شىء داخل البيت يكره أصحابه أن يراه غيرهم . ويؤكد ذلك ما روى من أن أبا سعيد الخدرى استأذن

---

(١) سورة النور آية ٢٧

على رسول الله ﷺ وهو مستقبل الباب فقال له ﷺ : « لا تستأذن وأنت مستقبل الباب » وأن الاستئذان يكون على القريب والبعيد . حتى ذوات المحرم كالأم والأخت والعمة والخالة .

فقد أخرج مالك فى موطأه عن عطاء بن يسار أن رجلا قال للنبى ﷺ : أأستأذن على أمى ؟ قال : نعم . قال : ليس لها خادم غيرى أأستأذن كلما دخلت ؟ قال ﷺ : « أتحب أن تراها عريانة ؟ قال الرجل : لا . قال : « فاستأذن عليها » . أما الزوجة فلا يستأذن زوجها عليها لأنها تحل له .

وهل للاستئذان عدد ينصرف المستأذن بعده إذا لم يؤذن له ؟ إن الاستئذان الواجب هو مرة واحدة . وإكمال السنة أن تكون ثلاث مرات ، فعن النبى ﷺ « إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع » ، والحكمة فى كونه ثلاث مرات أن أصحاب البيت يستنصتون فى الأولى ويصلحون شأنهم فى الثانية ، وفى الثالثة يأذنون أو يرفضون .

* وعلى من يجب الاستئذان ؟

يجب الاستئذان على البالغين ، أما الأطفال غير المُمَيِّزين فلا استئذان عليهم لأنهم لا يعرفون العورات . والنبى ﷺ يقول : « رفع القلم عن ثلاث : عن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصبى حتى يبلغ ، وعن المجنون حتى يعقل »[1] . أما اذا بلغ الأطفال الحلم فإنهم يأخذون حكم الكبار فى وجوب الاستئذان عليهم ﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾[2] .

وهناك حالات توجب على الطفل المميز وعلى المملوك أن يستأذنا وهذه الحالات

---

(١) رواه احمد واصحاب السنن والحاكم

(٢) سورة النور آية ٥٩

بينها الله سبحانه لأنها فترات خلوة وراحة قد يكشف المرء فيها جسمه اعتمادا على أن أحدا لن يراه ولن يدخل عليه فى هذه الأوقات فقال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (1) .

فالاستئذان فى هذه الأوقات ألزم إذا اقتضته الضرورة والآية بذلك تعطى المرء فى منزله إطمئنانا وراحة . وحذرت أن يزعجه أحد فى هذه الأوقات الثلاثة الموضحة آنفا .

كل هذه الآداب بالنسبة للبيوت العامرة بالسكان والتى يقيم فيها أصحابها فعلا . أما إذا كانت غير مطروقة كالاستراحات فى الطريق . فلا يطلب الاستئذان - وإن كان البعض يرى من الورع أن يقول من يدخل هذه الأماكن الخالية : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين - لأنها لا تخلو من جن يقيم فيها .

وهكذا نجد الاسلام يرسى قواعد الأدب ليعيش الناس متآلفين متحابين يقدس بعضهم بعضا . بعيدا عن الحرج وإثارة النفوس وكشف العورات .

إذا كان هذا هو أسلوب الأدب فى المنازل العامة فلقد كانت بيوت النبى ﷺ ألزم فى الإحترام والتأدب من غيرها فقال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ

---

(1) سورة النور آية ٥٨

إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾ (١) .

* سبب نزول الآية :

ورد فى سبب النزول ان النبى ﷺ عندما تزوج السيدة زينب بنت جحش التى كانت زوجة لزيد بن حارثة وطلقها . دعا النبى أصحابه إلى طعام أعده لهم بهذه المناسبة . فلما انتهوا من الطعام إنصرف البعض وبقى البعض الآخر يتحدثون فى بيت الرسول ﷺ . وزوجه زينب مولية وجهها إلى الحائط (هكذا كما قال المؤرخون) وطال الوقت . فثقل ذلك على النبى .

يقول أنس : فما أدرى أأنا أخبرت النبى أن الناس قد خرجوا . أم أخبرنى . قال : فانطلق حتى دخل البيت . فذهبت أدخل معه فألقى الستر بينى وبينه . وأنزل الله فى هذا : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم إلى طعام كان عند الله عظيما ﴾ (٢) .

وروى كذلك فى سبب نزول الجزء من الآية الخاص بالحجاب : أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال للنبى ﷺ عقب قصة زينب السابقة : يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو أمرتهن أن يحتجبن . فنزلت الآية . . ولقد ورد فى الصحيح ما يؤكد هذه الواقعة . فعن ابن عمر قال : قال عمر : وافقت ربى فى ثلاث (فى مقام ابراهيم . وفى الحجاب . وفى أسارى بدر) .

والآية زيادة على ذلك تعطى نوعين من الأدب الإسلامى الرفيع :

---

(١) سورة الأحزاب آية ٥٣

(٢) رواه البخارى

الأول : أدب الطعام والجلوس عند المطعم فنبهت على ضرورة الانصراف عقب تناول الطعام مباشرة ليستريح أهل البيت من المجهود الذى بذلوه فى إعداد الطعام (فاذا طعمتم فانتشروا) والا تفتح ابواب الحديث ويطول الجلوس ألا إذا كانت هناك ضرورة لهذا الحديث (ولا مستأنسين لحديث) .

النوع الثانى : أدب الحجاب الذى يعتبر تقديسا للمرأة المسلمة وحفاظا لكرامتها أن تمتهن . ولعرضها أن يمس بسوء . وخاصة الزوجات الكريمات أمهات المؤمنين ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ ﴾[1] .

كما نبهت الآية أخيرا على ان أى عمل يؤذى رسول الله . لا يجب على المسلم أن يأتيه . وأن زوجات الرسول محرمات على المسلمين من بعده لأنهن بمثابة الامهات ﴿ وأزواجه أمهاتهم ﴾ .

أما من فارقها الرسول ﷺ بالطلاق فللمسلم أن يتزوجها إذا شاء ذلك ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ ﴾[2] والله أعلم .

★ ★ ★

(١) سورة الأحزاب آية ٥٣

(٢) سورة الأحزاب آية ٥٣

النداءات الخاصة بالتشريع

الدعوة الى الطهارة والصلاة

قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١) .

مقـــــدمـة :

لقد عُنى الإسلام بالطهارة بقسميها الظاهر والباطن :

أمـا طهـارة البـاطن فهى تزكية الأخلاق وسمو الأعمال وسلامة القصد . وهذا يتحقق بالصدق والأمانة وقول الحق واتباع المعروف والبذل فى سبيل الله . نفسا ومالا ودما وكلمة طيبة . كما يتحقق بصون العرض وحفظ اللسان عن اغتياب الناس . والبعد عن الطمع والحسد والكبر والنفاق والرياء . . الخ .

فإذا أصيب الانسان بأى نوع من الأمراض النفسية التى هى فى الواقع قاذورات مذمومة فعليه أن يسارع بتطهير قلبه منها وذلك بمطهرات التوبة والاستغفار والرجوع إلى الله وكثرة العبادة وقراءة القرآن والذكر .

---

(١) سورة المائدة آية ٦

والرسول عليه الصلاة والسلام يقول فيما رواه الإمام أحمد : « ان المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء فى قلبه فإن تاب ونزع واستغفر صقل منها . وان زاد زادت حتى يغلف قلبه فذلك الرَّان الذى ذكره الله فى كتابه : « كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » .

والمؤمن الواعى هو الذى يسعى ليطهر نفسه من الآثام ولو أدى ذلك إلى هلاكه ، روى أبو هريرة قال : جاء الأسلمى إلى نبى الله ﷺ فشهد على نفسه أنه أصاب امرأة حراما أربع مرات ـ أى اعترف أربع مرات ـ كل ذلك يعرض عنه . فأقبل عليه فى الخامسة فقال : فهل تدرى ما الزنى ؟ قال : نعم أتيت منها حراما ما يأتى الرجل من امرأته حلالا . قال : فما تريد بهذا القول ؟ قال : أريد أن تطهرنى فأمر به فرجم (والرجم للثيب الزانى تُقره الرسالات السماوية اليهودية والمسيحية والإسلام) .

* **أما طهارة الظاهر** : فقد عُنى الإسلام فيها بنظافة المسلم جسدا وثوبا ومكانا وجعل ذلك مشروعا . فأوجبه فى مواضع وجعله مستحبا فى مواضع أخرى حرصا على صحة المسلم . وعلم الرسول ﷺ المسلمين كيفية الطهارة الظاهرة بأنواعها فطلب منهم الاستنجاء وعلمهم آداب قضاء الحاجة وكيفية إزالة الأذى عن القبل أو الدبر . وبين أن الاستنجاء أساس العبادة ويتوقف عليه ما بعده من وضوء وصلاة . فإن صح صحت العبادة التالية له والإ فلا .

ولقد مر الرسول مع أصحابه بالمقابر فقال لهم « إن صاحبى هذين القبرين يعذبان . وما يعذبان فى كبير . أما أحدهما فكان يمشى بالنميمة . وأما الآخر فكان لا يستبرىء من البول » .

أنـواع الطهـارة الظـاهـرة

* **الوضـــوء :**

إن القرآن الكريم يحدد لنا الوضوء فى آية صريحة : .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ﴾ (١)

فقـد تحدثت هذه الآية عن الأركان الأساسية التى يعتبرها العلماء فروضا ثابتة وأضاف بعضهم « النية » تأسيسا على قول الرسول عليه السلام (إنما الأعمال بالنيات وإنـما لكـل امرىء ما نوى) رواه أصحاب السنن ، والنية محلها القلب فلا يشترط التلفظ بها . والحكمة فيها أنها تميز العبادة عن العادة . فقد يغسل الانسان أطرافه للنظافة لا للصلاة حسب تعوده فى الصباح أو فى المساء . فهذا الغُسل لا يجزئه ليدخل به فى الصلاة أو الطواف لأنه لم ينو أداء العبادة .

ومن هنا نعلم أن **فرائض الوضوء هى** : النية . وغسل الوجه . وغسل اليدين إلى المرفقين . ومسح جزء كاف من الرأس ـ على خلاف بين الأئمة يرجع إليه فى كتب الفقه ـ وغسل الرجلين الى الكعبين . والترتيب فى غسل الأعضاء حسبما هو لما وارد فى الآية الشريفة وفى قول الرسول عليه السلام (ابدأوا بما بدأ الله به) .

وأمـا سنن الـوضـوء : فهى كثـيرة نورد منها ما يلى : التسمية . المضمضة . السواك . الاستنشاق . وإن كان البعض يرى وجوب المضمضة والاستنشاق ـ ومنها تقديم اليمنى على اليسرى فى اليدين والرجلين . ومسح الأذنين وإطالة الغرة . وتخليل أصابع اليدين والرجلين . والتثليث فى الغسل بشرط عدم الإسراف فى الماء ـ وموالاة الغسل بين الأعضاء بحيث لا يجف العضو السابق قبل البدء فيما يليه .

---

(١) سورة المائدة آية ٦

وأما فضائل الوضوء : فقد جمعها قول الرسول ﷺ فيما رواه مالك والنسائى وابن ماجة : عن عبد الله الصُنابجى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا توضأ العبد فمضمض خرجت الخطايا من فيه . فإذا استنثر خرجت الخطايا من أنفه . فإذا غسل وجهه خرجت الخطايا من وجهه حتى تخرج من تحت أشفار عينيه . فإذا غسل يديه خرجت الخطايا من يديه حتى تخرج من تحت اظفار يديه . فإذا مسح رأسه خرجت الخطايا من رأسه حتى تخرج من اذنيه فإذا غسل رجليه خرجت الخطايا من رجله حتى تخرج من تحت أظافر رجليه . ثم كان مشيه إلى المسجد وصلاته نافلة له » **ويبطله** : ما خرجت من السبيلين . والنوم . والجنون . ولمس الرجل المرأة بشهوة . ومس الفرج .

* الغســـــل :

الغسل هو إسالة الماء على جميع البدن . وهو إما واجب **كغسل الجنابة** الناتج عن الاحتلام أو الاتصال الجنسى . وكذا عند إيلاج الذكر فى فرج أو دبر وإن لم ينزل منى . ففى هذه الحالات يجب الغسل على الرجل والمرأة لقول الرسول ﷺ : « إذا التقى الختانان فقد وجب الغسل » وفى رواية لأحمد « إذا أصاب الختان الختان فقد وجب الغسل » والمراد بالتقاء الختانين هو تحاذى المقطوع من قلفة الذكر عند الختان مع المقطوع من بظر المرأة . وبصورة أوضح : إذا دخل ما يساوى ثلث الذكر فى الفرج وجب الغسل . ومن صور الغسل الواجب . غسل المرأة عند الإنتهاء من العادة الشهرية (الحيض) وكذلك عند الإنتهاء من نزول الدم التابع للولد عقب الولادة (النفاس) فإن المرأة تغتسل إذا تأكد لها أن الدم بكل ألوانه (الأسود والأحمر والأشهب والأصفر والأكدر) قد انقطع .

ومن الغسل الواجب أيضا : الغسل **عند الدخول فى الاسلام** . **وتغسيل الميت** ما لم يكن شهيدا مات فى سبيل إعلاء كلمة الله فكل هذه أغسال واجبة على المسلم

لقـول الحق تبـارك وتعالى فى الجنابة : ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا۟﴾ [1] ولأمره ﷺ - النساء بأن يغتسلن من الحيض والنفاس . وكذلك أمره - من أسلم بعد كفر أن يغتسل .

وهناك أغسال مسنونة المراد منها النظافة وهى على سبيل المثال لا الحصر . غسل يوم الجمعة . غسل يوم عرفة للحجاج . غسل العيدين . غسل الطواف . ولقد أكد الرسول ﷺ الغسل بقوله : « حق على كل مسلم فى كل سبعة أيام يوما يغسل فيه رأسه وجسده » وأكد غسل الجمعة بقوله : « من اغتسل يوم الجمعة ولبس من أحسن ثيابه ومس من الـطيب إن كان عنـده ثم أتى الجمعة فلم يتخط أعناق الناس ثم صلى ما كتب الله له . ثم أنصت إذا خرج إمامه حتى يفرغ من صلاته كانت كفارة لما بينها وبين جمعته التى قبلها » [2] .

كل هذا عند تيسر الماء وعدم الحاجة إليه لشراب أو طبخ أو إزالة نجاسة أو سقى حيوان محترم معه . فإن لم يتيسر أو تيسر وكان فى احتياج إليه فان المشرع الحكيم يأمره بالعدول عن الوضوء أو الغسل إلى التيمم دون حرج أو مشقة .

*** التيمـــم :**

التيمم هو طهارة ترابية بديلة عن الماء .

وكيفيتـه : أن يضرب الإنسان بيديه على التراب الطاهر أو على الحجر أو على الرمل أو الجدار ضربتين يمسح بالأولى وجهه وبالثانية يديه إلى المرفقين . والتيمم يجوز أن يكون بديلا للوضوء وللغسل بمعنى أنه يبيح الصلاة لمن عنده حدث أكبر والكيفية فى كلتا الحالتين واحدة .

ولقد كان التخفيف رحمة من الله بعباده الذين لا يجدون الماء . أو يجدونه وتحول الأعذار دون استعماله . والأعذار منها المرض . والعدو . والخوف من سبع ضار . أو

---

(١) سورة المائدة آية ٦

(٢) رواه البخارى

عدم وجود ثمن الماء إذا كان يباع بثمن معقول . أو عدم وجود حبل لاستخراجه من البئر أو شدة برد يتأكد للانسان معها الضرر لو استعمل الماء بشرط عدم وجود ما يسخن به الماء . ولقد أوضحت الآية ذلك فى قوله تعالى : ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1] .

والرسول ﷺ يؤكد ذلك بقوله : « أيما مسلم أدركته الصلاة فعنده طهوره ومسجده » ويزيد ذلك إيضاحا فى حديث آخر « جعلت لى الأرض مسجدا وطهورا »[2] .

* **ونية التيمم** : نويت استباحة الصلاة . يقولها المتيمم عن الحدث الأصغر والأكبر .

* **وسنته** : التسمية عند بدء ضرب الأرض باليدين . والبدء بالوجه . ثم باليد اليمنى ثم باليسرى .

* **ويبطله** ما يبطل الوضوء من خروج شىء من السبيلين . ومن النوم العميق . ولمس الرجل المرأة الأجنبية بشهوة . وزوال العقل بسكر أو مرض . ومس الفرج قبلا كان أو دبرا دون ساتر . ووجود الماء إذا كان التيمم لعدم الماء ولم يدخل المتيمم الصلاة .

* **فائدة** : حرصا على صحة المسلم حرم الإسلام على الرجل الاتصال الجنسى بامرأته أثناء العادة الشهرية أو قبل انقطاع الدم فى الحيض أو النفاس فقال تعالى : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[3] .

---

(١) سورة المائدة آية ٦

(٢) رواه ابن ماجة عن أبى هريرة

(٣) سورة البقرة آية ٢٢٢

وروى أن رجلا جاء إلى النبى عليه الصلاة والسلام فقال له : يا رسول الله ما يحل لى من امرأتى وهى حائض ؟ فقال له الرسول المعلم «ما فوق الازار »[1] ، أى لك أن تتمتع بها فوق السرة فقط أما دون ذلك فأنت بحكم الشرع ممنوع منه حتى لا تقع فى الحرام .

وزيادة على هذا التوضيح الدينى فان الطب يؤكد أن المرأة أثناء عادتها الشهرية تكون فى حالة نفسية غير سوية . والرحم يكون معرضا للتلوث . والرجل إذا اتصل بها فى هذه الفترة قد يصاب بها فى الدم من جراثيم فلا تؤمن العاقبة وقد يسبب الاتصال العقم للمرأة . ولهذا كان القرآن دقيقا فى تعبيره . شاملا فى توجيهه . واضعا الكلمة فى مكانها المناسب ﴿ قل فهو أذى ﴾ والأذى يشمل ما عرف وما هو محتمل أن يعرف فيما بعد عن طريق علم التشريح ووظائف الأعضاء .

* حكم مرن :

تعفى الأم والمرضعة والمربية وكل من يتولى أمر الصبى بصفة مستمرة من غسل بول الصبى أو الصبية الذى يصيب ثيابهن . وكذلك من فى حكمهن كالجزار يصيبه الدم المسفوح والفلاح يصيبه بول أو روث الماشية التى يخالطها . وذلك لرفع الحرج عنهم . فانهم لو غسلوا ثيابهم لشق عليهم الأمر . وكل هذا يمكن أخذه من قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾[2] ومن قوله ﷺ : (إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم وما نهيتكم عنه فاجتنبه » والله أعلم .

★ ★ ★

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذى

(٢) سورة الحج آية ٧٨

الصـــلاة

قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (١) .

* مقـــدمة :

الصلاة فى عمومها : هى الدعاء والذكر . وفى خصوصها : أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير منتهية بالتسليم بشروط معينة .

ولقد ورد ذكر الصلاة ومشتقاتها فى القرآن الكريم (٩٨) مرة . وهى فى حقيقتها : صلة بين العبد وربه .

وفرضت ليلة الإسراء فى السنة الثانية قبل الهجرة . ولمكانتها بين العبادات كانت الفرض الوحيد الذى فرض فوق السموات تكريما لها وبيانا لمنزلتها .

* فرضيتهـا : فرضت الصلاة على أرجح الأقوال فى أول الأمر ركعتين ركعتين . ثم زيدت فى الحضر وظل عددها كما هو فى السفر . فالمقيم يصليها أربعا فى الرباعية والمسافر يصليها ركعتين . وذلك تخفيف من ربنا ورحمة قال تعالى :

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ (٢) .

وقالت السيدة عائشة رضى الله عنها : (فرضت الصلاة فى الحضر والسفر ركعتين ركعتين ، فلما قدم النبى ﷺ المدينة واطمأن زيد فى صلاة الحضر ركعتان وتركت صلاة الفجر لطول القراءة . وصلاة المغرب لأنها وتر النهار) (٣) .

---

(١) سورة البقرة آية ١٥٣

(٢) سورة النساء

(٣) رواه أحمد

* **فضل الصلاة** : للصلاة فضل عظيم فهى ـ مع كونها مناجاة لله تعالى ـ مصدر فضل الله على عباده ولذلك يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ (١) .

والصلاة تحط السيئات عن المسلم وترفع له الدرجات فى الجنة يقول ﷺ : (من حافظ عليها كانت له نورا وبرهانا ونجاة يوم القيامة . ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نورا ولا برهانا ولا نجاة ، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبى بن خلف) (٢) .

وفى حديث آخر يقول المعصوم عليه الصلاة السلام : (أرأيتم لو أن نهرا يمر بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شىء ؟ قالوا : لا يبقى من درنه شىء . قال : فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا) (٣) .

وزيادة على ذلك فإن الصلاة تهدىء النفس وتعين على تقبل البلاء لأنها تؤكد لصاحبها أن كل شىء من عند الله تعالى . ومن هنا يقول العلى القدير : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ وكان المصطفى ﷺ يقول لبلال : (أرحنا بالصلاة يا بلال) (٤) .

* **مكانة الصلاة بين أركان الاسلام** : للصلاة فى الإسلام كما عرفنا مكانة سامية فهى التى تفرق بين المسلم وغيره . وهى أول ما يحاسب عليه المرء يوم الدين .

---

(١) سورة فاطر آية ٢٩ ، ٣٠

(٢) رواه احمد والطبرانى وابن حبان

(٣) متفق عليه

(٤) رواه أبو داود

قال عليه الصلاة السلام : (إن أول ما افترض الله على الناس من دينهم الصلاة ، وآخر ، ما يبقى الصلاة ، وأول ما يحاسب به الصلاة . يقول الله تعالى : انظروا فى صلاة عبدى ، فإن كانت تامة كتبت تامة . وإن كانت ناقصة قال : انظروا هل لعبدى من تطوع ؟ فإن وجد له تطوع تمت الفريضة من التطوع) [1] .

ولذلك هدد الله تارك الصلاة فى قوله :

﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾ [2] .

وقال أبو الدرداء : أوصانى خليلى ﷺ : (لا تشرك بالله شيئا وإن قُطِّعت وإن حُرِّقت . ولا تترك صلاة ، مكتوبة فمن تركها متعمدا فقد برئت منه الذمة . ولا تشرب الخمر فإنه مفتاح كل شر) .

صلاة الجماعة : إن الصلاة فى المسجد لها ميزات لا تتوفر لمن يصلى فى البيت . فالله يصف المؤمنين بالمسارعة الى المسجد عند النداء :

﴿ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ۝٣٧ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ ﴾ [3] .

والرسول عليه الصلاة السلام يقول : (بشروا المشائين فى الظُّلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة) [4] . ويقول ابن مسعود رضى الله عنه : من سره أن يلقى الله مسلما ـ غدا ـ فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادى بهن . فإن الله شرع لنبيكم ﷺ سنن الهدى . وإنهن من سنن الهدى . ولو أنكم صليتم فى بيوتكم كما

---

(١) رواه ابو على

(٢) سورة مريم آية ٥٩

(٣) سورة النور آية ٣٧ ، ٣٨

(٤) رواه أبو داود والترمذى

يصلى هذا المتخلف فى بيته لتركتم سنة نبيكم . ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم . ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق . ولقد كان الرجل يؤتى به يهادى بين الرجلين حتى يقام فى الصف)[1] .

أنــواع الصـــلاة :

الصلاة نوعان : فرض وسنة . والفرض يشمل :

أ ـ الصلوات الخمس المكتوبة .

ب ـ صلاة الجنازة .

جـ ـ صلاة الجمعة عند كثير من العلماء .

د ـ الصلاة المنذورة .

والصلوات المسنونة تشمل :

(١) السنة التابعة للفرائض .

(٢) الوتر .

(٣) الضحى .

(٤) صلاة الليل .

(٥) القيام (التراويح) .

(٦) الاستسقاء (طلب الماء عند الجفاف) وذلك عندما تجف الآبار فى الصحراء .

(٧) صلاة خاصة بكسوف الشمس وخسوف القمر وهى كما وصفها جابر بن عبدالله قال : (كسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ فصلى بأصحابه فأطال القيام حتى جعلوا يخرون ، ثم ركع فأطال ثم رفع فأطال ثم ركع فأطال . ثم سجد سجدتين . ثم قام فصنع نحوا من ذلك . فكانت أربع ركعات وأربع سجدات فى ركعتين)[2] .

(٨) صلاة الاستخارة يوضحها كذلك جابر بن عبدالله فيقول : (كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة فى الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن . يقول : « إذا

---

(١) رواه مسلم

(٢) رواه البخارى ومسلم

هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل : اللهم إنى أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب . اللهم ان كنت تعلم أن هذا الأمر خير لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى . ـ أو قال عاجل أمرى وآجله ـ فاقدره لى ويسره لى ثم بارك لى فيه . وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى ـ أو قال عاجل أمرى وآجله ـ فاصرفه ، عنى واقدر لى الخير حيث كان ، ورضنى به قال : ويسمى حاجته »)[1] .

★ ★ ★

(١) رواه البخارى عن جابر

أنواع من الصلاة مرفوع فيها الحرج عن المسلمين

هناك صلوات لها طابع خاص متميز باليسر وعدم المشقة منها .

* أ ـ صلاة السفر :

وهى أن يؤدى المسافر الصلاة الرباعية ـ كالظهر والعصر والعشاء ـ ركعتين اثنتين يؤكد ذلك قول الحق جل وعلا ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾[1] وما يرويه ابن عمر فى قوله ؛ صحبت النبى ﷺ وكان لا يزيد فى السفر عن ركعتين . وأبا بكر وعثمان كذلك . ما عدا صلاة المغرب فإنها تؤدى ثلاثا فى السفر والحضر كما تقدم لأنها وتر النهار . وتصلى الصبح ركعتان كما هى .

ومن التخفيف كذلك على المسافر أنه أبيح له الجمع بين الظهر والعصر على حدة . وبين المغرب والعشاء على حدة .

فعن معاذ رضى الله عنه : (أن النبى ﷺ كان فى غزوة تبوك إذا زاغت الشمس ـ مالت عن كبد السماء ـ قبل أن يرتحل جمع بين الظهر والعصر ـ تقديما ـ وإذا ارتحل قبل أن تزيغ الشمس أخر الظهر حتى ينزل للعصر . وفى المغرب مثل ذلك بمعنى إن غابت الشمس قبل أن يرتحل جمع بين المغرب والعشاء تقديما . وان ارتحل قبل أن تغيب الشمس أخر المغرب حتى ينزل للعشاء ثم نزل فجمع بينهما)[2] .

* ب ـ صلاة المريض :

أباح الإسلام لغير القادر على الصلاة من قيام أن يؤديها وهو جالس أو مستلق على ظهره أو مضطجع على جنبه . فالله سبحانه رؤف بعباده لا يكلفهم ما يشق عليهم ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ ولقد روى أن عمران بن حصين كانت به بواسير

---

(١) سورة النساء آية ١٠٢

(٢) رواه أبو داود والترمذى

فسأل النبى ﷺ عن الكيفية التى يؤدى بها الصلاة فقال له الرسول المرشد : « صل قائما فإن لم تستطع فقاعدا ، فإن لم تستطع فعلى جنب »[1] . زاد النسائى : « فإن لم تستطع فمستلقيا لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » .

ومن هنا ندرك أن الذى لا يستطيع أن يفعل شيئا من ذلك . كالمربوط أو الموضوع فى جبيرة جبس أو المشلول ـ له أن يصلى بالإيماء بمعنى أن يخفض رأسه عند الركوع . ثم يخفضها أكثر عند السجود . ودين الله يسر لا عسر .

* جـ صلاة الحرب :

هى الصلاة المسماة فى الشرع بصلاة الخوف . وهى تختلف عن غيرها من حيث الأداء فيباح فى صلاة الحرب ما لا يباح فى غيرها وقت السلم من الأعمال كالحركة الشديدة والسير المتتابع والانتقال من مكان لآخر . ولقد ورد أنه فى إحدى الغزوات صلى النبى ﷺ بجماعة من المحاربين ركعة واحدة . ثم قام للثانية وأطال القراءة . وفارقته هذه الجماعة فأتمت لنفسها الركعة الثانية ثم سلمت وانصرفت لمواجهة العدو . وجاءت جماعة أخرى كانت مرابطة أمام العدو فأدركت الرسول واقفا فصلى بهم ركعة وجلس للتشهد وقامت الجماعة فأدت الركعة الثانية وانتظرها الرسول ثم سلم وسلموا معه . فأدركت الجماعة الأولى فضيلة التكبير وركعة مع الرسول . وأدركت الجماعة الثانية ركعة وفضيلة التسليم معه عليه الصلاة والسلام . هذا إذا كانت الأمور مستتبة وليس هناك اشتباك مع العدو . أما إذا كان هنا اشتباك والتحام بالعدو فالصلاة تكون بالإيماء سواء أثناء الركوب أو السير على الأقدام ولذلك يقول الله تعالى : ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾[2] .

وهكذا نجد الإسلام مع تشدده فى ضرورة إقامة الصلاة وإعطائها حقها من الركوع والسجود والخشوع فإنه لم يحرج أبناءه ولم يكلفهم مالا يطيقون . وقد اكتفينا

---

(١) رواه الجماعة إلا مسلما

(٢) سورة البقرة آية ٢٣٨ ، ٢٣٩

بالآية التى معنا إشارة الى فضل الصلاة ولطف الله بعباده فيها .

والموضوع برمته موضح فى كتب الفقه المتخصصة والله أعلم .

★ ★ ★

الصـــوم

قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١) .

* مقـــدمـة :

بدأ الله سبحانه وتعالى هذه الآية بالنداء العظيم الذى يشعر المؤمنين بأنهم محل تقدير وتكريم وبأنهم أصحاب منزلة بعيدة عن غيرهم . هذا النداء الذى هو لمحة نورانية تشد المؤمنين الى ساحات قدسية لتصفو أرواحهم ولتكون محلا لتقبل الأوامر الربانية المكرمة التى تهون معها المشقات ويذلل الصعب من الأعمال طالما أن الأمر صادر عن الرحمن الرحيم .

والآية فى فرض عقيدة الصوم سلكت مسلكا رائعا من مسالك التربية الرشيدة للنفوس الجياشة بحب الخير . فدفعتها دفعا الى تنفيذ ذلك الأمر . وهى فى الوقت نفسه تستثير مشاعر المؤمنين من أمة محمد ﷺ إلى أنهم ليسوا أقل من غيرهم من الأمم السابقة الذين فرضت عليهم فريضة الصوم . بل إن أمة ذلك الرسول الخاتم عليه الصلاة والسلام ترى أنها أقدر من غيرها وأشد صلابة وأسرع استجابة لأوامر الله تعالى ، كيف لا ؟ وقد ناداها ربها بقوله : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ (٢) .

من هنا نرى مسارعة الأمة إلى تنفيذ ذلك الأمر ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ وتُخْتَمُ الآية بهذا الأمل المنشود من أداء الصوم وهو تقريب

---

(١) سورة البقرة آية ١٨٣

(٢) سورة آل عمرا آية ١١٠

المؤمنين من ربهم وتقوية الخشية لديهم . وتنمية مراقبتهم لله الذى ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [1] . وتخوفهم من عقاب الله ﴿ لعلكم تتقون ـ وتلك الجملة من الآية بمثابة حافز قوى قدم الى المؤمنين لأن العمل المطلوب فيه مشقة على النفس بحرمانها من غرائزها المركبة فيها ولا شك أن الحافز له أثره فى إنجاز أى عمل .

ولذا راعى الله سبحانه الخبير بالنفوس البشرية تطلعها إلى مقابل لما تقوم به . فجعل التقوى حافزا مأمول التحقق لكل من أدى هذه العبادة .

بل تكفل سبحانه بإيصال الجزاء للصائمين على قدر إخلاصهم فى أداء الفريضة (كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به ـ يدع طعامه وشرابه من أجلى) [2] . والرسول ﷺ يميط اللثام عن تكريم آخر يحظى به الصائم يوم القيامة يتمثل فى شفاعة الصوم له يقول ﷺ : « الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة . يقول الصيام أى ربى منعته الطعام والشهوة فشفعنى فيه . ويقول القرآن : منعته النوم بالليل فشفعنى فيه ، قال : فيشفعان » .

والصوم فى الإسلام ليس تعذيبا للجسسد كما هو الحال فى بعض الديانات . ولكنه تربية روحية بدنية تصفى النفس من علائق الدنيا وتربطها بالله القدير حتى تغمرها النفحات الربانية يقول جابر رضى الله عنه : (إذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك عن الكذب والمآثم ودع أذى الجار وليكن عليك وقار وسكينة يوم صيامك . ولا تجعل يوم فطرك ويوم صومك سواء) .

ولعل هذا القول يدنينا من وصية رسول الله ﷺ التى يحذرنا فيها من إضاعة الثوابِ بالحديث اللاهى فى أعراض الناس . أو العمل الآثم بأكل أموالهم بالباطل

---

(١) سورة الأنعام آية ١٠٣

(٢) حديث قدسى رواه البخارى

« رب صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش . ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر »[1] .

وذلك لأن يوم الصائم كله ذِكْر وتدبر . وبُعْد عن اللغو والعبث . ولقد أعجبتنى تلك اللمحة التى وردت عن الحسن البصرى (فقد مر فى رمضان بقوم يلهون ويضحكون فقال : إن الله عز وجل جعل شهر رمضان مضمارا لخلقة يستبقون فيه لطاعته فسبق قوم ففازوا وتخلف أقوام فخابوا . فالعجب كل العجب للضاحك اللاعب فى اليوم الذى فاز فيه السابقون وخاب فيه المبطلون . أما والله لو كُشفَ الغطاء لاشتغل المحسن بإحسانه والمسىءَ بإساءته) .

ونحن ندرك أن الصوم العادى هو الإمساك عن شهوتى البطن والفرج من طلوع الفجر إلى ما بعد غروب الشمس بقليل . والسادة الصوفية لهم تعريف جميل للصوم ولأنواع الصائمين كما يلى :

أ ـ **صوم العموم** : هو الإمساك عن الطعام والشراب والشهوة .

ب ـ **صوم الخصوص** : وهو يشمل النوع السابق ويزيد عليه الإمساك عن الغيبة والنميمة عن كل فعل قبيح لا يليق بالصائم المثالى .

جـ ـ **صوم خصوص الخصوص** : وهو يشمل النوعين السابقين ويزيد عليهما الإمساك عن التفكير فيما عدا الله سبحانه . ويعبر عنه الإمام الغزالى بقوله : صرف القلب عن الأفكار الدنية وشغله بالله بالكلية .

ولا ننسى أن الصوم يوحد مشاعر الأمة الإسلامية ويوائم بينها فكرا وشعورا وهدفا وتجميعا . والأمة التى تريد أن ترهب عدوها وترده خاسرا عن أرضها تحتاج إلى كل ما يُحْدثُه الصوم من آثار جليلة فى النفوس حتى تتزود به فى طريقها إلى التحرر السياسى والاقتصادى والفكرى .

---

(١) رواه ابن ماجة

* أنــواع الصــيام :

الصيام فى الإسلام أنواع هى :

١ - صوم الفرض وهو صوم رمضـــان .

٢ - صوم النذر وهو الذى يُلزم الإنسان به نفسه أمام الله عز وجل كقوله : (على لله نذر أن أصوم كذا يوما تقربا إليه سبحانه) . فهذا النذر يجعل العبادة فى قوة الفرض لأن الله تعالى يقول آمرا بالوفاء بالنذر ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ [1] .

٣ - صوم القضاء : هو الذى يؤديه الإنسان بدلا من أيام أفطرها فى شهر رمضان لعذر المرض أو السفر . أو لعذر العادة الشهرية (الحيض) أو الولادة عند النساء .

٤ - صوم الكفارات : وهو الذى يلزم من حنث فى يمين حلفها . والكفارات هى :

أ - كفارة الظهار . وهى التى تنتج عن تحريم الرجل زوجته على نفسه بقوله لها : (أنت محرمة على كأمى) أو بتعبير الفقهاء (أنت على كظهر أمى) . ولقد أشار الله سبحانه إلى ذلك فى سورة المجادلة واعتبره لغوا من القول وزورا . وجعل له كفارة . أعلاها العتق . فإن لم يجد فإطعام ستين مسكينا . فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين .

ب - كفارة الحنث فى يمين بالله تعالى أو بصفة من صفاته . وتبدأ باطعام عشرة مساكين ، أو كسوتهم ، أو تحرير رقبة على التخيير بينهما بالعتق فإن لم يجد فإطعام عشرة مساكين . فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام .

٥ - صوم الجزاء لمن فعل محظورا فى الإحرام كمن قتل صيدا أثناء إحرامه ولم يجد شبيها للحيوان . أو لم تكن معه قيمة ذلك الحيوان فإنه يصوم عن كل مسكين كان سيأكل من الحيوان يوما وهذا يوضحه قوله تعالى :

---

(١) سورة الحج آية ٢٩

﴿ فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ﴾ (١).

٦ ـ صوم التطوع بأنواعه الذى يتمثل فى صوم يوم عاشوراء ويوم عرفة لغير الحاج . ويوم الاثنين ويوم الخميس وثلاثة أيام من كل شهر . . . . الخ .

* على من يجب الصـــوم ؟

يجب الصـوم على المسلم البالغ العاقل القادر المقيم الخالى من الموانع الشرعية كالحيض والنفـاس . ومن هنـا ندرك أن الكافر لا يؤمر بصيامنا . وأن الصبى غير مكلف بالصوم وإن صح منه . ورغب الشرع فى أمره به قبل البلوغ ليشب محبا للعبادة راغبـا فيهـا . فعن الرُّبيِّع بنت معوذ قالت : (كنا نَصُوم ونُصَوِّم صبياننا الصغار . ونذهب إلى المسجد فنجعل لهم اللعبة من العهن « الصوف » فإذا بكى أحدهم من الجوع أعطيناه إياها حتى يكون عند الإفطار) .

كما نرى الشرع وقـد خفف عن غير القـادرين كالمـرضى وكبـار السن الـذين لا تساعدهم الصحة على أداء الصوم . فأما المرضى فإن كان مرضهم يرجى شفاؤه فعليهم القضـاء عنـد شفائهم ولا فدية عليهم . أما إذا كان المرض لا يرجى شفاء المريض منه فإن هذا المريض لا صوم عليه ولا قضاء . وإنما عليه إطعام مسكين عن كل يوم . ومثله تماما المسنَّون من الرجال والنساء وغير القادرين على الصوم . حيث يُلزِمُهم الشرع بإطعام مسكين واحد عن كل يوم ولا صوم عليهم .

وليس هناك ما يمنع من إلحاق غير هؤلاء بهم فى الحكم كالعمال الذين يجهدهم الصـوم ولا يجدون فرصـة لقضـائـه أمثال عمال المناجم والواقفين على أفران الحديد والصلب والخبازين فهؤلاء جميعا إذا لم يتمكنوا من القضاء فى إجازاتهم فعليهم الفدية فقط يقول الإمام محمد عبده المراد بقوله تعالى : ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ

---

(١) سورة المائدة آية ٩٥

مِسْكِينٍ ﴾ [1] . الشيوخ والضعفاء والزمنى (المرضى بأمراض خبيثة) ونحوهم كالفَعَلة الـذين جعل الله معاشهم الدائم بالأشغال الشاقة كاستخراج الفحم الحجرى من مناجمه . وألحق البعض من العلماء بهؤلاء : المجرمين المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة إذا شق عليهم الصيام بالفعل .

* المرخص لهم فى الإفطـار :

هناك أصحاب أعذار رخص الله لهم فى الإفطار لمشقة الصوم عليهم .

١ ـ المسافر الذى يجهده الصوم فى سفره ولقد ورد فى ذلك قول الحق جل وعز ﴿ وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ والمريض تقدم حكمه .

بقى معنا المسافر . وعن رسول الله ﷺ : «إن الله وضع عن المسافر الصوم وشطر الصلاة » يعنى قصر الصلاة الرباعية . وعلى المسافر الذى أفطر بسبب السفر القضاء فقط ولا فدية عليه ولا تغنى الفدية عن القضاء مادام قادرا .

٢ ـ الحبلى والمرضع : لأن الحمل والإرضاع يحتاجان الى الغذاء الكامل والدائم محافظة على صحة الحامل وعلى صحة الأم المرضع والرضيع كذلك . ومن هنا نلمس شفقة الشرع بالإنسان والرسول عليه الصلاة والسلام يقول فى تتمة الحديث السابق : « . . . وعن الحبـلى والمرضع الصوم » والذى يراعى حالة الحامل فى شهورها الأولى يجدهـا غير مستقـرة صحيا . فهى تصاب بدوار الرأس وميل إلى النوم وإلى القىء وفقدان الشهية . ولذا خفف الله عنها . وعند انتهاء فترة الحمل والإرضاع . على كل منهما القضاء فقط ولا فدية عليهما .

وان كان بعض أئمة المذاهب يرون أنها لو أفطرت خوفا على نفسها فقط لا فدية عليها . وأما إذا افطرت خوفا على جنينها أو رضيعها فعليها القضاء والكفارة . ولكن ترجيح وجهة الأحناف وعلى عدم الفدية أولى تمشيا مع روح الإسلام فى التسامح والرفق .

---

(١) سورة البقرة آية ١٨٤

والله سبحانه يرضى من عباده بما يقدرون عليه . والرسول ﷺ يقول : « إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه » وإذا صام المريض أو المسافر صح صومهما .

* حكـــم هـــام :

يحرم على الحائض أو النفساء الصوم إذا أدركهما العذر فى نهار رمضان . ولا يصح منهما الصوم لأنهما ليستا أهلا لأداء هذه العبادة لوجود المانع الشرعى وهو نزول الدم الذى يسبب لهما ضعفا عاما وإجهادا مستمرا طيلة وجوده . ومن الحكمة السامية أنه لا يجتمع مؤثران على أثر واحد وهذه رحمة من الله . وليس عليها سوى القضاء فعن السيدة (عائشة) رضى الله عنها : (كنا نحيض على عهد رسول الله ﷺ فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة)

*مبطـــلات الصـــوم :

يبـطل الصـوم بكل ما وصل إلى الجوف عمدا من طعام أو شراب أو دواء من الطريق المعتاد وهو الفم أو الأنف على أصح الأقوال . أما العلاج بالحقن على اختلاف أنواعها فلا يفطر سواء كانت فى العضل أو تحت الجلد أو الوريد . أما الحقنة الشرجية ففيها خلاف والأولى تركها . وإذا كان الله سبحانه قد خفف على المريض فلماذا يلجأ إلى ما فيه خلاف .

والإنسـان إذا أحس بالمـرض وأنـه محتـاج إلى استعمال الحقنة الشرجية فليفطر ولا حرج عليه ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [1] . ولأن الحقنة الشرجية غالبا ما تستعمل فى حالات عسر الهضم الشديد الذى يسبب الصداع أو عند تهيج الأغشية المعوية وهذه كلها باعتراف الطب أمراض .

---

(١) سورة الحج آية ٧٨

* تتمـــــة

بعد هذا العرض السريع لأحكام الصوم أحب أن أنبه إلى أن هناك أياما يحرم صيامها وأخرى يكره فيها الصيام .

الأيام التى يحرم صيامها :

هى العيدان ـ الفـطر والأضحى ـ . وأيام التشريق الثلاثة وهى التى تلى عيد الأضحى ١١ ، ١٢ ، ١٣ من ذى الحجة وقد وردت نصوص صريحة تحرم صوم هذه الأيام ، فعن أبى هريرة أن رسـول الله ﷺ بعث عبدالله بن حذافة يطوف فى منى ويقول للناس (أن لا تصوموا هذه الأيام فإنها أيام أكل وشرب وذكر الله عز وجل) .

والأيام التى يكره الصوم فيها :

على رأسها يوم الشك الذى لا يعرف هل هو متمم لشهر شعبان أو هو أول يوم فى رمضان . والرسول عليه الصلاة والسلام يقول : « لا تقدموا رمضان بيوم ولا يومين إلا أن يكون صوم يصومه رجل فليصم ذلك اليوم »[1] ويقول عامر بن ياسر : (من صام اليوم الذى شكَّ فيه فقد عصى أبا القاسم ﷺ) .

وأيام أخـرى لا يجوز صومهـا منفردة كيوم الجمعة لقوله ﷺ : «إن يوم الجمعة عيدكم فلا تصـومـوه إلا أن تصوموا قبله أو بعده » وكذلك يوم السبت ويوم الأحد خروجا عن التشبه باليهود والنصارى فى تعظيم هذين اليومين .

وكذلك لا يصح من المرأة أن تصوم تطوعا وزوجها حاضر إلا بإذنه . فإن أذن لها أثيبت وإلا فلا ثواب لها . ومن أراد الاستزادة فليرجع إلى كتب الفقه .

---

(١) متفق عليه

القصـــاص

قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١) .

من هذه الآية نستشف أن القصاص واجب وذلك لئلا تشيع الفوضى ويستشرى العبث بالأرواح والدماء . فالقاتل لو تأكد لديه أنه سيقتل إن اعتدى بالقتل على غيره . والجانى لو عرف أنه إن جرح غيره اقتص منه بجرح مماثل . لارتدع القتلة والجناة ولحافظوا على أرواحهم وأجسامهم وعلى أرواح وأجسام غيرهم .

ولقد كان القصاص معروفا من قديم الزمان ، لأن الجماعات البشرية بدونه تتحول إلى غابة يعيث فيها الأقوياء فسادا ويكون السلطان فيها للناب والظفر . وتضيع فيها أرواح بريئة وتهدر دماء ذكية دون جرم جنته أو جناية ارتكبتها .

والصراع قديم بين الحق والباطل . فكان لا بد للضعيف من قانون يحميه ولا بد للقوى من عقوبة تردعه . ولقد بين الله سبحانه ـ بعد قصة « ابنى آدم » حينما قتل أحدهما أخاه لهدف دنيوى تافه ـ أن من قتل نفسا بريئة فكأنما اعتدى على البشر كلهم ومن أحيا نفسا فكأنما وهب الحياة للبشرية كلها .

---

(١) سورة البقرة آية ١٧٨، ١٧٩

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ (١) .

كما ورد أن الله العزيز كتب على بنى إسرائيل فى التوراة : أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص . والذى يتلو سفر الخروج يجد تلك العبارة (من ضرب إنسانا فمات فيقتل) وفى سفر العدد (إن القاتل يقتل وإن ضربه بحجر مما يقتل به فهو قاتل) .

كما أن الإنجيل ـ مع دعوته إلى العفو ـ يقر شريعة القصاص . وعيسى عليه السلام يقول : ﴿ ومصدقا لما بين يدى من التوراة ﴾ ولكن العفو الذى دعت اليه المسيحية جعل بعض الناس يحسبون أنها لا تقر القصاص . ويتمسكون برأيهم استناد إلى قول المسيح عليه السلام : (سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن . وأما أنا فأقول لكم : لا تقاوموا الشر بالشر . بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا) .

وأرى أن هذه وصايا بالعفو العام وليست قاعدة . ولا تعتبر قانونا لأن عيسى عليه السلام لا يعقل أبدا أن يرى إنسانا يقتل وهو برىء ثم يعفو عن القاتل .

وحتى لو فرض أنه عليه السلام جعل العفو شريعته فلقد كان له فى ذلك اتجاه رشيد هو أن يجد من مغالاة اليهود فى الانتقام . لأن جرائمهم مع غيرهم بلغت حدا كبيرا حيث كانوا يطبقون القصاص بعجرفة ـ الأمر الذى استحر فيه القتل حتى مع القاتل المخطىء .

أما الشريعة الإسلامية فقد اتخذت جانب القصاص فى القتل العمد ، وجعلت لولى الدم أن يعفو ـ إن أراد ـ عن القاتل أو يأخذ الدية . أو يقتص فهو بالخيار بين الثلاثة ، وأوجبت على من له الحق فى الثأر أن يلتزم بهذه الحدود . وأن يبتعد عن الغلو . ولذلك يقول عليه الصلاة والسلام : « من أصيب بقتل أو خَبْل ـ الخَبْل

---

(١) سورة المائدة آية ٣٢

العَرَجُ ـ فهو بالخيار بين إحدى ثلاث فإن أراد الرابعة فخذوا على يديه بين أن يقتص أو يعفو أو يأخذ العقل . فإن قبل شيئا من ذلك ثم عدا بعد ذلك فله النار خالدا مخلدا »[1] .

ثم إن القصاص لا يكون إلا فى القتل العمد . أما الخطأ فلا قصاص فيه . وإنما فيه الدية تخفيفا على الناس وربطا بينهم برباط العفو والسماح .

والقانون الوضعى متفق مع القانون السماوى فى ذلك . ولذا نجده يعاقب على القتل العمد مع سبق الإصرار والترصد بعقوبة الإعدام . وتنص المواد ٢٣١ ، ٢٣٤ من القانون الخاص بالعقوبات على أن القاتل يستحق القتل بسبب الإصرار والترصد والقتل بالسم . أو الاقتران بخيانة كسرقة أو هتك عِرْضٍ أو غيرها . أما إذا نقص ركن من أركان الجريمة فان القاضى يلجأ إلى عقوبة أخرى غير الإعدام .

وأما القتل شبه العمد أو الخطأ ـ كما هو موضح فيما سبق ـ فلا قتل فيها . بل فيهما الدية إن لم يعف ولى الدم . وكذلك يمكن الحكم فيها بالسجن المؤبد أو المؤقت مع الأشغال أو بدونها . ولكل جريمة ظروف مخففة قد يلجأ القاضى إليها إذا توفرت وبذلك ينتقل إلى عقوبة غير المنصوص عليها أمام الجريمة .

وكما أن الشرع يجيز بل يوجب القصاص فى القتل العمد فإنه كذلك يأمر بالقتل فى حالتين أخريين . **الأولى** : الزانى والزانية اللذين سبق لهما الزواج ويعرفان بالثيبين فإن الشرع يأمر بقتلهما عند اعترافهما أو شهادة أربعة شهود عليهما . وقتلهما يكون بطريقة الرجم بالأحجار حتى الموت .

الثانية : المرتد عن الإسلام بعد الدخول فيه . والرسول ﷺ يقول مبينا الجرائم التى يجب معاقبة فاعلها بالقتل بقوله : «لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث . النفس بالنفس . والثيب الزانى والتارك لدينه المفارق للجماعة » .

---

(١) رواه أحمد بنحوه

* نوعـيات القصـاص :

إن الآية توضـح النـوعيات التى يستلزم القصاص منها : ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾[1] وهى بذلك تقطع الطريق على المتنطعين الذين كانوا يقتلون بعبـدهم حرا وبـأنثاهم ذكرا . وبوضيعهم شريفا . بل بلغت بهم المغالاة إلى قتل الجماعة بالواحد وكان هذا متفشيا فى الجاهلية .

ولقد رأى بعض العلماء أنه لا فرق بين الرجل والمرأة فى القصاص لأن المقصود هو النفس وليس نوع الذكورة أو الأنوثة . واستدل لرأيه بقوله . ﴿ وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ﴾ والقـانون الوضعى فى جانب هذا الرأى إذا ترجحت لديه الأدلة واكتملت أركـان الجريمة . فهو يأمر بقتل الرجل بالمرأة والعكس بصرف النظر عن المكانة الاجتماعية لأى منهما فالروح هى الروح ولا علاقة لإرهاقها بما عليه الجسم من حال الغنى أو الفقر أو اللون .

* مسئولية القصاص :

الواقع أن الشرع جعل مسئولية القصاص فى يد الحاكم أو من ينوب عنه . ولم يجعلها لولى الدم مباشرة حتى لا يصير الأمر فوضى فيقتل بالشبهة دون تحقق . ولئلا يدعى أناس دماء آخرين بالبهتان والزور .

والآية أخـيرا تتحدث عن التسامح والتعامل الطيب اللذين يجب وجودهما بين المسلمين فإذا عفى ولى الدم عن القصاص دون المطالبة بالدية كان على ولى القاتل أن يبادر بإعطائها له . وأن يتجنب المماطلة . تهدئة للنفوس وتطيبا للخواطر الثائرة .

﴿ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ﴾[2] .

---

(١) سرورة البقرة آية ١٧٨

(٢) سورة البقرة آية ١٧٨

وفى هذا تخفيف ورحمة من الله بعباده حيث جعل أمة محمد مخيرة بين واحدة من الثلاث المبينة آنفا بينما كان القتل ضروريا فى شريعة موسى عليه السلام .

فليت المسلمين يتمسكون بما فى دينهم من تعاليم لتغمر المحبة قلوبهم ويغشى الحنان مجتمعاتهم ويحافظون على الأرواح .

*** تتمـــــة :**

إذا كان القتل العمد يستدعى القصاص . وإذا كان القتل شبه العمد أو الخطأ لا قصاص فيهما فان الجروح هى الأخرى تحتاج إلى قصاص . فالعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن . والجُرح بالجرح والكسر بالكسر . ولطريقة القصاص فى هذه الأشياء شروط يرجع إليها فى كتب الفقه قسم الحدود . والله أعلم .

★ ★ ★

تحـريم الخـمر والميسـر

قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ (١) .

الخمر هو كل ما خامر العقل ومنعه من التفكير السليم . ولقد أطلق على الخمر (كل مسكر أو مفتر) سواء كان متخذا من عصير العنب أو التمر أو العسل أو نقيع الشعير أو القمح أو غير ذلك . والحق أن الإسلام حينما قصد إلى تحريم الخمر لم يكن هدفه التضييق على الناس أو منعهم من تحقيق رغائبهم أو الحجْر على تصرفاتهم . وإنما كان مقصده الأسمى المحافظة عليهم صحيا واجتماعيا ونفسيا ولو أحصينا مرضى العقول فى المصحات لوجدنا السبب معظمهم ضحايا للمخدرات . ولو احصينا جرائم السرقات أو حالات الإفلاس لوجدنا السبب الأقوى فيها ناتجا عن الاتجار فى المخدرات . أو محاولة تحصيل المال وجمعه بطريق غير مشروع لإنفاقه فى هذا الباب السيء . بل لو أحصينا حالات الطلاق وتمزيق الأسر لوضعنا ايدينا على الأسباب المباشرة فيها . والتى لا تذهب بعيدا عن هذا الميدان الرهيب تحقيقا لنزوات الجسد ورغباته .

ثم إن الشرع الحكيم لم يعمد أبدا إلى تحريم شيء فيه منفعة للناس . فإذا وجد مطعوم أو مشروب فإن لم يكن فيه ضرر فسنجد الشرع قد أباحه . وأن كان فيه ضرر

---

(١) سورة المائدة آية ٩٠، ٩١

فإما أن يكون الضرر كبيرا أو صغيرا . فإن كان كبيرا حرمه حتى ولو كان فيه منفعة قليلة تغليبا للمصلحة العامة . وأما إذا كان الضرر صغيرا فإن الشرع يبيح تناوله أو تركه وإن كان الترك أولى والله سبحانه يبين لعباده الحلال والحرام : .

﴿ يأيها الرسل كلوا من الطيبات ﴾ ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾[1] ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾[2] .

ومن هنا فعندما جاء بعض الناس يسألون عن الخمر والميسر كان الرد موضحا الحكم :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ ﴾ .

فالجواب واضح أن المنفعة تافهة بجوار الإثم الشديد . والمنفعة المراد الاستفسار عنها هى . إنهم كانوا يتجرون فى الخمر ويجمعون المال من الميسر وذلك قبل أن يبدأ الإسلام فى تهيئة الأذهان لحكم الخمر ـ والإثم الذى فيها هو ما ينتج عن تعاطيها من أضرار جسيمة . وعن شرائها من بعثرة للمال وتجويع للأسرة .

* التدرج فى تحريم الخمر :

لقد كان المسلمون الأولون يشربون الخمر قبل تحريمها . فكان بعضهم يشربها ثم يحين وقت الصلاة وهو مخمور فيدخل الصلاة فيخلط ولا يميز ما يقرأ . فكان أول ما أنزل بخصوص الخمر قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾[3] .

---

(١) سورة الأعراف آية ٣٢

(٢) سورة الأعراف آية ١٥٧

(٣) سورة النساء آية ٤٣

فتهيأت الأذهان لذلك . وكان معظم المدمنين عليها يحاولون شرب القليل الذى لا يسكرهم بين أوقات الصلاة . بحيث يكون الشارب متيقظا عند الصلاة عالما بما يقرأ . ثم نزلت آية البقرة السابقة ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ فبين الله فيها ان فى الخمر منفعة تافهة . وان هذه المنفعة المذكورة محصورة بين إثمين كبير وأكبر فأدركوا أن تركها أفضل .

وعندما تفاقم شر الخمر وكادت تمزق وحدة المسلمين عندما يكثرون الشراب وتلعب بعقولهم فيتذاكرون إحَناً كانت بينهم . ويهيء لهم الشيطان الشر أمامهم ويحسنه فى أعينهم ويحضهم على التكاسل فى أداء الصلاة ـ نزل قوله تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ .

وظهر الحق لكل ذى لُبّ . وعرف المسلمون الحكم النهائى للخمر فاستجابوا لأمر الله واجتنبوا تعاطى المسكرات وأراقوها فى أودية المدينة ولم يعد يخامرهم شك فى تحريمها لأن الآية أوضحت أن :

١ ـ الخمر رجس .
٢ ـ هى من عمل الشيطان .
٣ ـ ضرورة اجتنابها .
٤ ـ رجاء الفلاح لمن تركها .

مجادلات بالباطل :

يحلو لبعض المتنطعين الذين لا يعرفون عن الدين شيئا ويحاولون مجادلة غيرهم ممن ينهون عن هذا المنكر . يحلو لهم أن يقول قائلهم : إن الله لم يحرم الخمر بلفظ التحريم . فلم يقل حرمت عليكم الخمر كما قال : ﴿ حرمت عليكم الميتة ﴾ . ولكنه قال : ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ والرد على هؤلاء يأتى من جهة أنهم جهلة بأساليب الأمر أو النهى فى اللغة العربية . فكلمة اجتنب هذا الشيء تساوى تماما كلمات : (لا تفعله . لا تَقْرَبْه . إياك أن تفعله . هو محظور عليك . ابتعد عنه) .

كما أنهم لو أمعنوا النظر فى أوامر القرآن ونواهيه لوجدوا من أساليب بلاغته أنه لم يستعمل لفظا واحدا فى النهى عن المحرمات فهو يقول فى النهى عن الزنا ﴿ وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَا ﴾ [1] . وفى النهى عن القتل ﴿ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ التِّي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾ [2] . ويغير الأسلوب فى نفس الموضوع فيتحدث عنه بطريق الإخبار عن جزاء القاتل المتعمد : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ ﴾ [3] .

وأخيرا لو عرفوا أن لفظ الاجتناب أقوى من أى نهى آخر لما تحذلقوا بالباطل ولما ساروا وراء شياطينهم من الإنس والجن الذين يوجهونهم إلى السوء المحض ويوحون إليهم بالمجادلة .

ونظن أنه ليس هناك شىء أكبر من الشرك بالله وعبادة الأوثان . ومع ذلك فإن الله نهى عن عبادة الأوثان بلفظ الاجتناب كما نهى عن الخمر فقال تعالى : ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ [4]. ففى الآية جمع كبيرتين من الكبائر عبادة الأوثان وقول الزور . ونهى عنهما بلفظ (اجتنبوا) فالنهى عن الخمر إذن بلفظ الاجتناب قوى كل القوة .

فعلى هؤلاء المتشككين أن يثوبوا إلى رشدهم وأن يتفقدوا الأخطار التى تهددهم والتى أوضحت الآية بعضها فيما يلى :

١ ـ العداوة . ٢ ـ البغضاء .

٣ ـ الصد عن الصلاة . ٤ ـ الإبعاد عن ذكر الله .

٥ ـ كون ذلك من عمل الشيطان وإرادته . وهذا يكفى لأن الشيطان عدو للإنسان .

---

(١) سورة الإسراء آية ٣٢

(٢) سورة الأنعام آية ١٥١

(٣) سورة النساء آية ٩٣

(٤) سورة الحج آية ٣٠

وأخيرا يصدر الأمر بالانتهاء عنها . ويكفى أن تقرن الخمر بأشياء لا تليق بمؤمن أبدا . الميسر . وعبادة الأصنام . والتشاتم : .

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ (١).

وناهيكم عن تمزيق الصلات بين المؤمنين . والعدوان على الروابط الاجتماعية بينهم وإصابة الإنسان بالتبلد عن أداء العبادات وعن الذكر الذى يقرب العبد من ربه . ثم تطلب الآية بأسمى عبارة وأبلغها الانتهاء عن شرب الخمر والاتجار فيها ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ فأى علة لهؤلاء الحمقى فى عدم تحريمها باللفظ ؟ وأى رد أبلغ من رد القران ؟ ليتهم يعقلون .

* التداوى بالخمر :

إنها علة أخرى ووهم باطل يلجأ إليهما مرضى القلوب والمبتلون بهذا الوباء والرد عليهم ميسور فعليهم أن يقرأوا من كتاب الله الآية التالية (وإثمهما أكبر من نفعهما) ومن السنة قول الرسول ﷺ لرجل سأله عن الخمر فنهاه عنها فقال الرجل : إنما أصنعها للدواء فقال ﷺ « إنه ليس بدواء ولكنه داء » (٢) .

ومن قول الصحابة ما قاله عبدالله بن مسعود (إن الله لم يجعل (شفاءكم) فيما حرم عليكم) ومن هنا أغلق الإسلام الباب الموصل إليها . بل نها عن إستعمال القليل منها والكثير درءا للشبهات فقال ﷺ : « ماأسكر كثيره فقليله حرام » وقال أيضا (ما أسكر الفرق منه فملء الكف منه حرام) والفرق وعاء يسع سبعة عشر رطلا .

والخمر محرمة فى الديانات السماوية كلها . ففى التوراة (لمن الويل . لمن

---

(١) سورة المائدة آية ٩١

(٢) رواه مسلم وأحمد

الكروب . لمن الشقاء . لمن ازورار العينين ؟ للذين يذهبون فى طلب الشراب الممزوج) .

وفى سفر أشعياء (ويل للأبطال على شرب الخمر . ولذوى القدرة على مزج المسكر) ورد ذلك فى الإصحاح الخامس الآية ٢٣ . وفى الإنجيل (ملعون من يسقى أخاه كأس خمر . السكيرون والزناة لا يدخلون ملكوت السماء) .

والخمر معروفة فى القديم والحديث . وفى أيامنا هذه كثرت المسميات (خمر . نبيذ . بيرة . عرقى . ويسكى . شمبانيا . كينا . خمير . . الخ) وكلها مسكرة وكلها محرمة ، والرسول ﷺ الذى لم يكن ينطق عن الهوى يشير إلى ما عليه الناس فى أيامنا تلك من محاولة إطلاق الأسماء على الخمر توهما فى تغيير الحكم فيقول : « إن أناسا من أمتى يشربون الخمر يسمونها بغير اسمها » [1] .

ثم بين الحكم العام « كل مسكر خمر وكل خمر حرام » ويقول كذلك « ليستحلن طائفة من أمتى الخمر باسم يسمونها إياه » [2] .

فليرتدع هؤلاء وأولئك وليقفوا عند حدود دينهم الذى أراد لهم الحياة الصحيحة بعيدا عن الملل والعلل الجسمية والفكرية والاجتماعية والأسرية . وليبتعدوا عن هذه السموم التى أثبت الطب ـ مؤكدا ما أثبته القرآن ـ إنها تصيب المدمنين عليها بكثير من الأمراض الخبيثة التى إن لم تسارع بالظهور عليهم فى شبابهم فسرعان ما تأتى على شيخوختهم التى تعجلها لهم . فضلا عن الإتيان على المال الذى تحتاج الأسرة اليه لتعليم الأبناء . والادخار للعوز فى مستقبل الأيام .

* عقوبة شـــارب الخمر :

نعلم من الدين أن شارب الخمر يقام عليه حد الشرب وهو أربعون جلدة . وقد كان سيدنا على بن أبى طالب يجلد الشارب ثمانين جلدة ويقول : (إنه إذا شرب سَكِرَ

---

(١) رواه ابن ماجة

(٢) رواه أحمد

واذا سَكِرَ هذى . وإذا هذى افترى وحد الافتراء ثمانون) وبيع الخمر حرام كشربها قال ﷺ : « إن الذى حرم شربها حرم بيعها » . وحضور مجلسها حرام ، قال ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقعد على مائدة تدار عليها الخمر »[1] .

* رجـــاء وأمـــل :

ليت الحكومات الإسلامية تأخذ على يد شاربى الخمر وغيره من المخدرات ، وليتها تحد من نشر الإعلانات عنها فى وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة ، وليتها تقلل من إعطاء الترخيص إلا لغير المسلم على أن لا يبيع إلا لأهل الكتاب .

لو حدث ذلك لوفرنا الكثير من الجهد الذى يبذله الدعاة فى محاربة هذه السموم ولتوفر لدينا المال الذى يبذل فى المصحات العقلية والعلاجية . ولانتشلنا الكثيرين من حمأة الشر التى يتردون فيهـا . والأمل كبير فى أن يتحقق ذلك حيث يمكن تطبيق الشريعة الإسلامية نصا وروحا فى سبيل بناء أمة تمسك بمقاليد المجد وتسير تحت جناح الدين يُظلها ويحميها .

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

---

(١) رواه أحمد

مكانة المرأة فى الإسلام

قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ (١) .

إن الإسلام كرم المرأة وأعطاها حقوقا لم تحظ بها امرأة قط . فلم يسلك معها طريق العنف أو الاحتقار واللامبالاة كما فعلت الشرائع السابقة معها أرضية كانت أم سماوية . وإن كنا نرى أن أتْباع الديانات الأخرى هم الذين انحرفوا وتعمدوا إهانة المرأة مخالفين بذلك تعاليم الله اللطيف بعباده . والذى لم يأمر نبيا من الأنبياء بالتفرقة بين أنواع الإنسان فى الذكورة والأنوثة . وقد يقول قائل : إنكم تتحدثون عن تكريم المرأة فى الإسلام لأنه دينكم والرد على هذا المتقوِّل هو أن نأخذ بيده ونضعها برفق على ما لاقته فى العهود السابقة . وعلى ما حظيت به فى الإسلام من مكاسب لا تنكر ثم نترك له ـ إن كان ذلك (سليماً) ـ أن يحكم لنا أو علينا . ونظرة سريعة على حال المرأة فى ظل الشرائع السابقة وفى نظرة الشعوب إليها توقفنا على الفرق الشاسع بين معاملتها فى الإسلام وغيره . فمعى أيها القارىء الكريم لنرى ذلك على أرض الواقع .

---

(١) سورة النساء آية ١٩، ٢٢

١ ـ المرأة عند الإغريق :

قرر إلاغريق أن المرأة لا تنفع إلا لدوام النسل وتدبير المنزل . ولقد كان (أرسطو) ينظرا إليها نظرته إلى العبيد لأنها كائن ناقص ضعيف الإرادة وليس فى وسعها أن ترقى إلى منازل الاستقلال . وأما (أفلاطون) فقد قال عنها فى كتابه (الجمهورية) : شجاعة الرجل فى العمل وشجاعة المرأة فى تأدية الأعمال الوضيعة . صمت متواصل هذا هو شرف المرأة .

٢ ـ المرأة عند اليهود :

وصلت الإهانة بالمرأة عند اليهود أنهم كانوا يعتبرون البنت فى مرتبة الخادم . ولأبيها الحق فى بيعها وهى قاصر ليطعم بثمنها الذكور من أبنائه . وكانت محرومة من الميراث . إذا كان لها أخوة من الذكور . وكانت تورث مع التركة . وصورة ذلك أن الرجل إذا توفى عن زوجة كان لأخيه الحق فى أن يرث هذه الزوجة حتى لا ينتقل المال من الأسرة . وهذا المظهر مازال موجودا فى شريعة اليهود إلى الآن والمرأة عند اليهود كانت أمرَّ من الموت .

ورد فى سفر الجامعة (درت أنا وقلبى لأعلم ولأبحث ولأطلب حكمة وعقلا . ولأعرف الشر أنه جهالة . والحماقة أنها جنون . فوجدت أمر من الموت المرأة التى هى شِبَاك . وقلبها شِرَاك . ويداها قيود . رجلا واحدا بين ألف وجدت . أما امرأة فبين كل أولئك لم أجد) .

٣ ـ المرأة عند الرومان :

كانت المرأة تعتبر متاعا عند الرجل وسلعة رخيصة لا سلطان لها . وكان ينظر إليها على أنها حيوان نجس وشيطان . ولا سلطان لها على أنوثتها . ولقد وصل الأمر إلى عقد مؤتمر بخصوصها وقرر المؤتمر : أنها كائن لا نفس لها . وأنها لن ترث الحياة الآخرة . وأنها رجس ويجب ألا تأكل اللحم ولا تضحك ولا تتكلم .

٤ ـ المرأة عند الهنود :

قالوا : الوباء والموت والجحيم والسم والأفعى والنار خير من المرأة . وكان من تقاليدهم أن المرأة تدفن حية مع زوجها إذا مات قبلها . ولقد أوضحت شريعة (مانو) الهندية أن المرأة لا تملك نفسها فى أى فترة من فترات حياتها وذلك على الوجه التالى : (تخضع المرأة فى طفولتها لأبيها . وفى شبابها لزوجها . وفى تأيُّمها لأبنائها . وفى ثكلها لأقرباء بعلها . ولا يجوز ترك أمرها لها) .

٥ ـ المرأة عند الفرنسيين :

يبين وضع المرأة عند الفرنسيين تصرفهم حيالها . فلقد عقد مؤتمر فى بعض الولايات الفرنسية سنة ٥٨٦ م لبحث ما إذا كانت المرأة إنسانا أم لا ؟ وكان أهم قرار صدر هو : أنها إنسان ولكنها مخلوقة لخدمة الرجل . وقال الكاتب (ترتوليان) فى كتاب (وصف المرأة) : إنها شيطان لأنها أغرت آدم بحمله على الأكل من الشجرة . .

وقال : كاتب فرنسى اسمه (لوفى) إن المرأة شر لا بد منه ونكبة تنساق إليها النفوس . وبلاء لا مهرب منه . وبرق خُلَّب . ومرض عُضَال . وقال (كراى سوستام) أحد كبار المسيحيين فى شأن المرأة : هى شر لا بد منه ووسوسة جِبِلِّيَّة وآفة مرغوب فيها وخطر على الأسرة ، ومحبوبة فتاكة ورزء مطلى مموه .

ومن الأمثال الآتية ندرك مواقف الشعوب من المرأة لأن المثل تعبير حى عن نفسية الشعب الذى يتردد على ألسنة أبنائه .

المثل الصينى : أنصت لزوجك ولا تصدقها .

المثل الروسى : لا تجد فى كل عشر نسوة غير روح واحدة .

المثل الإيطالى : المهماز للفَرَس الجواد والفرس الجَمُوح . والعصا للمرأة الصالحة والطالحة .

٦ ـ المـرأة فى الجاهـلية :

ظفرت المرأة فى الجاهلية بشىء زهيد من حريتها لدى بعض القبائل . ولكنها فى الأغلب الأعم كانت محتقرة مهانة لا قيمة لها . يدلنا على ذلك . عملية الوأد التى كانت شائعة آنذاك فى كثير من القبائل . والقرآن يقرع العرب الذين كانوا يقومون بهذا الجُرم الشنيع . ويوضح أن طبائعهم غير سوية وأن أفكارهم عليلة حتى بلغ بهم الأمر إلى التشاؤم من البنت والنفور عند سماع اسمها .

وكان الذى يرزق منهم بفتاة يْسوَدُّ وجهه وتتكلح تقاطيعه وتكتئب نفسه ويعتريه قلق غريب ويمشى بين الناس كأنه مرتكب لجرم شنيع . والقرآن يصور ذلك أبلغ تصوير ويوضح الأسلوب الذى كان ينتهجه هؤلاء الأجلاف للتخلص من الطفلة البريئة .

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (١) .

ووصل الأمر ببعضهم أن يقتل ابنته حَمِيَّة وخوفا من وقوعها فى الأسر فيُعَيِّر بها . ومن هؤلاء (ربيعة ومضر) . حتى أن المرأة نفسها لشدة ما رأت وصل بها الأمر إلى الحقد على ابنتها إرضاء لزوجها وخوفا من اضطهاده لها . فكانت إذا أدركتها حالة المخاض ذهبت بعيدا عن البيت وحفرت حفرة وجلست بجوارها فإذا وضعت بنتا ألقت بها مباشرة فى الحفرة وأهالت عليها التراب . وإن وضعت ذكرا حملته ورجعت إلى البيت مرفوعة الرأس موفورة الكرامة .

وهنا نرى الإسلام يوبخ هؤلاء الناس الذين لا عقول لهم وُيسَائِلهُم عن جريمة

---

(١) سورة النحل آية ٥٨، ٥٩

القتل تلك ما سببها ؟ ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ [1] . فأى ذنب جنته الطفلة حتى توأد أو تهان إذا أُبقِى عليها . وأى جنايةٍ ارتكبتها الأم حتى تستذل إذا وضعت بنتا ؟ والطب الحديث يوضح لنا أن هناك فى جسم الرجل (كروموزمات) خلايا الجنس بعضها ينتج عنه التذكير والآخر ينتج عنه التأنيث . فإذا كثرت الكروموزمات الذكرية كان الغالب على الذرية الذكورة . وإذا كثرت الأنثوية كان الغالب عليها الأنوثة . ولا دخل للمرأة فى ذلك :

﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ۝ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [2] .

تكريم الإسلام للمرأة :

كانت المرأة فى الجاهلية لا ترث لأنهم كانوا يعطون المال لمن يقدر على الدفاع والذود عن الديار والذرية . أما فى الإسلام فقد حُدِّدَ لها نصيب مفروض من الميراث سواء كانت أما أو بنتا أو أختا أو زوجة .

﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ [3] .

وهذا النصيب موضح فى كتب الفقه الخاصة بالمواريث .

٢ ـ حرمان المرأة من صداقها :

كانت المرأة فى الجاهلية مقيدة الحرية من ناحية التصرف المالى لدرجة أن حقها الأساسى المتمثل فى الصداق كان ضائعا . حيث كان ولى أمرها يستولى عليه . وكان

---

(١) سورة التكوير آية ٨، ٩

(٢) سورة الشورى آية ٤٩، ٥٠

(٣) سورة النساء آية ٧

الجاهليون فى ذلك يطبقون القاعدة التى لا تعترف للمرأة بأى حق مالى . وفى هذا من الجوْر ما فيه .

أما الإسلام فقد جعل لها الحق فى التصرفات المالية كلها كالرجل سواء بسواء . لأن ذمتها المالية كاملة ولا يحجر عليها فى أى تصرف مادامت رشيدة . وجعل الصداق هدية من الزوج إلى الزوجة فقال الله تعالى : ﴿ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾ [1] أى عطية .

وحذر ولى الأمر والزوج من الاستيلاء على شىء منه دون إذنها ورغبتها فإن أبت أن تعطى من صداقها شيئا فهذا لها . وإن أعطت عن طِيبِ نفس فلا حرج على الآخذ .

﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴾ [2] .

كما أن الإسلام شدد على الأزواج ، وهددهم بالويل إذا استولى أحدهم على مال زوجته دون إذن منها . حتى فى حالة إرادة تطليقها . إلا إذا كانت هى الراغبة فى الطلاق . فإن الشرع آنذاك يُلزِمُها برد ما أخذته صَدَاقا من الزوج إليه وهذا ما يسمى « بالخُلْع » وهو أن تفتدى المرأة نفسها بالمال مقابل تطليق الزوج لها وتخليص نفسها من الحياة معه .

ولقد ثبت أن رجلا تزوج امرأة ودفع لها صداقا هو عبارة عن حديقة . وفى أحد الأيام نظرت المرأة من باب خيمتها فوجدت زوجها مُقْبلا مع جماعة من الرجال فلم يعجبها لونه ولا قِصَرُ قامته . فذهبت إلى رسول الله ﷺ وقالت له : يا رسول الله رفعت جانب خبائى فوجدت زوجى أقبل فى عدة رجال ، وإذا به أقصرهم قامة وأسودهم لونا . وأنا أكره الكفر فى الإسلام ـ تقصد بذلك أنها قد يدفعها كرهها له إلى الإهمال فى حقه وعدم القيام بواجبه احتقارا له . فتستحق عقاب الله تعالى ـ . فقال لها الرسول ﷺ : « أتردين عليه حديقته ؟ » قالت : نعم وإن استزاد زدتُه . فبعث

---

(١) (٢) سورة النساء آية ٤

الرسول إلى زوجها وأخبره بما قالت زوجته . وقال له : « اقبل الحديقة وطلقها تطليقة »[1] فطلقها الرجل وأخذ حديقته . وكان هذا أول خلع فى الإسلام ونزل فى ذلك قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۚ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾[2] .

وما عدا ذلك فإن الرجل لا يحل له أن يأخذ من مال زوجته شيئا بعد أن أفضى إليها وأفضت إليه . وخلا كل منهما بصاحبه . وفى هذا يقول ربنا تعالى .

﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾[3] .

ثم يسوق فى موضع الاستغراب كيف يأخذ الرجل مال زوجته رغم أنه هو الذى أراد طلاقها .

﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾[4] .

أى ربط بينكم عقد مقدس ورباط شرعى متين .

* من هنا نجد أن الرجال الذين يجبرون زوجاتهم على العمل بأجر ثم يقومون بالاستيلاء على هذا الأجر . هؤلاء الرجال لا أخلاق لهم ولا رجولة عندهم لأن الشرع

---

(١) أخرجه ابن جرير

(٢) سورة البقرة آية ٢٢٩

(٣) سورة النساء آية ٢٠

(٤) سورة النساء آية ٢٢

الحكيم ألزم الرجل الإنفاق على زوجه وعلى بيته وأولاده . ولم يرتب على المرأة أية أعباء مالية فى هذا الميدان الأسرى . إلا إذا طابت نفسها بذلك .

وأكثر من هذا فقد حذر الشباب من الزواج ما لم يكونوا قادرين على الإنفاق على الزوجة والأسرة . ودعاهم فى حالة العجز المادى أن يلجأوا إلى ما يكسر شهوتهم وهو الصيام حتى لا يظلموا النساء فقال ﷺ : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أحصن للفرج وأغض للبصر . ومن لم يستطع فعليه بالصيام فإنه له وجاء » فليت الرجال يعقلون دينهم ويفقهون شريعتهم ليجنبوا أنفسهم غضب الله ومقته .

٣ ـ المرأة ليست متاعا يورث :

كان هناك أمر شائع وشائن فى الجاهلية . وهو أن المرأة وخاصة زوجة الأب تسوى بالمتاع سواء بسواء . فلو أن رجلا مات وترك أولادا وزوجة ليست أما لهؤلاء الأولاد (زوجة أب) فلأكبر الأولاد الحق فى أن يضمها إليه وأن يتصرف فيها تصرف المالك . وإن شاء تزوجها . وان شاء نكحها . وقبض صداقها . فكانت بذلك تعيش تحت سيطرته . وفى هذا إهدار لكرامتها فحفظ الإسلام للمرأة قداستها وصان عزتها وحفظ حقها . وحرم على الرجل أن يرثها مع ما يرث عن أبيه من متاع :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ﴾ (١) .

وحذر الرجل من نكاح زوجة أبيه لأنها صارت بمنزلة أمه وجعل الزواج منها ارتكابا للفاحشة وتعرضا لمقت الله وغضبه . حتى إن العرب كانوا يسمون الولد الناتج من هذا النكاح بـ (المقيت) فيقول ربنا سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ (٢) .

---

(١) سورة النساء آية ١٩

(٢) سورة النساء آية ٢٢

فليت المرأة تدرك هذا التكريم فتنخرط فى طاعة الله الذى رفع لها قدرها وأعز لها مكانتها .

٤ ـ تعـــدد الزوجـــات :

كان التعدد مباحا قبل الإسلام . ففى الديانة اليهودية نرى كثيرا من ملوك بنى إسرائيل وأنبيائهم قد تمتعوا بهذا الحق . ومن أراد المزيد من المعرفة فليرجع إلى العهد القديم . (أسفار صموئيل الأول) . والثانى وسفر الملوك الأول وسفر أخبار الأيام .

وفى المسيحية كان التعـدد مبـاحـا حتى القـرن السـابـع عشر (دائرة المعارف البريطانية مجلد ١٤) . وكان من المستساغ لدى العرب أن يتزوج الرجل بأى عدد شاء من النساء دون حرج وكان الرجل يضم إليه من الزوجات من يشاء ويبعد من يشاء دون مراعاة لشعور المرأة وأحاسيسها . يكرم بعضهن ويهين الأخريات . لا دين يردعه ولا قانـون يوقفه عند حده . فجاء الإسلام ليضع الأمور فى نصابها ويحقق قدرا من العدالة بشرط أن يكون عادلا بينهن فيما يستطاع فيه العدل كالمطعم والمشرب والملبس والمأوى .

فان لم يستطع العـدل فمحظور عليه أن يتزوج بأكثر من واحدة وحتى الواحدة إذا كان غير مستطيع الإنفاق عليها فإن الشرع ينهاه عن الزواج حتى لا يضيع حق إنسانة بريئة .

وعليه أن يلجـأ إلى طريق آخر هو الصيام لتنكسر شهوته ويقل فوران الجنس عنـده . أو أن يشغل نفسه بعمل يبعده عن التفكير فى النساء ما دام غير مستطيع للنفقة . والقرآن يجمل هذا كله فى قوله تعالى :

﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴾ (١) .

---

(١) سورة النساء آية ٣

وفى زمـان الناس هذا نرى كثيرا من السفهاء غير القادرين على الإنفاق يتزوج الـواحد منهم من الاثنتين والثلاثة . ثم يتركهن وأولادهن دون إنفاق . فيخرجن إلى الميادين غير الشريفة سعيا وراء لقمة العيش . وهنا تكون الطامة فيكثر النسل غير الشرعى وتنتشر الأمـراض الخبيثة وتتحمل الدولة مسئولية هذا البلاء . ولو أن الأمة أفرادا وجماعات عرفت تعاليم الإسلام بهذا الصدد وتمسكت بها لاستراحت من عناء ما تلاقيه .

ولو أن قانون الأحوال الشخصية راعى ضرورة منع التزوج بأكثر من واحدة إلا إذا كان مريد الزواج قادرا على الإنفاق فعلا . وقدم ما يثبت ذلك لضمنت الزوجة الثانية أن تعيش كريمة مصونة .

والإسلام يجيز للرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة كما قدمنا ويجعل ذلك أكثر إباحة فى حالات ضرورية منها :

١ ـ أن تكون الزوجة الأولى مريضة ولا يمكنها النهوض بأعباء الأسرة .

٢ ـ أن تكون مريضة بمرض خبيث ينتقل إلى الزوج أو إلى الذرية .

٣ ـ أن تكون عقيما لا تلد والرجل يرغب فى الذرية .

ففى هذه الحالات لا بأس على الرجل إذا تزوج بثانية أو ثالثة مع شرط العدل بينهن .

أما إذا كانت المرأة سليمة . ولودا فلماذ الزواج الثانى ؟ أللهم إلا إذا كان ذلك الرجل شهوانيا غير مقدر للمسئولية .

وأخيرا نجد الشرع يشدد فى ضرورة العدل بين الزوجات حتى لا تضر بالأسرة ويختل توازنها بسبب التباغض الذى يحدث بين الضرات . يقول عليه الصلاة والسلام

« من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما دون الأخرى» وفى رواية « ولم يعدل بينهم جاء يوم القيامة وأحد شِقَّيه مائل » [1].

وكما كررنا أن العدل المطلوب هو عدل النفقة . أما العدل فى الحياة الجنسية أو الميل القلبى فهذا لا يملكه الزوج . لأن القلوب بيد الله سبحانه . ولذا كان النبى ﷺ يعدل بين زوجاته فى الأشياء الضرورية . أما الميل القلبى فقد لجأ إلى الله فيه . وكان يقول : « اللهم هذا جهدى فيما أملك ولا طاقة لى فيما تملك ولا أملك » [2].

* الطـــــلاق :

يجب أن ندرك بادىء ذى بدء أن الطلاق علاج وليس سلطة يملكها الرجل لإذلال المرأة ولا سوطا مسلطا يلهب به ظهرها . وينغص حياتها ويهدد استقرارها . واذا كان الطبيب يلجأ فى معالجة المريض إلى عدة وسائل بادئا بالأخف . ولا يلجأ الى الجراحة أو بتر العضو قبل أن يستفحل المرض فيقضى على الجسد كله .

لذا نرى الشرع الحنيف قد حدد خطوات العلاج الأسرى . وعلَّم الرجل كيف يُعَالِجُ زوجته إذا رأى عليها شيئا من أعراض مرض المخالفة والنشوز . فهو لم يأمره بإيقاع الطلاق مباشرة . ولا بفض هذه الشركة الزوجية التى من المفروض فيها أن تظل فى وئام تحت سقف المرحمة والمحبة . بل وضع يد الرجل على عدة وسائل ليعالج بها المرأة فان لم يُفِدِ العلاجُ بهذه الوسائل فهو فى حل من أن يطلق زوجته . وهذه الوسائل وضحتها آية من كتاب الله هى قوله تعالى :

﴿ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ﴾ [3].

---

(١) رواه أصحاب السنن

(٢) رواه أصحاب السنن وابن حبان

(٣) سورة النساء آية ٣٤

فهذه الوسائل الثلاثة التى يُبْدأ بها علاجُ المرأة عندما تركب رأسها وتتصرف دون ما يقتضيه واجبها كزوجة ـ تبدأ « بالوعظ » والتخويف من عقاب الله . ومن سقوط حقها فى النفقة عند اعوجاج سيرها . فإن لم يفد الوعظ كان على الزوج أن يلجأ إلى طريقة أخرى هى فى الواقع علاج نفسى وهى أن « يهجرها فى المضجع » ـ لا فى الكلام ـ وذلك إتيان للمرأة من جانب عاطفتها التى قد تؤثر عليها وتعود بها إلى طريق الطاعة .

فإن لم تستقم بعد هاتين الوسيلتين كان على الزوج أن يلتجىء إلى الوسيلة التى لا بد منها لبعض النساء عند التقويم وهى « الضرب » غير المبرح الذى لا يكسر عظما ولا يمزق لحما . والذى يتجنب الزوج فيه الوجه والرأس .

والإسلام إنما جعل الضرب وسيلة تأديبية للمرأة مع احترامه لها . لأن بعض النساء لا يقومهن إلا ذلك . مع الاعتراف بأن بعضهن تأسرها الكلمة وتؤثر فيها . والبعض الآخر يهذبه العقاب النفسى .

وعندما يستنفذ الرجل هذه الوسائل فإن الإسلام لا يترك له الحرية فى الطلاق بل يأمره باللجوء إلى محاولة أخيرة هى «التحكيم » كطريقة مُتَعَارفٍ عليها اجتماعيا وكيفيتها أن يحضر الزوج حَكَما من أهله . وتحضر الزوجة حكما من أهلها . ويقص كل منهما حُجَّتَه . وعلى الحَكَمَين أن يتبينا وجه الصواب فيما يقص عليهما . فيظهر بذلك المحسن والمسيىء من الزوجين . فيلزم كل من الحكمين بإصلاح موكله طالما أن النوايا سليمة وأن قصد الإصلاح متوفر يقول ربنا سبحانه فى ذلك :

﴿ فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ﴾ (١) .

أما ما نراه فى زمننا هذا من الكثيرين ممن لا أخلاق لهم يكثرون الحلف بالطلاق لسبب ولغير سبب . فهو من الفوضى التى يحاربها الإسلام . وهم بذلك لا يقدرون

---

(١) سورة النساء آية ٣٥

مسئولية الأسرة ولا يرعون لها حرمة . الأمر الذى جعل هؤلاء الناس يعيشون مع زوجاتهم المطلقات بعيدا عن تعاليم الدين الحنيف . وليتهم يعقلون قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ (١) .

وقول الرسول ﷺ : « تزوجوا الولود الودود فإنى مكاثر بكم النبيين يوم القيامة » (٢) .

ولو أن الرجال اتبعوا الوسائل الشرعية للعلاج ما وجدنا الأسر تهتز بعنف تحت معاول الهدم الممثَّلة فى الطلاق . والذى يضرب بها اللاعبون أساس الأسرة دون وعى . ليقضوا على بناء من المفروض فيه أن يبقى قائما على عُمُدِ المحبة . عاليا بالوفاق والوفاء . ولكنهم بعملهم الأهوج هذا يعودون إلى الجاهلية التى عاب الإسلام عليها كثرة الطلاق وابتكار أنواعه .

وبنظرة سريعة إلى الطلاق فى الجاهلية نضع أيدينا على الداء . فلقد كان الطلاق فى يد الرجل وفى بعض الأحوال كانت المرأة هى التى تملك الطلاق . وكانت تنفذه فى الزوج بأسلوب غريب . فمثلا لو أنها كرهت حياة زوجها وأرادت أن تفض شركة الزوجية القائمة بينهما فإنها كانت تنتظر حتى يخرج من البيت أو الخيمة . ثم تقوم بتحويل باب البيت أو مدخل الخيمة عن مكانه الأصلى . فإذا عاد الزوج ووجد هذا الوضع الجديد عرف أن امرأته غير راغبة فى المعيشة معه . فيترك المكان وتنتهى بذلك العلاقة الزوجية .

وكان الرجال ينفذون الطلاق بعدة طرق منها :

١ ـ الطلاق المعروف والذى أقره الإسلام وهو أن يقول الرجل لامرأته : أنت طالق . أو اذهبى إلى أهلك فليس لى فيك رغبة . فتطلق المرأة بذلك .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٢٩

(٢) رواه أحمد والطبرانى

٢ ـ الظهار : وهو أن يقول لزوجته أنت على كظهر أمى : أى محرمة مثل أمى تماما .

وكان هذا يعتبر طلاقا عندهم فى الجاهلية وفى صدر الإسلام أيضا إلى أن وضع الله سبحانه حدا لذلك فى قصة أوس بن الصامت حين ظاهر من امرأته خولة بنت ثعلبة . فذهبت إلى رسول الله ﷺ وقالت له : يا رسول الله ان أوسا ظاهَرَنِى وجعلنى كأمه . فقال لها رسول الله ﷺ : «أرى انك قد حرمت عليه » . فقالت يا رسول الله : ان لى منه صبية صغاراً ان ضممتهم إليه ضاعوا . وإن ضَمْمْتُهم إلىَّ جاعوا . فقال لها : « أرى انك قد حرمت عليه » . فجعلت تجادل رسول الله فى ذلك إلى أن نزل قوله تعالى :

﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وقوله تعالى : وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١) .

٣ ـ طلاق الأضرار : وهو أن الرجل كان يطلق زوجته حتى إذا قاربت انتهاء عدتها راجعها . ثم بعد فترة يطلقها ثم يراجعها قبل انتهاء العدة وهكذا لتظل معلقة لا هى بالزوجة المتمتعة بحقوق الزوجية ولا هى بالمطلقة الخلية التى تستطيع الزواج . وفى هذا من الإضرار بالمرأة ما فيه من هنا حدد الله الطلاق ونهى عن الإمساك بالمرأة إضراراً بها :

---

(١) سورة المجادلة آية ٣

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾ (١).

وبهذه الآية وضع الإسلام للطلاق حداً لا يتعداه الزوج . حفظا للأعراض وبعداً عن العبث بالنساء . وهذا الحد هو : ثلاث مرات وهو بذلك يعطى الرجل والمرأة على السواء فرصة مراجعة كل منهما لنفسه بعد الطلاق الأول . وجعل للرجل الحق فى المراجعة قبل انتهاء العدة . فإذا راجعها واستقامت فيها ونعمت . وان لم تستقم مع محاولة إصلاحها وطلقها للمرة الثانية . فإن الشرع يعطيه فرصة أخرى يراجع فيها نفسه إن كان راغبا فى بقائها معه . وله أن يراجعها أيضا قبل أن تنتهى عدتها فان ثابت إلى رشدها وأطاعت زوجها عاشت فى سلام . أما إذا تمردت وطلقها زوجها للمرة الثالثة فإنها بذلك تصبح محرَّمةً عليه . ولا يجوز مراجعتُها . وهذا ما يُسمَّى بالبينونة الكبرى (الانفصال الأخير الذي لا رجعة بعده) وفى هذا يقول الله تعالى :

﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ (٢).

وقال تعالى مبينا الانفصال النهائى بعد الطلاق الثالث :

﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا ﴾ - أى الزوج الثانى أو مات عنها - ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ ﴾ - الزوج الأول والزوجة - ﴿ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ﴾ (٣).

فالقرآن يضع حدا للطلاق والمراجعة ويبين أن الزوج الأول لو انقطعت علاقته بزوجته بعد الطلاق الثالث فإن زوجته لا تحل له . إلا إذا تزوجت من رجل آخر بمحض اختياره وطلقها حرا مختارا . ولم يشترط عليه ذلك فى العقد أو قبله أو بعده .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٣١

(٢) سورة البقرة آية ٢٢٩

(٣) سورة البقرة آية ٢٣٠

كان للزوج الأول أن يتزوجها زواجا جديدا بعقد وصداق مستقلين بعد انتهاء عدتها من الزوج الثانى .

أما ما يلجأ إليه بعض الجهلة ممن لا خلاق لهم من أن يقوم الواحد منهم بطلاق امرأته ثلاث مرات . ويقوم ـ إذا كان له رغبة فى الإبقاء عليها باستئجار رجل يقوم بدور المحلل ويتم الاتفاق معه على عدم قربانها جنسيا . وعلى طلاقها بعد فترة محددة . فهذا أمر لا يقره الدين ولا تعترف به المروءة . بل أكثر من ذلك فإنه يتيح الفرصة للزوج الجديد وللمرأة فى القيام بجريمة الزنا . وهذا محلل باطل شبهه الرسول ﷺ تشبيها يليق به فقال ﷺ : « ألا أخبركم بالتيس المستعار؟ » قالوا : بلى يا رسول الله . قال : « هو المحلِّل لعن الله المحلِّل والمحلَّلَ له »[1] وكان عمر يقول : لو أتيت بمُحَلِّلٍ . ومُحَلَّلٍ لرجمتهما . فلما سُئِل ابنُ عمر عن سبب الرجم قال : لأنهما زانيان .

٦ ـ إهمال رغائب المرأة :

كان الرجل يألو على نفسه ألا يقرب زوجته مدة غير معلومة . وكان ذلك يعتبر نوعا من أنواع إيلام المرأة وقريبا فى مفهومه من الطلاق . ولكن الإسلام راعى مصالح المرأة وحافظ على رغباتها التى هى من الغرائز المركبة فيها . وكان هذا العمل يعرف بالإيلاء ـ أى الحلف على عدم القربان من الزوجة ـ ولكن الشرع الحكيم أعطى الرجلَ مهلة أربعة أشهر يراجع نفسه فيها . فإن عاد إلى زوجته فى غضون المهلة كان خيرا له وان لم يرجع كان للحاكم ـ القاضى أو منَ يُحِلُّ محله ـ أن يأمر الرجل بطلاقها فإن لم يطلق ولم يرجع وأصر على عناده . كان للقاضى أو لمأذونه أن يطلقها على زوجها . وأن يلزم الزوج بإعطائها مؤخر صداقها ونفقتها لمدة سنة جبرا لخاطرها . قال الله تعالى :

---

(١) رواه ابن ماجه والحاكم

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١).

والإسلام بذلك يقلل من فرص الانحلال ويحارب أسباب الانحراف ويراعى شعور المرأة ورغائبها الجنسية .

روى أن أمير المؤمنين عمر مر على بيت فسمع امرأة تقول :

لقد طال هذا الليل واسود جانبه وأرقنى ألا حبيب ألاعبه
فوالله لولا الله تخشى معاقبه لزلزل من هذا السرير جوانبه

فبعث عمر فى الصباح إلى هذه المرأة وسألها أين زوجُكِ ؟ قالت بعث به أمير المؤمنين فى سرية لها سنة . ثم بعث عمر إلى بنته حفصة أم المؤمنين فسألها : كم تصبر المرأة على زوجها ؟ قالت شهرا وشهرين وثلاثة وفى الرابع يعيل صبرها . فكان عمر بعد ذلك يرتب السرايا بحيث لا تمكث فى الخارج أكثر من أربعة أشهر . محافظة على أخلاق النساء وصيانة لأعراضهن .

٧ ـ حفظ المرأة من البغاء :

وصل الأمر بالرجال ان يحتقروا المرأة لدرجة أن أحدهم لو كان مالكا لفتاة أمرها بمباشرة البغاء ليحصل على المال الذى تتقاضاه من هذا الطريق الدنس وفى هذا إهدار لكرامة المرأة وتضييع للقيم الإنسانية . فلم يرض الإسلام بذلك . بل حذر منه الرجال فقال تعالى :

﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٢).

---

(١) سورة البقرة آية ٢٢٦، ٢٢٧

(٢) سورة النور آية ٣٣

أعـز التكـريم للنســاء :

أخيرا نلمس التكريم والإعزاز اللذين حبا بهما الإسلام النساء .

* **فــالأم** : يرعـاهـا الإسـلام ويأمر ببرها ويقدمها على الأب . لأنها أضعف وأحـوج إلى الحنان . ولأنها سهرت وحملت وأرضعت وأطعمت وغسلت . ولقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ وسأله : « من أبرُّ؟ قال : أمك وأباك وأختك وأخاك ومولاك الذى يلى ذاك . حق واجب ورحم موصول »[1] .

وقال للذى سأله عن الثواب الذى يعطيه الله له مقابل حمله لأمه ومجيئه بها بيت الله الحرام لتحج البيت . قال ﷺ : «لعل ذلك فى طلقة واحدة » يعنى كل ما فعلته مع أمك قد يتساوى مع تعبها فى طلقة من طلقات الولادة .

* **والبنــت** : تحتاج إلى رعاية وحدب لأنها كسيرة الجناح ولذا قال ﷺ : « من كانت له ابنـة فأدبهـا فأحسن تأديبهـا . ورباها فأحسن تربيتها . وغذاها فأحسن (غذاءها) كانت له وقاية من النار » وقال : «من كانت له أنثى فلم يئدها ولم يؤثر ولده عليها أدخله الله الجنة »[2] .

* **الأخــت** : جمع الرسول عليه الصلاة السلام تكريم الأخت مع البنات فى حديث واحد : « من كان له ثلاث أخوات أو ابنتان أو اختان فأحسن صحبتهن واتقى الله فيهن فله الجنة »[3] .

ولو اننا أنعمنا النظر فى قوله ﷺ : من كانت له أنثى فلم يئدها ولم يؤثر ولده عليها أدخله الله الجنة » لوجدنا ان هذا الحديث يلمس جانبا اجتماعيا على درجة كبيرة من الأهمية . حيث يجعل للبنت حقا فى عطف الوالد عليها . ويأمره بألا يفضل أخاها

---

(١) رواه الطبرانى باسناد حسن

(٢) رواه ابو داود

(٣) رواه الترمذى وابو داود

فى شىء ويحذره من أكل حقها . وليت المتهورين من الأغنياء يسمعون ويعقلون . حيث يقومون بكتابة ما يملكون للذكور ويحرمون الإناث بدعوى أن الذكور هم الذين يحملون لقب الأسرة . ويحمـون شرف العائلة . فهؤلاء متمردون على الدين ظالمون لأنفسهم ولغـيرهم . متجاوزون لحدود الله . والله سبحانه يقول بعد أن بين أنصبة الـورثـة ذكـورا وإناثا أزواجا وزوجات ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا) هذا بالنسبة للبنات والأخوات .

* **أما الزوجة** : فقد أوصى الله بها خيرا وجعلها سكنا لزوجها تهدأ إليها نفسه ويفضى إليها بمكنون قلبه . ويخبرها بما لم يخبر به أحداً من الناس . ويكَوِّن معها شركة تدوم العمر كله :

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ (١) .

ويقول سبحانه كذلك عن الزوجات :

﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ (٢) .

والـرسـول ﷺ يقول : « أوصيكم بالنساء خيرا فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف » (٣) .

وفى هذا القدر كفاية .

---

(١) سورة الروم آية ٢١

(٢) سورة البقرة آية ١٨٧

(٣) رواه أصحاب السنن

محظـورات الإحـرام

قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ (١) .

مقدمـة

جرت العادة أن يبتلى الله المؤمنين فى حياتهم لتصلب عيدانهم . ولترتفع عنده منازلهم .

وفى هذا البـلاء يظهـر الفـرق بين الصادقين قولا وعملا . وبين المرائين وبين الوقافين عند أوامر الله ونواهيه تنفيذا للأوامر وبعدا عن النواهى وبين الكذابين ولهذا يقول رب الناس سبحانه

﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ (٢) .

والابتلاء كما يكون فى المال والولد يكون كذلك فى النفس والجسد والزوجة . ولعل مسائل الطعام والشراب تكون من أهم ما يبتلى فيه المؤمنون لأن حاجة الناس إليهما أكثر وتعلقهم بها أشد . ولقد أخبرنا الله ببعض هذه الإبتلاءات فقال :

---

(١) سورة المائدة آية ٩١ ـ ٩٥

(٢) سورة العنكبوت آية ٢

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾[1] .

ومما لاشك فيه أن الناس ليسوا سواء فى القدرة على التحمل والصبر . ولكن الجزاء الأوفى يكون دائما من نصيب الثابتين الصادقين فى صبرهم . ولهذا ذيلت الآية بتلك الجملة ﴿ وبشر الصابرين ﴾

والآية التى هى موضوع البحث يختبر الله فيها المؤمنين فى حالة خاصة ووضع خاص . يبتليهم بأصدار الأمر إليهم بعدم التعرض لصيد البر أثناء إحرامهم بحج أو بعمرة . بل وحتى إذا لم يكونوا محرمين طالما أنهم داخلَ حُدودِ الحرم الواضحة المعالم .

ومن المعلوم أن العرب كثيرا ما يعتمدون على الصيد لأن إقامتهم فى الصحراء تستدعى ذلك . ولكن أقتضت حكمة العليم الخبير أن يعجم عيدانهم فى حالة هم فى أشد مسيس الحاجة فيها إلى الصيد فجعل الصيد محرما سواء كان مقدورا على تناوله باليد كالطير وصغار الغزلان والأرانب والضب وغيرها . أم لم يكن مقدورا عليه إلا بالرماح أو السهام فالمنع هنا على العموم .

وذلك لينمى فى قلوب المؤمنين الخوف منه تعالى . وليوقظ فيها عنصر المراقبة الدائمة له سبحانه . فمن صبر على هذا الإبتلاء جوزى جزاء الصابرين . والله تعالى يقول فى وصف هذا الجزاء ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[2] .
أما من عجز عن تنفيذ الأ وامر أو تعمد مخالفتها فإنه سيقع تحت طائلة العقاب ويتعرض لسخط الله ـ سبحانه وتعالى . .

---

(١) سورة البقرة آية ١٥٥
(٢) سورة الزمر آية ١٠

ويكون أهلا لتنزل النقمة عليه لأنه فى هذه الحالة متعمد أثيم ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1] .

ثم إن الحرم له حدود معلومة . وكل شىء داخلَ هذه الحدود آمن لايعتدى عليه أحد . سواء كان إنسانا أم حيوانا أم طائرا . بل حتى النبات . ولذلك مَنَّ الله على أهل مكة بهذه النعمة المتمثلة فى الأمن داخل الحرم :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾[2] .

ولقد وصل الأمر بتعظيم الحرم أن الرجل كان يرى قاتل أبيه أو أخيه يسير أمامه فلا يستطيع أن يمد إليه يده ليأخذ بثأره . لأنه يعلم أن الجريمة فى الحرم شنيعة وأن كل من بداخله آمن على نفسه . وأن كان بعض الائمة يرى الأخذ بالثأر منه حتى فى الحرم لئلا . يهدر المجرمون دماء الناس ثم يأوون إلى الحرم هربا من الثأر .

وإذا كان الله سبحانه قد حرم التعرض بالقتل أو الجرح للصيد البرى فى الحرم فإنه وهو اللطيف بعباده أباح لهم صيد البحر حتى يكون الطعام ميسرا لهم :

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ ﴾[3] .

* أشياء لا حرمة لها :

هناك بعض الأشياء التى قد توجد فى الحرم ولكنها لاحرمة لها لضررها وشرها ولهذا نجد الشرع يحث على قتلها حتى داخلَ الحرم والرسول ﷺ بينها فى حديث شريف بقوله : « خمس فواسق يقتلن فى الحل والحرم . الحية . والعقرب . والفأرة . والغراب الأبقع . والكلب العقور » فهذه الأشياء لا تتمتع بالحماية فى الحرم كغيرها لاستمرار أذاها .

---

(١) سورة البقرة آية ١٧٨

(٢) سورة العنكبوت آية ٦٧

(٣) سورة المائدة آية ٩٦

*كفارة الاعتداء على الصيد :

إذا قتل الإنسان صيدا حيوانا أو غيره مأكولا أو غيره مأكول . فإن الشرع يلزمه بكفارة هى عبارة عن شراء حيوان مأكول شبيه بالحيوان الذى قتل ومساو له فى القيمة . ثم القيام بإرساله هدية للحرم لينحر عند الكعبة ويوزع على الفقراء .

فإن لم يكن له شبيه أنتقل القاتل إلى قيمة ذلك الحيوان . ويشترط فى تقديرها أن يحكم بها عدلان خبيران بقيمة الحيوانات . ثم توزع هذه القيمة على فقراء الحرم وهذا نوع من الايلام للمعتدى حتى يعرف للحرم مكانته وقد سيته . وهذا الحكم يبينه الله فى تلك الفقره من الآية :

﴿ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ ﴾ (١) .

ولكن هل توزع القيمة نقدا أم يشترى بها طعام يوزع على الفقراء ؟ الواضح أن شراء طعام بالقيمة أيسر ﴿ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ ﴾ .

فإن لم يجد الحيوان الشبيه بالمقتول أو لم يقدر على القيمة كان عليه أن يصوم عن كل مسكين ـ كان سيطعم من الحيوان الشبيه أو من القيمة يوما . وعدد المساكين يقدر بخبرة المقيمين . والله يقول فى ذلك : ﴿ أو عدل ذلك صياما ﴾ ولهذا قال أكثر المفسرين والفقهاء : عليه أن يصوم يوما واحدا فى مقابل كل مسكين يمكن أن يطعم من قيمة هذا الحيوان المقتول .

أما الأشياء الأخرى كالنباتات أوغصون الأشجار . فإنها تقدر بالقيمة ويطعم منها الفقراء . فإن لم يجد القيمة لجأ إلى الصوم كما تقدم .

والقتل العمد للصيد يتساوى مع القتل شبه العمد أو الخطأ . فى الكفارة لإشعار القاتل بأنه قتل نفسا تتساوى مع نفس المؤمن خارج الحرم . بهذا نرى الشريعة تأخذ

---

(١) سورة المائدة آية ٩٥

بجانب القوة فى سفك الدماء . وتلزم القاتل بالدية للمقتول خطأ :

﴿ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ﴾[1] .

والحيوان اللائذ بالحرم فى حمى الله ورعايته . ولذلك ألحقه الشرع بالإنسان من حيث حرمة دمه .

وحيث أن الناس قد عرفوا ذلك . وأصبح شائعا بينهم فإن الله تعالى ينذر من يجترىء منهم على الحرم . أو يقتل الآمن من الحيوان فى الحرم بانتقامه منهم .

ولقد كان العرب قبل ذلك لايبالون بحرمة الصيد داخل الحرم فكانوا يأخذونه . واستمر الحال إلى فترة قصيرة فى صدر الإسلام إلى أن حرم الله ذلك وهدد فاعله فقال تعالى :

﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾[2] .

إذن لاعذر لمعتذر بعد هذا البيان الصادر من القوى العزيز . .

★ ★ ★

(١) سورة النساء آية ٩٢

(٢) سورة المائدة آية ٩٥

الإشهاد على الوصية

قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَءَاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُواْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (١) .

مقدمة :

إعتاد المسلمون أن يقرأوا القرآن سلس العبارة غير معقد التركيب . ولامتنافر الجمل . وفى هذه الآيات وجدنا شيئا شدنا إليها بقوة ولفت نظرنا إلى تركيب لم نألفه وأسلوب من الروعة يجلل المسلم بالرهبة والجلال . الآيات مشتملة على جمل متلاصقة شديدة الربط . قوية التعانق . تحتاج إلى التؤدة والتأنى عند التلاوة . والوقوف بعد كل جملة والتطلع إلى الرباط الذى يشدها إلى سابقتها . أو يدفع بها إلى الإلتصاق بما بعدها تكميلا للمعنى وفهما للمحتوى . ولاشك فإن هذا من عظمة التركيب القرآنى وإعجازه البالغ . وارتقاء أسلوبه الذى جعل العرب يقدرونه ويقول قائلهم . والله ماهو من كلام الإنس ولامن كلام الجن وإن عليه لحلاوة وإن له لطلاوة وأنه يعلو وما يعلى .

---

(١) سورة المائدة آية ١٠٦ ـ ١٠٨

ولاريب فهو تنزيل من حكيم من حكيم حميد .

***سبب النزول :**

روى أن تميم بن أوس الدارى . وعدى بن زيد خرجا إلى الشام للتجارة وكانا حينئذ نصرانيين وكان معهما بُديل بن أبى مريم مولى عمرو بن العاص . وكان بديل مسلما مهاجرا .

فلما قدموا الشام مرض بديل فكتب كتابا جمع فيه مامعه وطرحه فى متاعه ولم يخبرهما بذلك .

وأوصى إليهما أن يدفع متاعه إلى أهله .

ومات الرجل ففتشاه فوجدا فى متاعه إناء من فضة منقوشا بالذهب فأخفياه . ودفعا المتاع إلى أهله . فأصابوا فيه الكتاب فطلبوا منهما الإناء فقالا ماندرى .

إنما أوصى إلينا بشىء وأمرنا بأن ندفعه إليكم ففعلنا ومالنا بالإناء من علم . فرفعوهما إلى رسول الله ﷺ فنزل قول الله تعالى :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ﴾ (١)

وأستحلفهما بعد العصر على المنبر- بالله الذى لا إله إلا هو أنهما لم يأخذا شيئا مما دفع إليهما ولاكتما . فحلفا على ذلك . فخل الرسول سبيلهما . ثم إن الإناء وجد بمكة . فقال من بيده الإناء اشتريته من تميم وعدى . وقيل إنهما لما طالت المدة أظهراه فطلبوه منهما فقالا . كنا قد أشتريناه من بديل . فقالوا ألم يقل لكما هل باع صاحبنا شيئا من متاعه فقلتما : لا ؟ قالا : ماكان لنا بينه فكرهنا أن نقربه . فرفعوهما إلى رسول الله ﷺ مرة ثانية فنزلت الآية ﴿ فإن عثر على أنهما إستحقا إثما - الآية ﴾ فقام عمرو بن العاص والمطلب إبن أبى وداعه السهميان فحلفا - بعد العصر- بأن تميما وعديا كذبا وخانا فدفع الإناء إلى عمرو والمطلب .

---

(١) سورة المائدة آية ١٠٦

* الحكم المأخوز من الآية :

من معرفة سبب النزول ندرك أن الله سبحانه يأمر المسلم إذا أحس بدنو أجله ـ سواء كان بين أهله أو بعيدا عنهم أن يكتب وصيته ويثبت فيها مايجب عمله بعد وفاته فى ماله . ويكتب ماله على الغير وماعليه للغير . حفظا للحقوق من الضياع . ولذلك يقول ﷺ « ماحق أمرىء مسلم له شىء يوصى فيه يبيت ليلتين ـ أى مريضا ـ الإ ووصيته مكتوبة عنده) [1]

كما يأمر المسلم أن يشهد على تلك الوصية شاهدين عدلين من المسلمين . فإن لم يجد مسلمين أشهد عدلين من غير المسلمين . وهذا الإشهاد يقطع الشك الذى يساور بعض الورثة أحيانا وحسبان أن الذى بيده الوصية قد يكون هو الذى كتبها لينال حقا ليس له من مال الميت .

والآية فى حق الموصين فى الغربة بعيدا عن أهليهم . ولقد عبر عن الموت بأنه مصيبة والواقع أن الموت بعيدا عن الأهل ليس بالهين على النفس .

* الاستنتاج من الآية :

يستنتج من الآيات ومن سبب النزول ومن الحكم مايلى :

(١) إذا أدى الشاهدان الأمانة التى كلفهما بها الميت وصدق الورثة ماقام به هذان الشاهدان انتهت المشكلة إلى هذا الحد . ولاحاجة فيها إلى تحليف أو غيره .

(٢) إذا لم يؤد الشاهدان الأمانة وشك أهل الميت فى ذلك وأخبرا الإمام ـ كما فى موضوع بديل السابق ـ كان على الإمام فى هذه الحالة أن يحضرهما إلى المسجد بعد صلاة العصر أو أى صلاة أخرى . ثم يطلب منهما أن يقسما بالله أنهما ماخانا ولاكذبا وأنهما قاما بأداء الأمانة إلى أهلها . وأوصلا ماعهد به الميت إليهما . فإن حلفا انتهى الموضوع .

(٣) إذا تأكد لأهل الميت كذب الشاهدين بحيث وجدوا شيئا من متاع الميت ناقصا مع علمهم بما كان معه يقينا . أخبروا الإمام بذلك .

---

(١) متفق عليه

وحينئذ يجب أن يقوم إثنان من أهل الميت بالقسم بعد الصلاة أن مال الميت نقص منه كذا وكذا . وأن الشاهدين الأولين خانا الأمانة . وبذلك يستحق أهل الميت ماقد يوجد من متاع الميت بعد ذلك .

وبذلك يظهر حرص الإسلام على أموال الناس ورعاية الأمانة فيما بينهم والله سبحانه وتعالى يقول ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ [1] ويؤكد ضرورة الصدق فى الشهادة بقوله ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ﴾ [2] والرسول ﷺ يقول (لادين لمن لاأمانة عنده) [3].

ولهذا اختتمت الآيات بالأمر بالتقوى التى هى خوف الله ومراقبته وعدم كتمان ماتحمل كما أمرت بالسمع والطاعة . فمن عمل بما جاء فيها كان ممن يستحق الفضل والتكريم من الله تعالى . ويستحق الثقة والإعزاز من الناس . ومن خالف مافيها ضل السبيل وانحرف عن الهدى الإسلامى الرشيد وإنحاز إلى الفسق ﴿ والله لايهدى القوم الفاسقين ﴾ [4].

★ ★ ★

(١) سورة النساء آية ٥٨
(٢) سورة البقرة آية ٢٨٢
(٣) رواه أصحاب السنن
(٤) سورة الصف آية ٥

النهى عن الربا وأكل أموال الناس بالباطل

قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾[1] .

قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[2] .

مقدمة :

ورد ذكر الربا فى أكثر من موضع بالقرآن الكريم وعلى وجه التحديد ١٣ مره والربا معناه الزيادة . يوضع ذلك قوله تعالى :

﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾[3] .

وربت معناها زاد حجمها بعد أن تخلل الماء ذراتها . وأما الربا فى عرف الشرع . فهو فضل مال لايقابله عوض .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٧٨ ، ٢٧٩

(٢) سورة آل عمران ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢

(٣) سورة الحج آية ٥

كأن أعطى رجلٌ لآخر مبلغا من المال (عشرون جنيها مثلا) على أن يرده المقترض زائدا (خمسة وعشرين جنيها) مقابل الإنتفاع به أو شراء ضروريات لأسرته . فالمبلغ الزائد (خمسة جنيهات) يعتبره الشرع ربا محرما . بنص القرآن :

﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ (١) ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ (٢).

وهذا النوع من الربا يعرف بأسم (ربا النسيئة) أى تحقيق فائدة لصاحب المال مقابل أقراضه للمحتاج لمدة معلومة . فهذا لاشك مما يعنيه القول المشهور (كل قرض جر نفعا فهو ربا) (٣).

ولقد كان العرب قبل الإسلام بل وفى صدر الإسلام يلجأون إلى هذا اللون من المعاملات وكانوا يشترطون على المقترض أن يؤدى فى وقت معين . فإن حل الوقت ولم يؤد المدين قال له صاحب المال : إما أن تؤدى وإما أن تُرْبِى (بمعنى أزيدك فى المدة وتزيدنى فى الفائدة) .

وهناك نوع آخر من الربا يسمى (ربا الفضل) وهو أن يشترى الإنسان شيئا بشىء مماثل له فى الصنف زائد عليه فى الوزن أو الكيل . مثال ذلك أن أشترى أردبا من القمح بأردب ونصف منه . وهذا النوع من المعاملات محرم أيضا بنص حديث الرسول ﷺ « الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح مِثْلاً بِمِثْلٍ سواء بسواء فإذا أختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف إذا كان يدا بيد » (٤) وهذا يبين أن البيع عند اتحاد الصنف لابد فيه من التماثل ـ التساوى ـ كيلا ووزنا . فإن زاد فهو ربا . وعند إختلاف الصنف فأنه يجوز كإردب من القمح بأردب ونصف من الشعير . وكأوقية من الذهب بخمس من الفضة وهكذا .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٧٥

(٢) سورة الروم آية ٣٩

(٣) رواه الحارث بن أسامة عن على . قال فى التمييز : وإسناد ساقط ..

* أسلوب القرآن فى تحريم الربا :

لقد سلك القرآن فى تحريم الربا طريق التدرج الذى أتبعه فى تحريم الخمر وتحريم الرقيق وكان التحريم على مراحل ثلاثة .

(١) المرحلة الأولى :

أيقظ بها الأذهان وهيأ النفوس إلى أن شيئا سيصدر بخصوص الربا وبين فيها أن الربا لابركة فيه ولاثواب لأنه بمثابة السطو على أموال الناس وأكلها بالباطل .والاستيلاء عليها دون وجه حق وإستغلال لحاجتهم . وتتمثل تلك المرحلة فى قول الحق جل وعلا :

﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾ [١] .

فالزكاة والصدقة يضاعف الله ثوابها . وأما الربا فيمحق الله البركة منه لقوله تعالى ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ ﴾ [٢] والسبب فى محق الربا : أنه استغلال لمصالح الناس وقتل للمعاملة الإنسانية القائمة على مدّ يد العون للمحتاج لاتصيد الفرصة للضغط عليه وتحميله فوق مايطيق . ومن الواجب على المسلم أن يكون عونا للمسلم مفرجا لكرباته قال ﷺ « من فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة . ومن يسر على معسر يسر الله عليه يوم القيامة » [٣] « من فك عن مكروب كربة فك الله به عنه كربة من كرب يوم القيامة » .

(٢) المرحلة الثانية :

بعد انتقال المسلمين إلى المدينة حيث كان اليهود يباشرون الربا على نطاق واسع مستغلين حاجة العرب فى المنطقة . متأوّلين نصوص التوراة التى تحرم التعامل بالربا

---

(١) سورة الروم آية ٣٩

(٢) سورة البقرة آية ٢٧٦

(٣) رواه ابن عدى والخطيب بلفظ «من فك عن مكروب كربة فك الله عنه كربة من كرب يوم القيامة» .

(أخـاك لاتقرض بربا) فقد تأولوا هذا النص حسب أهوائهم وعبروا عن الأخ بأنه اليهودى واستحلوا كل محرم .

وأعتبروا أنه لاجناح عليهم فى التعامل بالربا مع غير الإسرائيليين ﴿ ليس علينا فى الأميين سبيل ﴾ وأعتبروا كذلك أن مال غير اليهودى حلال لهم . ولهذا استوجبوا اللعنة لانتهاجهم هذا النهج غير السوى ﴿ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ [1] فهذا التنبيه لفت نظر المسلمين إلى تحريم الربا وجعلهم يترقبون حكما قاطعا بخصوصه .

وبعد فترة أنزل الله سبحانه وتعالى ﴿ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ﴾ [2] . فكانت تلك الآية بمثابة نهى أولى أو جزئى عن الربا المضاعف (الذى يتضاعف بمرور الزمن وعجز المدين عن الأداء) حتى يكبر رأس المال وينمو من الحرام .

(٣) المرحلة الثالثة

كانت هذه المرحلة الأخيرة والحاسمة حيث نزل قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [3] وهددت كل من يعود إلى هذه المعاملة الخبيثة بأنه سيكون هدفا لأنتقام الله وغضب رسوله وهذا لاشك يمحق البركة ويعرض المرابى للويلات التى لم يهدد الله بها سوى اثنين : المرابى ومن عادى لله وليا .

أما المرابى فيقول الله عنه ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [4]

---

(١) سورة النساء آية ١٦١
(٢) سورة آل عمران آية ١٣٠
(٣) سورة البقرة آية ٢٧٨
(٤) سورة البقرة آية ٢٧٩

وأما من عادى لله وليا فلقوله تعالى فى الحديث القدسى (من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب)[1] .

والأية فى أسلوبها الرائع تمس برفق قلوب المؤمنين الذين هم أكثر أستجابة من غيرهم لامر الله والبعد عن سخطه . المؤمنون الذين يسارعون إلى مرضاة الله ويتوقّعون الوقوع تحت طائلة هذا التهديد الرهيب . ولذلك كانت الآية مشتملة على الأمر بالتقوى والبعد عن الربا ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[2] فقد بدأت بالتقوى وأنتهت بما يلهب نفوسهم ويحرك مشاعرهم وهو الإيمان الصادق واليقين المؤكد . وتوسط هذا وذاك الأمر بالبعد عن الربا .

* سبب نزول الآية :

كانت ثقيف تداين بنى المغيرة المخزوميين . وحلت آجال ربا ثقيف . فبعثوا رسولا إلى المخزوميين لحمل الأموال . ولكّن بنى المغيرة قالوا : لانعطى الربا لان الله حرمه . ورفع الثقفيون القضية إلى والى مكة ـ عتّاب بن أسيد الأموى ـ فكتب بذلك إلى رسول الله ﷺ يستطلع الحكم فنزل قول الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[3] فبعث الرسول ﷺ بالآيات إلى ـ عتاب ـ فلما علمت بها ثقيف كفت عن الطلب . ثم حاولت التلاعب بالحكم فقالت : كل مالنا من الربا عند الناس فهو حقنا . وما للناس علينا من ربا فهو موضوع عنا . ولكن الآية ردت عليهم تحايلهم وألزمتهم بالطريق السوى .

﴿ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾[4] .

---

(١) حديث قدسى
(٢) سورة البقرة آية ٢٧٨
(٣) سورة البقرة آية ٢٧٨
(٤) سورة البقرة آية ٢٧٩

ومن يومئذ عرف الناس أن المرابى لاحق له فى الربا وليس له سوى رأس المال فقط إذا كان يريد رضوان الله . وله حق المطالبة برأس المال مالم يكن المدين معسرا . فإن كان معسراً فعلى الدائن إنظاره حتى تتيسر أحواله المالية فيؤدى ماعليه .

وألزم الإسلام المدين بأداء ماعليه فى حالة اليسر وإلا كان مستغلا مما طلا وللدّائن فى هذه الحالة مقاضاته .

أما فى حالة العسر فعليه إنظاره وله بكل يوم أجر بقول الرسول ﷺ (من أنظر معسرا كان له كل يوم صدقة) [1] .

* (بين الربا والبيع)

لأن الربا معاملة خطيرة بين طرفين أحدهما محتاج إلى المال والثانى مستغل شره فقد حرمه الله تعالى . وأنحى باللائمة على من يعرفون الحكم ثم يتمادون فى هذا الطريق الوعر . أما البيع فإنه معاملة بين طرفين عن رضاء وعدم استغلال . لان المشترى يدفع الثمن الذى يرضيه غير مرغم على ذلك تحت وطأة الحاجة . ولهذا كان الفرق بينهما كبيرا كما أوضحته الآية ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا ﴾ [2] .

ولهذا أيضا وردت الأحاديث مهددة المرابين المستغلين وجاعلة الربا فى عداد كبائر الذنوب يقول ﷺ « أجتنبوا السبع الموبقات قالوا : يارسول الله وما هى ؟ قال : الشرك بالله . وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق . وأكل الربا . وأكل مال اليتيم . والتولى يوم الزحف . وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات » [3] .

وأكثر من ذلك فقد عرض نفسه لغضب الله كمن كان له صلة بالربا . بين ذلك الرسول ﷺ بقوله (لعن الله آكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهديه . وقال هم سواء) وأشار الرسول ﷺ إلى عظم جرم الربا فقال (لدرهم ربا أشد على الله تعالى من ست وثلاثين زنيه) [4] .

---

(١) رواه أبو جعفر الطحاوى
(٢) البقرة آية ٢٧٥
(٣) متفق عليه
(٤) رواه الدارقطنى

الحكم النهائى على المرابى

: أصدر الرسول ﷺ حكما نهائيا على المرابى المستحل لما يأخذ العالم بالحكم وذلك فى قول ابن عباس رضى الله عنه (من كان مقيما على الربا لاينزع عنه فحق على إمام المسلمين أن يستتيبه فإن نزع وإلا ضرب عنقه) [1]

* وأخيرا .

كفى بالربا إثما أن يحاول من لايدينون بدين كالشيوعيين إظهاره بمظهر الاختلاس للأموال المملوكة للناس دون وجه حق وخاصة العمال الكادحون يقول « كارل ماركس » (أن الربا واحد من مظاهر اللصوصية التى تسلكها الرأسمالية فى سلب حقوق الطبقات العاملة سواء كان المستولون على جزء من أجر العامل ملاكا أو مرابين أو منتجين فهم جميعا آكلون لأموال الناس بالباطل)

ومن هنا حرم الشيوعيون التعامل بالربا فيما بينهم . وإن كانوا يتعاملون به مع غيرهم ولَيْت الحكومات الإسلامية تتبنى أسلوبا للتعامل بعيدا عن الربا الذى أنتشر كالوباء وتغلغل فى حياة الناس .

والذى يقرأ القرآن يجده مليئا بأساليب المعاملات التى لو أخذت بها الأمم وعلى رأسها أمة الإسلام لتجنبوا الكثير من الويلات والكوارس الاقتصادية التى تحل بهم من جراء الربا .

وعلى سبيل المثال : يمكن أن تقوم بنوك برءوس أموال إسلامية لإقراض الدولة المسلمة المحتاجة على أن تكون البنوك شريكة فى الربح والخَسارة مع الدول المقترضة . خاصة إذا كان لهذه البنوك أجهزة إدارية نظيفة تطبق التعامل الإسلامى عملا وقولا . وتقوم بالإشراف الفنى على المشروعات التى تستثمر فيها الأموال الإسلامية .

والاموال ولله الحمد كثيرة لدى بعض الدول الإسلامية وعلى رأسها تلك التى رزقها الله نعمة البترول فى أراضيها . وبدل أن توضع هذه الأموال فى بنوك أجنبية تستثمر بفائدة أوبغير فائدة . ثم يعود الخير فيها على أعداء الإسلام الذين يردون الجميل

---

(١) راجع القرطبى تفسير سورة البقرة

بطريقة انتقامية وفى صورة مساعدات لاعدائنا الصهاينة . بدلا من ذلك كله توجه الأموال العربية الإسلامية إلى عمل نافع عربيا وإسلاميا يؤخذ من ريعه الحلال وينفق على نشر الدعوة الإسلامية وتحسين حال المسلمين المستذلين للمرابين .

وهذا الرأى له أصول فى المعاملات الإسلامية تسمى (المضاربة) وأصول أخرى هى (الشركة) وفيه الخير والبركة كما ورد عن رسول الله ﷺ « ثلاث فيهن البركة : البيع إلى أجل . والمقارضة . وخلط البر بالشعير للبيت لا للبيع » .

*** فوائد البنوك :**

يتسائل كثير من الناس عن الفوائد التى تعطيها البنوك وجهات الادخار فى البريد وغيره هل هى حرام أم حلال ؟

والرد الصريح على ذلك هو التحريم القاطع الذى لايؤثر فيه تشدق المتشدقين ولاتعليل الضعفاء بإنه عمل أقتصادى لابد منه ويحتجون بإنه نظام دولى معمول به فى العالم أو بأنه يوضع فى مشروعات اقتصادية ناجحة .

والإسلام فى غنى عن هذا اللف والدوران فى محيط الحرام . وإذا أعدلنا عن الربا فلن ينهار الاقتصاد .

وكم من دولة إسلامية بعدت عن الربا ولم يضع إقتصادها أو تتعثر خطاها فى التنمية . ثم إن الإثم الأول على المسلمين الأغنياء الذين ضعفت هممهم وتزعزعت ثقتهم فى دينهم . وتمزقت كلمتهم وانطوى كل منهم على ماله يلتمس الربح فى طريق حرام . ومن باب مشبوه لينمى ذلك المال غير مبال بحكم الله مستجيبا لنزعة حب المال وجمعه ﴿ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ [1] يزين لهم الشيطان جمع المزيد من الثروة بأى وجه :

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ

---

(١) سورة الفجر آية ٢٠

ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾[1]

ولاشك أن النظام الربوى قد قام بوضعه والترويج له الاقتصاديون اليهود - والمستثمرون الذين أفسدوا حياتنا الدينية والمالية والخلقية . لينعموا هم بالربح الوافر . رغم أن الإسلام وضع لنا أسلوب التعامل الصحيح حفظا للقيم الإنسانية وإبقاء على الثروة من الضياع . وذلك فى أطول آية فى كتاب الله هى آية المداينة التى سنتعرض لبحثها عقب الانتهاء من هذه السطور ومن أراد المزيد فليرجع إلى كتاب التوجيه التشريعى فى الإسلام - الصادر من مجمع البحوث الإسلامية .

★ ★ ★

(١) سورة آل عمران آية ١٤

الديون والمعاملات

قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ ۚ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[1] .

بعد أن تناول القرآن فى الآيات السابقة موضوع الربا . لم يترك الناس فى حيرة من أمرهم يتخبطون فى معاملاتهم بين الحلال والحرام . بل وضع لذلك عدة قواعد تمكن الناس من الاحتفاظ بأموالهم وصيانتها من عبث العابثين . فنظم بتلك القواعد الحياة الاقتصادية التى هى عماد كل أمة وسندها .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٨٢ ، ٢٨٣

ولقد كان بعض الناس يأخذون الأموال من غيرهم عن طريق البيع والشراء أو الإقتراض أو شراء الشيء قبل بدوه وصلاحه. ثم ينكرون أنهم أخذوا منهم شيئا. وذلك لأن أصحاب الأموال لم يكتبوها فى وثائق تضمن لهم حقهم. ولهذا تكفل الإسلام بوضع المداينات موضع الإهتمام. وحث على رعايتها. وأمر بتوثيقها عن طريق الكتابة حتى لايجحدها المبطلون من الناس.

طرق إثبات الحق

حدد الإسلام لنا عدة طرق يثبت بها الحق :

(١) الإثبات بالكتابة ومايسمى فى العرف التعاملى بـ (التوثيق الكتابى). فقد تحدثت الآية عن ضرورة إثبات الدين فى الوثيقة (إيصال أو كمبيالة) مهما قل قدره كما حثت على أن يقوم بالكتابة كاتب عدل مؤتمن. وأبعد من ذلك وبعدا عن الشك جعلت الذى عليه الدين هو الذى يقوم بالإملاء حتى يكون مأخوذا بما أعترف به. وطلبت منه كذلك أن يتقى الله ربه فلا يبخس الناس أموالهم. ولاينكر منها شيئا أثناء الإملاء ﴿ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ﴾.

وطلبت ممن يقوم بوظيفة الكتابة أن يكتب بالحق الذى علمه الله إياه. فلا يميل إلى أحد الطرفين ولا يغير فى القيمة أو المدة ﴿ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ﴾ (١) وأيضا فلا يكتب كلمات تحتمل أكثر من معنى حتى لايوقع المتعاملين فى الشك أو يترك لهم فرصة التلاعب بالألفاظ.

كما نرى الآية تتحدث عن الإشهاد على الوثيقة فاشترطت لذلك شاهدين عدلين بحيث لايشهدان إلاعلى شيء واضح ومقرر. فإن لم يوجد حال الكتابة رجلان أمكن إشهاد رجل وامرأتين. لأن شهادة المرأتين تعدل شهادة رجل واحد قال الله تعالى : ﴿ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾ (٢) وهذا النوع من الإثبات يضمن الحق لصاحبه.

(١، ٢) سورة البقرة آية ٢٨٢

وإذا كان القانون الوضعى يلجأ إلى ذلك المستند الكتابى عندما يزيد المبلغ عن عشرة جنيهات . ويحتم وجود ذلك المستند ليحكم لصاحب الحق بمقتضاه ولا يطلب مستندا كتابيا فى الدين الذى يقل عن عشرة جنيهات . فإن الإسلام منذ أربعة عشر قرنا قد حرص على أموال الناس . وطالب بضرورة إثباتها قلت أم كثرت ضماناً للحقوق .

وكان الإسلام فى هذا مرنا كل المرونة . فلم يلزم الدائنين بصيغة معينة للتوثيق ولابلغة محددة كذلك . بل ترك لهم الأسلوب الذى يرتضونه ويتفقون عليه فيما بينهم ليتمشى هذا العمل حسب الروح السائدة فى كل عصر . وكان المسلمون بذلك نواة لجامعة تجارية عالمية متطورة . ولاضير عليه فى كل مايدعيه الأقتصاديون من أنهم حققوه فى المحافظة على الأموال وأنهم ابتكروا السندات (الكمبيالات البوالص . الحوالات . مسك الدفاتر) لأن ذلك كله تطبيق للحقيقة التى أثبتها القرآن من قبل ﴿ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ﴾ .

سبب نزول الآية :

عندما هاجر المسلمون إلى المدينة وجدوا المعاملات المالية تشتمل على الربا الذى كان شائعا بين اليهود وبين العرب .

ووجدوا أن البعض يسلف البعض الآخر مالا على شىء غير موجود أثناء البيع وإلى أجل غير محدد . وكذا نوع من التعامل يسمى (السلم) وهو من بيع الغائب الذى يحتاج الناس إليه فصاحب المال لايحب أن يحبس ماله عن التداول . وصاحب الأرض يحتاج إلى المال لشراء البذور والسماد . فكان صاحب المال يعطى صاحب الارض مالا ليدبر به أموره فى مقابل أن يأخذ الدائن من إنتاج الأرض كذا وكذا أردبا . وفى هذه الحالة ينتفع كل منهما . الدائن برخص الثمن . والمدين بزراعة أرضه وتهيئتها .

ومما لاشك فيه أن السعر فى هذه الحالة يكون أقل منه عند الحصاد وبُدُوّ صلاح الثَّمَر . فأباح الشرع هذا النوع من المعاملات بين الناس كصورة وحيدة مستثناه من بيع الغائب . ولكنه اشترط لذلك شروطا هى : أن يكون المسلم فيه موجودا غالبا عند

حلول الأجل . وأن يكون السَّلَمْ فى شىء محدود بالوصف أو الوزن أو الكيل وأن يكون لمدة معلومة . وأن يكون مؤجلا . وأن يقبض الثمن عند الإتفاق الأولى والرسول ﷺ يقول (من أسلف فليسلف فى كيل معلوم ووزن معلوم إلى أحل معلوم) [٦] .

والآية التى معنا نزلت لتحدد للناس طريق تعاملهم ولتحثهم على كتابة مابينهم من المعاملات .

ومن هنا نرى أن بعض مايقوم به بعض التجار من إعطاء المزارعين مبالغ مالية يستعينون بها على زراعة القطن أو الأرز أو الفول السودانى وغيرها . على إن يشترى الممولون منهم الأشياء بالسعر المناسب عند حصادها . أقول أن هذا التعامل يعتبر سليما ولا شائبة فيه طالما أن الثمن دفع مقدما فى مجلس العقد .

هذا كله فى النوع الأول من الإثبات بالكتابة . وهذا يتحقق فى المعاملات بين الناس بالصورة التى بيناها آنفا . وهذا يدل على مدى التيسير الذى اشتملت عليه الشريعة الإسلامية فى المعاملات .

(٢) الرهـــن :

فى حالة ماإذا لم يجد المتعاملون كاتباً يكتب لهم مابينهم من تعامل . أو وجدوه ولكنه غير مؤتمن بأن اشتم أحدهم منه الميل إلى الآخر . فهنا لابد للاستيثاق للمال من الرهن بأن يقدم المحتاج شيئا عينيا يضمن للدائن حقه كعقد قطعه أرض أو حيوان أوذهب أو عقد منزل إلى آخره . وفى هذه الحالة لابد من قبض هذا الشىء ليكون تحت يد صاحب المال بحيث يمكنه التصرف فيه بالبيع وأخذ حقه منه ورد باقى الثمن إلى المدين فى حالة ماإذا لم يؤد المدين ماعليه فى الأجل المحدد للأداء .

وليس معنى أخذ صاحب المال حقه من الشىء المرهون أن يستولِىَ عليه كلِّه فى مقابل الدين بأن يزرع الأرض ويستولى على غلتها دون مقابل . أويؤجر المنزل لآخرين وبأخذ قيمة الإيجار مقابل إنتفاع المدين للمال . وإنما يباع الشىء عند العجز عن الوفاء كما سبق .

---

(١) رواه البخارى ومسلم

والآية هنا تنهج نهجا رشيدا لحفظ أموال الناس من الضياع وتيسر التعامل بينهم قال تعالى ﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ﴾

تساؤل وارد :

هل ينتفع المرتهن بالشيء المرهون عنده ؟

للرد على هذا التساؤل نستعرض وجة نظر السادة الأئمة . فالإمام مالك يرى أن صاحب المال له الانتفاع بالشيء المرهون عنده سواء أذن فى ذلك الدائن أم لا . ويرى الجمهور خلاف ذلك . ويؤكدون عدم الانتفاع بالشيء المرهون لان صاحب المال فى هذه الحالة يكون قد حقق مصلحة لنفسه مقابل الإقراض . ويستدلون على ذلك بالقاعدة الشرعية التى تقول (كل قرض جر نفعا فهو ربا) هذا فى الشيء المرهون الذى لايحتاج إلى نفقة تحفظ حياته . أما الذى يحتاج إلى نفقة كالحيوان فقد أباح الشارع الانتفاع به مقابل الإنفاق عليه .

فأنه يركب أو يحمل عليه مقابل إطعامه . تحقيقا لقوله ﷺ « الظهر يركب إذا كانا مرهونا . ولبن الدر يشرب إذا كان مرهونا . وعلى الذى يركب ويشرب النفقة »[1] ويؤكده حديث يقول فيه رسول الله ﷺ (لايَغْلَقُ) الرهن من صاحبه له غُنْمُه وعليه غرمه)[2] هذا إذا لم يأذن المدين بالركوب ولابشرب اللبن . وهو فى الحالة يتحمل النفقة رغم وجود الحيوان فى يد الدائن وقد أتفق العلماء على مايلى :

(١) عقد الدين عقد استيثاق يقصد به ضمان حق الدائن لدى المدين لانفعه . وأن الدائن مقدم على غيره من الغرماء باستيفاء حقه من هذه العين المرهونة .

(٢) عينُ الرهن ومنافعُه المتصلةُ به والمنفصلةُ عنه مملوكة للراهن لاللمرتهن .

(٣) نفقة العين المرهونة مطلوبة أصلا من الراهن لا من المرتهن . لان العين ملكه . فإن قام بها فذاك والا قام بها المرتهن صونا لحقه المضمون بالرهن

هـذا بيان للناس

إن مايقـوم به النـاس الآن من صور الرهن كله باطل . وذلك لأنهم يزرعون

---

(١) رواه الجماعة إلا مسلما والنسائى

(٢) رواه الشافعى والأثرم والدارقطنى

الأرض المرهونة ويستولون على إنتاجها دون مقابل لذلك . بحجة أن أموالهم لدى المدنيين أصحاب الأرض وقد انتفع المدينون بها فلا ضير على الدائن إذا أنتفع بزراعة الأرض . والعلة فى تحريم الانتفاع بهذا الشكل من قبل الدائنين . أن صاحب المال استفاد مقابل ماله . وقد تصل الغلة المأخوذه من الأرض أو من إجار المنزل المرهون أضعاف المبلغ الذى لدى المدين . ولاشك أن هذه الطريقة صورة قبيحة من صور الاستغلال البشع الذى حرمه الإسلام . والرسول ﷺ يقول « لاضرر ولا ضرار »[1] وهناك مسوغ يمكن أن يخفف العبء عن المدين وهو أن يأخذ الدائن الأرض مقابل إيجار يخصم من قيمة المبلغ الذى لدى المدين . وفى هذه الحالة تكون المعاملة إسلامية لاإستغال فيها . لأن باب الأيجارة معلوم فى الفقه الأسلامى فليرجع إليه المستزيد .

٣ ـ الأمانة وحسن النية

فعندما لايجد المتعاملون كاتبا عدلا . ولايجد المدين مايقدمه إلى الدائن ضمانا لماله فهناك طريق ثالث هو حسن النية التى تبدوا بين كل من الدائن والمدين . وأحساس الدائن بأن المدين ثقة يمكن أن يؤدى ماعليه دون مشقة أو إنكار يقول الله تعالى ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ﴾[2] .

ويقول الرسول ﷺ « أد الأمانة إلى من ائتمنك » فالشرع يجيز هذا النوع من التعامل بين المسلمين توثيقا للروابط . ويحث المدين على أداء الدين الذى عبر عنه بالأمانة . وعلى عدم المماطلة فى إيصال الحق إلى صاحبه . وإلا كان ظالما لنفسه ولغيره بنص حديث الرسول ﷺ (مَطْلُ الْغَنِيِّ ظُلْمٌ)[3] وختم هذا الحديث بالأمر بالتقوى .

وحذر مما يلحق المدين المنكر من غضب الله إذا لم يؤد ماعليه . وأعلمه بأن صاحب النعم الذى رباه على خيره يأمره بشكر النعمة الذى يصدق بأداء الأمانة .

ولذلك قال الله تعالى ﴿ وليتق الله ربه ﴾ وبين أن الذى يكتم الشهادة يأثم

---

(١) رواه أبو داود والترمذى

(٢) سورة البقرة آية ٢٨٣

(٣) متفق عليه

قلبه . وأن هذا الكتمان لن يفيده بشىء . ولأنه سيحاسب بين يدى العليم الخبير الذى لا تخفى عليه خافية .

خـاتمـــه

بعـد هذا كله ندرك حرص الإسـلام على الأمـوال . ومتـابعته لها حتى تسلم لأصحابها ليقيموا بها حياتهم . وندرك كذلك أنه لايذم المال إلا إذا كان القائمُ عليه غير عارف لحق الله فيه . ولذا قال ﷺ « نعم المال الصالح للرجل الصالح » [٧] ورأيناه ﷺ يدعوا لأصحابه بالبركة فى المال . وها هوذا يدعو لأنس بن مالك بقوله (اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيه) [١] .

كما أمر الإسلام بحفظ المال وعدم إضاعته أو إعطائه لمن لايحسن إدارته ﴿ ولا تؤتوا السفهاء أموالكم) [٢]

واللـــه أعلـــم

---

(١) رواه أحمد وابن منيع

(٢) رواه أصحاب السنن

العـــدة

قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ (١).

هذه الآية تبين أن المرأة إذا طلقت بعد عقد قرانها وقبل دخول زوجها بها . لاعدة لها وتحل للزواج فور طلاقها . ولها نصف الصداق المسمى بين زوجها وبين ولى أمرها . ومن هنا يلزم أن نتحدث عن العده وعن أنواعها .

أما العدة فهى الفترة التى تتربص فيها المرأة لمعرفة ماإذا كانت حاملا أم لا .

أنـــواع العـــدة

يمكن أن نعرف أيام العدة من التقسيم التالى :

ا ـ امرأة عَقَد زَوْجُها عليها ثم طلقها قبل الدخول بها فلاعدة لها وهذا هو الحكم الذى قررته الآية التى معنا . وليس لها سوى نصف الصداق المسمى فى العقد جبرا لخاطرها وتطييباً لنفسها .

ب ـ امرأة دخل بها زوجها فعلا وهذه يظهر لنا معها مايلى :

(١) إذا كانت امـرأة عادية تحيض كل شهـر فعـدتهـا بعـد الطَّلاق ثلاثة قرؤ (حيضات) لقوله تعالى ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾(٢) بمعنى إنها لاتحل للأزواج إلا بعد أن تأتيها العادة الشهرية ثلاث مرات وتطهر منهن .

ولزوجها أن يراجعها قبل بدء العادة الثالثة إن أراد الإبقاء عليها .

---

(١) سورة الأحزاب آية ٤٩

(٢) سورة البقرة آية ٢٢٨

فإن وصلت العادة للمرة الثالثة ولم يراجعها أصبح كالأجنبى عنها يخطبها من ولى أمرها ويعقد عليها عقدا جديدا بصداق جديد .

(٢) إذا كانت المرأة صغيرة لاتحيض لعدم بلوغها . أو كانت كبيرة السن وأصبحت بائسا (لاتأتيها العادة) وهى غالبا من الخامسة والأربعين إلى الخمسين . فعدة كل من هاتين المرأتين ثلاثة أشهر لقوله تعالى ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ ﴾[1] أى فعدتهن كذلك ثلاثة أشهر .

(٣) امرأة مات عنها زوجها سواء كانت معتادة للحيض أو لم تأتيها العادة لصغر أو يأس فعدتها فى كل الحالات أربعة أشهر وعشرة أيام لقوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾[2] .

(٤) أمرأة حامل : عدتها للطلاق أو الوفاة وضعُ الحمل . فبمجرد الوضع تكون حلالا للازواج ولوكان الوضع بعد الطلاق أو الوفاة بيوم واحد لقوله تعالى ﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾[3] .

ولقد طابقت السنة الكتاب فى هذا الحكم . روى أن سبيعة الأسلمية مات عنها زوجها وكانت حاملا وبعد فترة وجيزة وضعت فجاءها الخُطَّاب الراغبون فى الزواج فقالت : حتى استأذن رسول الله ﷺ . فلما استأذنته أفتاها بجواز نكاحها . تقول سبيعة فى ذلك « فأستفتيت رسول الله ﷺ فأفتانى بأنى قد حللت للأزواج حين وضعت حملى وأمرنى بالتزوج إن بدا لى»[4] .

---

(١) سورة الطلاق آية ٤
(٢) سورة البقرة آية ٢٣٤
(٣) سورة الطلاق آية ٤
(٤) أخرجه البخارى ومسلم والنسائى

وقال الإمام ابن كثير فى تفسير قوله تعالى ﴿ وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾ قال : يقول الله تعالى . ومن كانت حاملا فعدتها بوضعه ولوكان بعد الطلاق أو الموت بفواق ناقة . وقد أجمع على ذلك جمهور السلف والخلف .

الحكمة من العدة

والحكمة من العدة عدم اختلاط الأنساب . لأن المرأة إذا تزوجت عقب الطلاق أو الموت دون أن تنتظر إنتهاء فترة العدة قد تكون حاملا حملا مبكرا ولم تعرف ـ وعند الوضع يختلط الامر . أهو من زوجها الأول أو من زوجها الثانى ؟؟ فيقع اللبس . وقد يُورَّث من الأول وليس ابنا له . أو من الثانى كذلك ولذلك شرعت العدة وطلب من المسلمين إحصاءها بدءاً ونهاية أما بدءا فلئلا تتضرر المرأة بطولها . ومن هنا كان الطلاق أثناء الحيض أو النفاس طلاقا بدعيا مخالفا للسنة ولمراد الشرع لأن الله يقول لرسوله محمد ﷺ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ ﴾ (١) .

فلابد إذن من وقوع الطلاقَ بعد الطهر من الحيض أو النفاس . بل ذهب الشرع إلى أبعد من ذلك فجعل الطلاق فى طهر مسهافيه يعتبر طلاقا بدعيا . حتى أن بعض فقهاء الشيعة يرون عدم وقوعه فى هذه الحالة .

وأما إحصاؤه نهاية فلتمكين الزوج من مراجعة زوجته قبل انتهاء عدتها . لأنها لو انتهت عدتها حرمت عليه زوجته إلا بعقد وصداق جديدين كما أوضحنا آنفا .

ثم إن العدة فرصة يراجع الرجل فيها نفسه فقد يكون تسرع فى الطلاق وظلم زوجته والشرع يعطيه الفرصة لمراجعتها رابا للصدع . ومساعدة على إعادة المياه إلى مجراهاالطبيعى . وتهيئة لهذه الفرص فإن الشرع أمر الرجال بعدم أخراج المطلقات من بيت الزوجية حتى تنتهى العدة . إلا إذا كانت المطلقة سليطة اللسان سيئة الخلق

---

(١) سورة الطلاق،يَة ١

تؤذى الزوج أو الأسرة بلسانها . فإنها فى هذه الحالة تخرج من البيت قال الله تعالى ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۚ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ ﴾ (١).

ذلك كله تمكين للأسرة من الالتئام وللحياة الطبيعية المتمثلة فى الألفة والمرحمة أن تعود . وكذلك تمكين لمكانة الأسرة فى المجتمع ﴿ إن الله بالناس لرءوف رحيم ﴾

★ ★ ★

(١) سورة الطلاق آية ١

امتحـان المؤمنات المهاجرات

قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۚ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۚ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾ (١) .

سبب نزول الآية :

فى السنة السادسة من الهجرة وقِّعت معاهدة بين رسول الله ﷺ وبين المشركين فى منطقة الحديبية . وكان من بين شروط هذه المعاهدة أنه لو هاجر أحد المسلمين من مكة إلى المدينة دون إذن من سادة مكة فعلى المسلمين أن يردوه إلى مكة ولايقبلوه بينهم .

وإذا أرتد أحد المسلمين ورجع إلى مكة لايرده المشركون إلى المدينة . وكان هذا الشرط بادى القسوة على المسلمين حتى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ناقش أبا بكر ر ضى الله عنه بحدة فى هذا الشرط . ومالبث أن فاتح فيه رسول الله ﷺ بنفسه . ولكن الرسول أقنعه وبين له الحكمة فى قبول هذا الشرط . وأن الله لن يضيع رسوله والمؤمنين . ثم حدث أن امرأة مسلمة هى أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط

---

(١) سورة الممتحنة آية ١٠ ، ١١

هاجرت إلى المدينة وتركت زوجها . فخرج أخواها عمارة والوليد حتى قدما على رسول الله ﷺ . فكلماه فى أمرها ليردها معهما تطبيقا لنصوص المعاهدة . فنزل قول الله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ﴾[1] فكان هذا التوجيه من الله حيث أمر رسوله بنقض العهد بينه وبين المشركين بالنسبة للنساء خاصة . وبعدم رد أم كلثوم مع أخويها .

ثم أمره بامتحان كل من تأتى مهاجرة لمعرفة سبب هجرتها . وكان الامتحان عبارة عما أورده عبد الله بن عباس فى قوله . كان رسول الله ﷺ يمتحنهن : بالله ماخرجت من بغض زوج . وبالله ماخرجت رغبة عن أرض إلى أرض . وبالله ماخرجت التماسا لدينا . وبالله ماخرجت إلاحبا لله ولرسوله ﷺ .؟ فإذا أقرت بذلك كله وأعترفت بإيمانها بالله ورسوله ترتب على ذلك مايلى :

(١) عدم إرجاعها إلى زوجها الكافر لأنها حرمت عليه وحرم عليها ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾[2]

(٢) أن يدفع المسلمون إلى الأزواج المشركين مما أنفقوه من صداق على زوجاتهم المسلمات المهاجرات ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾ وذلك جريا على نهج العدل الذى دعا إليه الإسلام . وحتى لايضار الزوج المشرك ماديا بترك زوجته له .

(٣) إذا تم هذا حل للمسلم أن ينكح المسلمة المهاجرة بعد انتهاء عدتها من زوجها المشرك ودفع صداقها ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾[3]

ثم وضح فى الآية حكم « جديد » يحرم على المسلم الإبقاء على زوجته المشركة فى عصمته . فاما أن تسلم واما أن يطلقها ﴿وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ فإذا

---

(١) سورة الممتحنة آية ١٠

(٢) سورة الممتحنة آية ١٠

(٣) سورة الممتحنة آية ١٠

ماتمسكت الزوجة المشركة بشركها ولحقت بأهلها كان للمسلم أن يطالب أولياء أمرها بما أنفقه عليها من صداق . وحيث أباح الإسلام للمسلم ذلك فإنه أباح للمشرك كذلك المطالبة بما أنفقه على زوجته إذا هاجرت ﴿وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟﴾ (١)

فهذا حكم الله ينطبق على المسلمين والمشركين . ولكن المشركين رفضوا دفع شيء إلى المسلمين الذين تتمسك نساؤهم المشركات بالبقاء على شركهن . مقابل ماأنفق هؤلاء المسلمون . فبرز حكم آخر هو أن يقوم المسلمون بإعطاء أخيهم المسلم الذى أبت زوجته الإبقاء على الشرك . مقدار ماغرمه . وتكون هذه النفقة من بيت المال :

﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ﴾ (٢)

وأخيرا صدر الأمر إلى المسلمين بالتقوى لئلا يظلم بعضهم بعضا . وهذه طريقة الإسلام دائما حيث يشعر المسلمين بالخوف من الله فى كل حال ليطبقوا أوامره بدقة .

والله أعلم

★ ★ ★

(١) سورة الممتحنة آية ١٠

(٢) سورة الممتحنة آية ١١

الجهـاد فى الاسـلام

قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[1].

إن الجنود يحتاجون إلى رفع الروح المعنوية بصفة دائمة وعلى الأخص قبل لقائهم مع عدو الحق . ولقد أخذ الله سبحانه على نفسه القيام بهذه المهمة فنرى الآية التى معنا تحث المؤمنين على الصبر والمصابرة والمرابطة وتقوى الله سبحانه ضمانا للفلاح والنصر .

ونراه سبحانه فى بدر يوحى إلى الملائكة بما يثبت الروح المعنوية لدى المقاتلين فى سبيل الله لتكون روحهم المعنوية فى أعلا درجاتها ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾[2] ثم يردف ذلك ببشرى أخرى وهى توهين المشركين وزلزلتهم عند اللقاء (سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب)[3] الأمر الذى كان سببا فى نصر المؤمنين وأكد الرسول ﷺ فى قوله (نصرت بالرعب) .

والتاريخ يحدثنا أن الروح المعنوية لدى الجنود لها مفعول أكيد فى ضمان النصر . يقـول المارشال (مونتجو مرى) قائد معركة العلمين (إذا أردت أن تكسب الحرب فاكسبها أولا فى قلوب رجالك) ورأينا قبل ذلك البطل المسلم خالد بن الوليد يأخذ بهذا المبدأ فى معركة اليرموك حيث رأى ضرورة إذكاء الروح المعنوية فى جنوده الواقفين أمام جحافل الروم . فجاء بالنساء المسلمات وأعطاهن سلاحا وجعلهن صفا واحدا خلف صفـوف الرجال المسلمين وقال لهن (من رأيتنه يفر من الرجال المسلمين من المعركة فأقتلنه) فكانت هذه اللمحة الذكية من خالد بمثابة أشعال للروح المعنوية لدى العرب المسلمين الذين أخذتهم الحمية فحاربوا ببسالة وقضوا على جند الشيطان وأنتصروا فى المعركة .

---

(١) سورة آل عمران آية ٢٠٠

(٢) سورة الانفال آية ١٢

(٣) سورة الأنفال آية ١٢

(٢) قال الله تعـالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴾ [١] .

الأمر بالحذر يقتضى اليقظة التامة لكل تحركات أعداء الحق . وبذل الجهد فى الإعداد للمعركة التى تخلص المؤمنين من أطماع المتجبرين . وأيضا هو الضمان الأكيد لعدم تسرب الأخبار إلى العدو . أو نفع ذلك العدو بكلمة تقال من إنسان غير مقدر لخطورتها أو ترويج إشاعة مسمومة تكون لها عواقب سيئة . أو التهاون فى السلاح حتى لو كان المقاتل فى الصلاة :

﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ﴾ [٢]

ثم يبين الله سبحانه سبب أخذ الحزر . وأن الكافرين ينتهزون فرصة غفلة المؤمنين وانشغالهم :

﴿ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ﴾ [٣] والأمر بالحذر فى الإسلام قائم فى حالة السلم والحرب :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾ [٤]

أى أحذروا أزواجكم وأولادكم ولايدفعونكم إلى المعاصى لإرضاء أهوائهم ومطالبهم .

أما فى الحرب فالحذر أولى . ومن هنا تيقظ المسلمون لكل ماحولهم . وفتحوا أعينهم فلم يؤخذوا على غرة . وحتى فى غزوة أحد فإن الهزيمة لم تكن عن تقصير فى أخذ الحيطة . ولكنها وقعت عندما تركوا مواقعهم عامدين إلى جمع الأسلاب رغم تحذير الرسول ﷺ لهم بعدم ترك هذه المواقع .

---

(١) سورة النساء آية ٧١
(٢) سورة النساء آية ١٠٢
(٣) سورة النساء آية ١٠٢
(٤) سورة التغابن آية ١٤

ثم أعلمنا التاريخ بمضمون الوصية الخالدة التى بعث بها عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى القائد سعد بن أبى وقاص والتى يقول له فيها بعد حمد الله والثناء على رسوله والوصية بالتقوى (توق من البيات جهدك) أى أحذر العدو تماما حتى لايفاجئك أثناء الليل (وَأَذْكِ عيونك) أى بث رجالك حول عدوك لتعرف أخباره واستعداده (واعرف أرض عدوك كمعرفته بها) وهذا يستدعى إرسال (طوف) أى جماعة الإستطلاع مجهزين بوسائل نقل سريعة . حتى إذا حاول العدو أسرهم لايستطيع . وهذا ينزل الرعب فى قلوب الأعداء ويوقعهم فى الحيرة .

والآية بعد ذلك تصدر الأمر بالخروج للقتال عند سماع الدعوة إليه . وهى لاتستثنى أحدا عندما يكون العدو متقدما فى أرض المسلمين . وكلمة ثُبات تعنى جماعات ويعبر عنها بالوحدات الخاصة . يؤيدها قول الله تعالى فى آية أخرى من سورة التوبة ﴿ انفروا خفافا وثقالا) بمعنى قاتلوا : أغنياء وفقراء . رجالا ونساء . شبابا وشيوخا . أصحاء ومرضى . وهذا يؤكد أن المعركة بها مكان لكل مواطن وأن لقاء العدوا لايميز بين جنس وجنس ولابين شباب وشيخ ولارجل ولا إمرأة ولابين عمل وآخر فالكل يستطيع المساهمة فى المعركة بجهده ويؤدى دورا عظيما إذا أخلص العمل فى موقعه لله وهذا المعنى هو المقصود للحذر والأمر بالجهاد .

(٣) قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (١).

هذا أسلوب آخر من أساليب الترغيب فى القتال ضد أعداء الحق . فقد لمس الله نفوس المؤمنين بطريقة تميل إليها وتشد إنتباهها . وهى التجارة التى يتحقق فيها

---

(١) سورة الصف آية ١٠-

الريح فعندما نادهم بهذا النداء شدهم إلى مايريد إلقاءه إليهم فجعل الإيمان والجهاد بمثابة تجارة رابحة أحد طرفيها : الله الكريم . والثانى المؤمن المجاهد . ومما لاشك فيه أن ذلك نوع من التجارة لم يألفه غير المؤمنين المستعدين للبذل والتضحية . وإذا كان الناس يحرصون على المال والعقار حبا فى الدنيا . فإن الله العلى القدير أراد للمؤمنين الخير متمثلا فى تجارة من نوع جديد يبذلون فيها المال والنفس فى سبيل الله راضين مطمئنين . بعد أن بنى تلك النفوس على الإيمان الذى يدفع إلى التضحية بكل شىء .

والمؤمنون أحرص الناس على هذا النوع من المعاملة النادرة التى تدنيهم من رضوان الله وتمتعهم بسعادة روحية غامرة . ثم يزيد الله سبحانه فى الترغيب فى هذه التجارة النادرة فيقول :

﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۚ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[1] .

سبحانك يارب ياوهاب . بكل هذا الفضل وتلك البشريات تجود على المؤمنين المجاهدين فى سبيلك بالمال والنفس وتبشرهم بالفتح والنصر . يقول ابن عربى : مر أعرابى على رسول الله ﷺ فسمعه يقرأ ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ ﴾[2] فقال للنبى : كلام من هذا ؟ قال : كلام الله : فقال الأعرابى : ربح والله البيع والله لانقبله ولانستقبله . ثم مضى للغزو فقاتل حتى استشهد . وقال الحسن : أنفس هو خالقها وأموال هو رازقها يعطينا عليها الجنة أنه لربح عظيم .

---

(١) سورة الصف آية ١٢

(٢) سورة التوبه آية ١١١

ففى هذا كله رفع عظيم ورائع للروح المعنوية للمقاتل . وفيه من الترغيب فى التضحية والفداء مافيه . وسلعة الله لاشك غالية تحتاج إلى مقابل مناسب هو النفس والمال أو أحدهما والجنة فى الواقع هدية الله لكل من بذل فى سبيله حتى تعلو كلمة الحق وتخفق رايته بالعدل ويعم السلام كل الوجود .

(٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ (١)

عندما فرض الله الجهاد حرم على المؤمنين الفرار من الميدان إذا كانوا أكثر من عدوهم أو متساوين معه . أوكان عدوهم ضعفهم . والآية التى معنا تقول بصراحة ووضوح إذا لقيتم عدوكم فلا تفروا أمامه ولاتعطوه ظهوركم حتى لاتتعرضوا لغضب الله وسخطه .

ولقد نفر القرآن من الفرار فعبر عنه بتعبير لاذع وهو إعطاء الإنسان دبره لغيره وهذا الفرار الممقوت لايصدق على تغيير المؤمن موقعه إلى موقع آخر إمعانا فى التخفى من عدوه أو بعدا عن مرمى سلاحه . وهذا يسمى عسكريا (بالموقع التبادلى) والله سبحانه وتعالى يؤكد ذلك ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾ فبقاء الجندى المسلم فى موقع يعلم أن عدوه يرصده فيه ويمكن أن يصب عليه نيرانه . أمر لايقره الدين وجمود ترفضه الشريعه والقاء للنفس فى التهلكة . وكذلك لايصدق الفرار على من انكشف موقعه أو استشهد زملاؤه فى الجهاد فانضم إلى موقع آخر وزملاء آخرين يستعين بهم ويشد عزيمتهم وبكثر عددهم (أومتحيزا إلى فئة) فإن الجندى فى هاتين الحالتين يطبق (تكتيكا) حربيا تستفيد منه جماعته فلا يعتبر فارا ولايقع تحت طائلة التهديد بالعقاب .

---

(١) سورة الأنفال آية ١٥

ولقد حدثنا القرآن عن معنى عظيم ينقذ المؤمنين من الفرار ويؤكد لهم أن النصر من عند الله وأن قلة العدد ـ التى تغرى فى بعض الأحوال بالفرار ـ مع الإيمان والصبر والاستعداد تتفوق على الكثرة غير المتمسكة بالدين . وغير المستعدة سلاحا وتدريبا . وإن كانت مؤمنة مستعدة تماما ولكنها تتيه بكثرتها واستعدادها . غير آبهة بعدوها . والله سبحانه وتعالى يخبرنا عن القلة المؤمنة المستعدة فى موضعين :

الأول :

أصحاب طالوت مع قلتهم قهروا جنود جالوت :

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ ﴾[1] وانتهت أسطورة جالوت العملاق حيث قتله داود الشاب المؤمن .

الثانى

قصة الفئة المؤمنة فى بدر التى تغلبت على المشركين . وهم بنسة كبيرة عددا وعتادا .

وكانت نسبة المؤمنين إلى عددهم ١ ـ٣ . المسلمون ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا . والمشركون مابين التسعمائة والألف :

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾[2]

والتاريخ كذلك يعطينا صورة من القلة المؤمنة التى استعانت بالله واستعدت بكل مالديها من طاقة وعند لقائها بالأعداء كان النصر حليفها فى كثير من المواقف وذلك

---

(١) سورة البقرة آية ٢٤٩، ٢٥٠

(٢) سورة آل عمران آية ١٣

يظهر فى بدر وقد تقدم نصر الله فيها للمؤمنين رغم قلتهم كما يظهر فى سرية مؤته حيث كان عدد الروم فيها يربوا على مائتى ألف . وكان المسلمون ثلاثة آلاف . وفى حرب الردة وفى اليرموك التى كان عدد المسلمين فيها أربعين ألف مقاتل فى مقابل مائتين وأربعين ألف رومى وعربى متنصر .

وفى الأنـدلس كان عدد رجـال طارق بن زياد ألف وسبعـمائـة انتصروا على الأندلسيين بقيادة الملك (لذريق) وكان فى سبعين ألف مقاتل . ولم يفر من المسلمين أحد . ولم يثبت التاريخ فرار مسلم من عدوه .

ثم إن الفـرار من المعركة كبيرة من الكبائر يحذر منها الإسلام . والرسول ﷺ يوضـح ذلـك فيقول « أجتنبوا السبع الموبقات . قالوا وماهن يارسول الله ؟ قال : الشرك بالله . وعقـوق الـوالدين ـ قوله : والتولى يوم الزحف »[1] كما أن الفار من المعركة لاتجوز شهادته أمام القضاء . ومع أن المسلمين لم يفروا من الميدان فإنهم حينما تقهقروا فى مؤتة بقيادة خالد بن الوليد ليقللوا من الخسائر فى المجاهدين وحيث قام خالد بمناورته الذكية فى تغيير أجنحة الجيش ومقدمته ومؤخرته وغير خطة هجومه ونجا المسلمون . مع هذا فعندما رجعوا إلى المدينة قابلهم المقيمون بها وحثوا فى وجوه الجيش التراب وقالوا لهم فررتم من الأعداء ولكن الرسول القائد ﷺ أخبر هؤلاء اللائمين على خالد ومن معه . بأن خالداً فعل خيرا وأنه ومن معه لم يفروا . وإنما أنحازوا إلى رسول الله (إنحازوا إلى وأنا فئتهم) .

فإذا دخلنا المعركة ضد أعداء الحق فلنكن على استعداد كامل معنويا وماديا . ولنصـبر ونتـوكـل على الله فهـو سبحانه وتعالى مع المتوكلين عليه الآخذين بأسباب النصر . ولنعلم إننا أحفاد هؤلاء الرجال الذين بذلو وضحوا بكل شىء ولم يخرجوا رياء ولاتفـاخـرا وكانوا يعشقون الموت كما يعشَق غيرهم الحياة وسطر التاريخ لهم جسارة واقداما لم يعرفها من غيرهم ومن أراد المزيد من معرفة المقاتل المسلم فليقرأ عن نتائج حرب رمضان سنة ١٣٩٣ أكتوبر سنة ١٩٧٣ التى خاضها العرب المسلمون فى مصر وسوريا وحطموا فيها كبرياء الصهاينة وقضوا على أسطورة الجندى الإسرائيلى الذى لايقهر .

---

(١) متفق عليه

الثبات فى الجهاد من عوامل النصر

(٥) قال الله تعالى :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (١)

تستمر الآيات المحرضة للمسلمين على الثبات أمام عواصف الكفر وجبروت الاستغلال والتسلط ، والآيات التى معنا صريحة فى الأمر بالثبات وذكر الله بكثرة حتى يستشعر المقاتل بقلبه ولسانه وإحساسه قوة الله تعالى ، فلا يرهب قوة المخلوق مهما كانت ولايخشى عتاده الذى قد يشاع عنه أنه سريع الفتك . لأن الإيمان أقوى مضاء وأشد فتكا . وجنود الله أقوى بأساً ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ (٢) ولقد أخبرنا القرآن عن نماذج لتلك الجنود الرحمانية متمثلة ماديا فى الطير الأبابيل التى حملت حجارة موجهة من سجيل إلى العُصَاة الذين ظنوا أنهم يقدرون على هدم بيت الله الحرام . فظلت تلك الطيور تقذفهم حتى جعلتهم حسب تعبير القرآن كالعصف المأكول . كما تمثلت الجنود الإلهية فى العنكبوت التى نسجت خيوطها على فم الغار حماية لرسول الله ﷺ ليلة الهجرة .

وفى رفع الله روح المؤمنين فى غزوة بدر﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ (٣)

---

(١) سورة الأنفال آية ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧

(٢) سورة المدثر آية ٣١

(٣) سورة الأنفال آية ١٢

فلقد كان هذا التوفيق نتيجةً مباشرةً لذكر الله أثناء لقاء عدوهم وبالتالى كان سببا فى فلاح المؤمنين .

والذى يقرأ الآية السابقة ثم يتلو الآية التى معنا يجد أمرا ونهيا ، ففى الآية الأولى نهى عن الفرار ، وهنا أمر بالثبات وذكر الله . لأن ذكر الله يثبت القلب عند المحَن ولهذا وجدنا أصحاب الملك (طالوت) يدعون الله عند لقاء عدوهم ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (١) وفى الوقت ذاته تعيد الآية على أسماع المؤمنين ذكرى وعد الله لهم بالنصر إن هم قاتلوا صابرين محتسبين ، ووعد الله لايتخلف . ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ (٢) ثم يبدو فى الآية أمر ثالث بعد ذكر الله والثبات على الحق هو : طاعة الله ورسوله والتمسك بالدين والاستعداد للقاء بأقصى مايستطيع المؤمنون من قوة :

﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ (٣)

لأن المتكاسل عن الاستعداد والتدريب عاص لله ولرسوله ، مُفرِّط فى نفسه ودينه حيث يعطى عدوه فرصة التفوق .

لهذا وجدنا الرسول ﷺ يأمر بالتدريب المستمر وكان يشرف بنفسه على هذا التدريب . وبلغ من تكريمه لمن يتدربون على السلاح أنه دعاهم إلى التدريب فى المسجد وكان يشجعهم قائلا : (ارموا وأنا معكم) ويحذر من التهاون فى التدريب بقوله (من ترك الرمى فليس منا) والرمى هنا هو إصابة الهدف بالسهم أو المدفع . بالصاروخ والقنبلة . ولايقل أهمية عن ذلك التدريب على أعمال الدفاع الشعبى والمدنى لأنه نوع من أنواع الجهاد تحتاج إليه الأمة عندما تلقى عدوها .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥٠

(٢) سورة التوبة آية ١١١

(٣) سورة الأنفال آية ٦٠

ثم تضع الآية يدنا على أمر آخر له أهمية قبل دخول المعارك وأثناءها وبعدها هو وحدة الكلمة ووحدة القيادة والهدف . والبعد عن التفرق الذى يحدثه الجدل من غير طائل لأن ذلك يمزق وحدة المسلمين ويذهب بقوتهم فى وقت هم فى أشد الحاجة إليها أمام عدو وحد كلمته رغم أنه على باطل . ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ (١)

وكم من أمم ضاعت بسبب الشقاق وانشغال أبنائها بالخلاف فيما بينهم . بينما العدو متربص بهم متحفز للوثوب عليهم . وليس لديه إلا أن ينتظر حتى يضعفوا ويفتك بعضهم بعضا ثم ينقض ذلك العدو على البقية المنهوكة فيقضى عليها .

والتاريخ يحدثنا فيروى لنا أن السبب المباشر فى ضياع الأندلس من يد المسلمين بعد حكم ثمانية قرون هو تمزقهم . واستعان بعض المسلمين على بعض بأعداء الإسلام . حتى طمع فيهم من كان يخشى بأسهم مجتمعين . ولم يعد يهاب لهم قوة ولايخاف منهم بطشا . وضاع الإسلام ودالت دولته فى الأندلس وأصبح أبناؤه بين نارين إما القتل أو ترك الإسلام . وكل مايهم العدو هو التناحر الداخلى بين العرب ولقد قال (موسى ديان) : وزير الدفاع الإسرائيلى (سنظل واقفين على الشاطىء الشرقى لقناة السويس لأن وجودنا أشبهُ بموجات صوتيه تتردد فى داخل الأراضى المصرية فتحدث ضغطا على النفوس ثم تحدث فرقعة) يقصد بذلك كثرة الاضطرابات والخلافات الداخلية إلى أن تتحلل أركان الدولة فى مصر . كان هذا قبيل حرب أكتوبر ١٩٧٣ رمضان ١٣٩٣ المجيدة التى أطاحت به وبرجاله واستحكاماته من فوق الضفة الشرقية وقذفت بهم فى عمق سيناء وهى فى سبيل تحرير الأرض كلها من رجسه ورجس من معه .

ولقد وقفت الأمة العربية موقفا لم يكن يحلم به غير المؤمنين الواثقين من معدن هذه الأمة . واحدة صفا واحدا . هدفا واحداً لإتمام النصر بتحرير الأرض المغتصبة وإبراز الإرادة الفلسطينية الحرة .

ثم يأتى الأمر بالصبر لأن لقاء العدو يحتاج إلى الصبر والتحمل . وصفات المؤمنين

---

(١) سورة الأنفال آية ٤٦

إنهم صُبُرٌ فى الحرب صُدُقٌ عند اللقاء ولذا قالوا لرسول الله ﷺ قبيل غزوة بدر (إنا لصبر فى الحرب صدق عند اللقاء وسيريك الله منا ما تقرُّ به عينك) .

ويختتم الله سبحانه وتعالى الآية بالأمر بعدم الغرور عند الخروج للحرب . سواء كان بالسلاح أو الرجال حتى لانتشبه بأعداء الله الذين خرجوا مغترين بقوتهم وحَسَبِهم . وحسِبُوا أن النصر يأتى عن طريق السلاح أو القوة البشرية . ولقد وضح ذلك عندما خرج المشركون فى غزوة بدر معهم (أبو جهل) فى بطَر وعناد . وتجلى ذلك عندما بعث (خفَّاف الكتانى) بهدايا إلى (أبى جهل) وقال له عن طريق ولده : إننى على استعداد لإمدادك بالمال والرجال والسلاح أو الحضور بنفسى لأقف بجانبك ضد محمد ومن معه فقال أبو جهل : (إن كنا نقاتل الله كما يزعم محمد فوالله مالنا بالله من طاقة . وإن كنا نقاتل الناس فوالله إن بنا على الناس لقوة . والله لانرجع عن قتال محمد ﷺ حتى نرد بدرا فنشرب فيها الخمور وتعزف علينا القيان . فإن بدرا موسم من مواسم العرب وسوق من أسواقهم حتى تسمع العرب بمخرجنا فتها بنا أبد الدهر) .

وكانت نتيجة البغى والبطر والغرور الهلاك الذى وقع بهم فى بدر ولم ينفعهم إغواء الشيطان لهم ولاغرورهم بالمسلمين :

﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَٰٓءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (١)

فلقد تخلى عنهم الشيطان عندما رأى جنود الله تترى لنصر المؤمنين . ولاقِبَل للمشركين بهذه الجنود . فالقرآن يحذرنا عاقبة الغرور ويطلب منا التواضع مع العزة . وطلب النصر من الله وحده لأنه الذى يملك ذلك ولا يَهَبُهُ الا للبررة المتقين ﴿ وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾ .

---

(١) سورة الأنفال آية ٤٨

ولقد ربط الله سبحانه تحقيق النصر بشرط أخذه على المؤمنين هو انتصارهم على أنفسهم وإخضاعها للدين الحنيف بإحلال حلاله وتحريم حرامه فقال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ (١)

وفى نهاية الآيات يجب أن نعلم أن المحارب فى أشد الحاجة إلى أن يكون مع الله دائما قلبا وروحا ووجدانا حتى يستشعر عظمة الله . ولذلك وجدنا القرآن الكريم يعلِّمُ المؤمنين ذِكرْ الله سواء قبل لقاء العدو أو أثناءه متمثلا فى صلاة الحرب ، وصلاة الخوف كما يسميها الفقهاء . ولهذا صدر الأمر إلى رسول الله ﷺ بتعليم المحاربين كيفية أداء تلك الصلاة فى الميدان :

﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ ۖ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ ۖ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ ﴾ (٢) .

والمحارب المؤمن يدرك أن مصيره بيد الله سبحانه ، وأن الإقدام لايقصِّر العمر وأن الإحجام لايطيله . فهو دائم التفكير فى الله مستمر على طاعته . وذلك لأن ماعند الله من النصر لاينال بمعصيته . وإنما يدركه المؤمن بتقواه وصلاحه . ولهذا كانت الوصية بالتقوى من ألزم الأمور للمحاربين . فما من جماعة خرجت للقتال إلا كان الخليفة يزوِّد أميرها بتلك الوصية : (أوصيك ومَنْ معك بتقوى الله وطاعته) فيا جند الله عليكم بالثبات وذكر الله وطاعته والانقياد لشرعه ورسوله . وتجنبوا الشقاق والبَطَر والغرور عليكم أخيرا بالصبر حتى يحقق الله الأمانىَ لهذه الأمة .

---

(١) سورة محمد آية ٧

(٢) سورة النساء آية ١٠٢

(٦) قال اللـه تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (١)

عندما أمر الله رسوله ﷺ والمؤمنين بالجهاد حدد لهم الطريق الذى يسلكونه والعدو الذى يبدأون به .

والآية التى معنا توضح أن المطلوب قتال العدو الأقرب أولاً . حتى يأمن المسلمون غدره ويحموا ظهورهم عند الانطلاق لمن هو أبعد منهم . ولذا بدأ النبى عليه السلام بالمشركين أولا . فلما انتهى منهم بكسر شوكتهم وأمْن مكرهم ثنَّى بأهل الكتاب الأقربين وهم الروم المتغطرسون . والآية تحبِّذ الضربة الشديدة والمعاملة المناسبة لغطرسة هؤلاء الكافرين حتى يرتدعوا فيكفُّوا عن الإسلام والمسلمين مكرهم وخيانتهم .

والبدء بالأقرب ليس خاصا بالحرب فقط ، بل بالخير أيضا يقول الله تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ (٢) ويقول الرسول ﷺ : « ابدأ بنفسك ثم بمن تعول » (٢) وجاء رجل يسأل الرسول عمن يمكن البدء بهم فى البرِّ فقال له الرسول « أمك وأباك وأختك وأخاك ومولاك الذى يلى ذاك أمانة مؤداة ورحم موصولة » (٣) ومِنْ هنا نأخذ أن الجار الجُنُب وهو الأقرب بابا أحق بالرعاية ممن بعدت داره ﴿ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ ﴾ (٤) . قدّم الله تعالى فى البرِّ الجار القريب نسبا ثم الجار القريب بابا وذلك فضل الله يؤتيه لمن يشاء .

(٧) قال الله تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا

---

(١) سورة التوبة آية ١٢٣
(٢) سورة الشعراء آية ٢١٤
(٣) رواه الشيخان والطبرى
(٤) سورة النساء آية ٣٦

ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (١)

وعقب استقرار المسلمين بالمدينة بدأ الرسول ﷺ بإرسال البعوث والسرايا إلى المناطق القاصية والدانية ليعرض على أهلها لدخول فى الإسلام أو مسالمة المسلمين وعدم الاعتداء أو إعانة غيرهم عليهم ، ولتكن ضمانا تهم من أجل دفع الجزية للمسلمين عند عدم الدخول فى الإسلام مشاركة منهم فى حماية المسلمين لهم ، فإنْ أبوا الإسلام ورفضوا دفع الجزية وأصروا على كفرهم ومناوأتهم للإسلام وأهله قوتلوا لأن نواياهم خبيثة .

ولم يكن النصر محققا للسرايا فى كل الأوقات . فكان منها من يتخذ الله فيها شهداء من المسلمين فُيَمْنَوْن فيها ببعض الخسائر .

ولم يترك اليهود كعادتهم هذه الهنّاتِ البسيطه لتمر فى حالها . بل راحوا يثيرون زوبعة من التشكيك ، كلما قتل أحد فى سرية ويتجهون إلى إخوانهم فى الكفر والخبث وهم المنافقون ويقولون لهم : لو كان هؤلاء الذين قتلوا بسبب محمد مازالوا فى ديننا ما ماتوا وماقتلوا . لأننا أنصار سلام ولسنا أنصار حرب كمحمد ! فنهى الله سبحانه وتعالى المؤمنين عن ترديد قول هؤلاء الكافرين وصرف النظر عنهم وعدم التأثر بمقالتهم . لأن هذا المسلك من المسلمين يرد كيد الكائدين إلى نحورهم ويصيبهم بالحسرة فى قلوبهم . لأنهم لم يحققوا الأمل الذى راودهم ، وهو إظهار الامتعاض لدى المسلمين وبث روح التخاذل حتى لايطيعوا أمر الرسول ﷺ . فيترتب على ذلك عدم خروجهم فى السرايا الحربية فرارا بأرواحهم التى هى أغلى مايملكون ـ كما يزعم الخبثاء ـ ولذلك أخبر الله المؤمنين بأنه وحده القادر على الإحياء والإماتة . وإن كل

---

(١) سورة آل عمران آية ١٥٦ ـ ١٥٨

نفس لها أجلها المحدود . لاتتعداه بنقص أو زيادة ﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٢) والله سبحانه وتعالى بصير بكل مايعمله هؤلاء الكافرون . خبير بما فى نفوسهم من شر وتثبيط ، وسيجازى كلا على عمله إن خيرا فخير وإن شرا فشر .

ثم توضح الآيات إن الموت فى سبيل الله أو القتل خير من الدنيا وما فيها ، لأن الشهيد سينال مكرُمة عظيمة عند الله ويضاعف له الأجر وتحوطه العناية . ولاشك أن هذا كله خير مما يسعى الناس لتحصيله :

﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (٣) .

ولأن الناس لو جمعوا المال وتفاخروا بالأنساب والمناصب الدنيوية فلن ينتقل معهم من ذلك شىء إلى آخرتهم إلا إذا استخدموا مايجمعون فى الخير للصالح العام . أما إذا استعملوه فى الإضرار بالناس ولم يحسنوا علاقتهم بربهم فسيكون هناك الندم وسيقول قائلهم فى حسرة وأسى : ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴾ (٤) ولن يكون هناك اعتزاز بأسرة ولاعشيرة :

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ (٥) .

والله سبحانه يورد مقابلة بين المؤمنين المصدقين بالحق والكافرين به المستغنين بأموالهم :

---

(١) سورة آل عمران آية ١٥٤
(٢) سورة الأحزاب آية ١٦
(٣) سورة آل عمران آية ١٥٧
(٤) سورة الحاقة آية ٢٨ ، ٢٩
(٥) سورة عبس آية ٢٤ ـ ٢٧

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴾ (١)

والمرجع فى الحالتين إلى الله ، فأولى بالناس ثم أولى أن يعيشوا فى طاعة الله ويلبوا داعى الله للجهاد . ولايفروا من المعركة بل يفرون إلى الله بالعمل الصالح ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (٢) وأن ماسِوَى اللهِ لايُفيدُ ﴿ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (٣)

(٨) قال اللـه تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ۝٣٨ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٤)

سبب نزول الآية : فى السنة التاسعة من الهجرة دعا الرسول ﷺ المسلمين للتجهز لقتال الروم فى تبوك بناء على أخبار وصلت إليه تفيد بأن الروم قد جهزوا قرابة أربعين ألف مقاتل وأنهم فى طريقهم إلى المدينة لاستئصال المسلمين والقضاء على هذا الدين الجديد الذى جاء به محمد ﷺ . ويبدو أن هذه الأخبار كانت من قَبيل حرب الأعصاب ، شنَّها العرب المتنصرون ليفتوا فى عضد المسلمين خاصة وأن هذه الفترة كان يجتاح الحجاز فيها قحط رهيب وجفاف غير عادى فى أواخر صيف سنة ٦٣٠ م

---

(١) سورة الليل آية ٥ ـ ١١
(٢) سورة الذاريات آية ٥٠
(٣) سورة آل عمران آية ٢٥٨
(٤) سورة التوبة آية ٣٨ ، ٣٩

فجهز الرسول ﷺ على عَجَل جيشا من المسلمين حث على التبرع للإنفاق على الجيش الذى فرضت الظروف عليه أن يخرج فى وقت العسرة .

والرسول عليه السلام بهذا العمل البطولى طبق بنفسه قاعده حربية تقول : (الهجوم خير وسيلة للدفاع) فأراد أن يفاجىء أعداءه قبل أن يفاجئوه وهو تكتيك حربى بارع يقول المارشال (مونتجومرى) قائد معركة العَلَمين : (إذا ملكتَ عنصر المفاجأه فأنت سيدُ الموقف) وبعد ذلك طبق خالد بن الوليد هذا المبدأ فى معركة اليرموك . وانبرى المسلمون يبذلون من أموالهم ماجعل التاريخ يقف مبهورا أمامه . فقد جاء أبوبكر يحمل فى حجره أربعة آلاف درهم هى كل مايملكه ، وجاء عمر حاملا نصف ماله ، وجاء عثمان بألف دينار غير عشرة آلاف أخرى جهز بها عشرة ألاف مجاهد . وغير تسعمائة بعير ومائة فرس بكل ماتحتاجه . حتى جعل الرسول ﷺ يقلب مال عثمان بيده فى المسجد وهو يقول : « ماضر عثمان مافعل بعد اليومُ غفِرَ لك ياعثمانُ ما أسررتَ وما أعلنتَ » ، وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائة أوقية من الفضة ، وجاء عاصم بن عدى بسبعين وسق من تمر ، وتبرعت نساء المسلمين بالحلى والمتاع والمال .

وخرج الجيش الإسلامى غير مُبَالٍ بالمشقة . وتخلَّف عن الجيش بِضْعٌ وثمانون رجلا ما بين متكاسل أو منافق آثر السلامة على المغامرة ، والحصاد للثمار على الجهاد فى سبيل الله . ولاشك أن لكل فريق جزاءَ عند الله ، ورجع الجيش دون قتال وقد حقق انتصارا سلميا ، وعقد معاهدات مع من لقيه من أهل القرى .

وعقب عودة الرسول ﷺ إلى المدينة حَظَر على أصحابه الاتصال بالمتخلفين عن الخروج مع الجيش حتى يحكم الله فيهم ، واستمرت هذه المقاطعة قرابة خمسين يوما . وفى هذه الفترة وبخ الله سبحانه المتخلفين ، وقرعهم على فعلتهم وركونهم إلى الدنيا وتثاقلهم عن السعى لما يحقق الفوز فى الآخرة والنصر فى الدنيا على أعداء الحق . وأعلمهم أن متاع الحياة الدنيا بالنسبة للآخرة شىء قليل وتافه .

وفى هذا التوبيخ والتقريع على ترك الجهاد وعدم المسارعة إلى الخروج مافيه . لأن

مافى الآخرة لاينال إلا بالمشقة فى الدنيا وتحصيل الطاعة رغم مافيها من ثِقل على النفس البشرية ، وعلى قدر المشقة يكون الجزاء ، ويؤكد ذلك ماقاله الرسول ﷺ للسيدة (عائشة) عندما رأها تطوف حول الكعبة راكبة جملها « أجرك على قدر نَصَبِكِ » ثم تأتى الآية الأخرى:

﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ [1] تأتى مهددة متوعدة لكل من يركن إلى الراحة ويخلد إلى السكينة مع علمه بأن داعى الله يدعوه ليرد الطغاة عن أرضه وعرضه ودينه فأصبح الجهاد بمقتضى هذا التهديد واجبا لتعلوَ كلمة الله ، وترتفع راية العدل واليقين ، ويأمن الناس على أنفسهم وعقيدتهم .

والعذاب الأليم يتحقق بأحد شيئين فى الدنيا . أوبهما معا وهما . منع المطر أو استيلاء العدو على أرض المسلمين . ولهذا قال ابن عباس : (العذاب هو حبس المطر عن المتخلفين عن الجهاد) وقال ابن العربى (العذاب فى الدنيا باستيلاء العدو على أرض المسلمين وفى الآخرة بالنار) وفى قوله تعالى : ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ توعد من الله بأن يبدل المتقاعسين عن القتال المتعللين بالأعذار الباطلة بقوم آخرين أقوياء العزيمة لايتوانون عن الجهاد ولايرضون به بديلا . طلبا لما عند الله من أجر . طالما يوجد بأرض الإسلام عدو ظالم ، ولن يلحق الرسول ﷺ شىء من الضرر لو تخلفتم عنه لأن الله معه ولن يخذله أبدا . فهو سبحانه الناصر والمؤيد ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ وقدرة الله لاتحدها حدود .

ثم تستمر الآيات مبينة أنواع نصر الله لرسوله ﷺ فى كثير من المواقف وتبدأ بموقف الهجرة حيث لم يكن معه من الناس سوى أبى بكر ، وكيف أن الأعداء التفوا حول الغار الذى يقيمان فيه ، ولكن الله القدير حفظ الرسول ﷺ وصاحبه بجنود غير مرئية لأحد . وصرف أفكار المشركين وقلوبهم عن اقتحام الغار لأن جنديا ضعيف البنية قوى الإرادة كان قد تولى تمويه الموقع وهو العنكبوت .

---

(١) سورة التوبة آية ٣٩

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۚ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۚ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (١)

وتنقل الآيات إلى الأمر الصريح بالتحرك للجهاد بالمال والنفس فى سبيل الله :

﴿ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢)

فالأمر بالجهاد صادر إلى جميع المسلمين القادرين عليه بلا استثناء . فإن لم يقدر أحدهم على حمل السلاح خرج لتكثير عدد المقاتلين أو لمناولة السلاح لهم وحمل الذخيرة والمؤن وحراسة المواقع ، ومساعدة الجنود فى حفر المواقع وتجهيز الطعام الخ .

ولقد ورد أن سعيد بن المسيب خرج مع المقاتلين وقد ذهبت إحدى عينيه فقال له بعض أصحابه ليس عليك قتال لأنك عليل فقال : (استنفر الله الخفيف والثقيل . فإن لم يمكنى القتالُ والحرب كَثَّرتُ السواد وحفظت المتاع) .

ولقد بلغ من حرص أصحاب النبى ﷺ على الجهاد بعد نزول هذه الآية أن عمراً بن أم كلثوم قال لأصحابه : (أنا رجل أعمى فسلموا إلىَّ اللواء فإنه إذا انهزم حامل اللواء انهزم الجيش . وأنا ماأدرى من يقصدنى بسيفه فما أبرح). ولنضع نصب أعيننا بجانب هذه الآية قول الرسول ﷺ « جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم والسنتكم » (٣) والآية والحديث قدما الجهاد بالمال لأنه يحتاج إليه فى تجهيز الجيش وشراء السلاح والمتاع للمقاتلين .

---

(١) سورة التوبة آية ٤٠

(٢) سورة التوبة آية ٤١

(٣) رواه أبو داوود

ألا فليثب المسلمـون إلى رشدهم وليستعيدوا مجدهم فى الجهاد والنضال بالصبر والمصابرة والمرابطة والاستعداد العلمى والتوكل على الله والانتصار للحق وحينئذ يتنزل عليهم نصر الله ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .

★ ★ ★

مراعاة المشاعر الإنسانية

قال اللـــه تعالى :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ (١)

اعتاد اليهود المناجاة فيما بينهم ليتواصوا بالمسلمين شراً ، وشاركهم فى ذلك المنافقون الذين حملوا للمسلمين حقدا ممقوتا .

وأصبح التناجى شيئا مألوفا وكان اليهودى كلما رأى مسلما مقبلا بناجى يهوديا آخر ويختلسان النظر إليه المرة تلو المرة وكأنهما يدبران له أمرا ، ويبيتان له شرا حتى ينال المسلمَ شىء من الرعب ، ويدا خله الشك فى أنهما يتساران بخصوصه . فنهى الرسول ﷺ اليهود عن ذلك تمشيا مع المعاهدة المعقودة بينه وبينهم . فلم ينتهوا ، وكان المسلمون يجلسون ويتناجون فنُهُوا عن ذلك حتى لايروّع بعضهُم بعضاً . وحتى لا يقتدوا باليهود فى هذا العمل الشرير .

وأمرهم الله بأن تكون مناجاتهم بارة وكريمة مشربة روح التقوى . لامعصية فيها لله ولا لرسوله ﷺ . وخوفوا جانب الله سبحانه وتعالى الذى إليه المرجع والمآل ، والذى سيحشر الناس إليه يوم الدين . يوم لامالك غيره ولاسلطان سواه يوم يقول : ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ (٢) فلا يجيبه من المخلوقين أحد لأنهم جميعا فى رحاب الموت فيجيب هو نفسه ﴿لله الواحد القهار﴾ (٣) الذى خلق النفس البشرية ، ويعلم مايجيش بها من خير وشر :

---

(١) سورة المجادلة آية ٩ ، ١٠

(٢) سورة غافر آية ١٦

(٣) سورة غافر آية ١٦

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾[1]

ولذا قال سبحانه ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾[2]

وفى هذا صيانة للمشاعر الإنسانية ، حتى تظل القلوب سليمة خالية من الشك والريبة وذلك لأن النجوى من وسوسة الشيطان وإيحائه . ومع ذلك فمهما حاول ذلك الرجيم أن يشكك المؤمنين فلن يضرهم بشىء لأن النافع والضارّ هو الله ، والرسول ﷺ يقول : « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما الآخر حتى تختلطوا بالناس من أجل أن ذلك يحزنه »[3]

فهو بذلك يحرص كل الحرص على تزكية الطوِّية ، وتطهير داخل الإنسان ، وعدم ترك أى أثر مهما كان فى النفوس .

وكما أُمر المسلمون بالمناجاة البارة التقية ؛ أُخبروا بنزع من المناجاة العطوفة الطيبة ، تكون بين الله سبحانه وتعالى وبين بعض عباده يوم الدين ؛ ممن كتبت لهم النجاة ، وشملتهم المرحمة ، وعمهم العفو ؛ يقول ﷺ : « إن الله يدنى المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره من الناس . ويقرره بذنوبه ويقول له : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرره ذنوبه ورأى نفسه أن قد هلك . قال : فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم . ثم يعطى كتاب حسناته . وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد : « هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين »[4] .

فليت المؤمن يحترم أخاه ويقدر شعوره ويبتعد عن الوِشَايَاتِ الباطلة ليسْلم له دينهُ وتستقيم له دنياه .

---

(١) سورة ق آية ١٦
(٢) المحادلة آية ٩
(٣) متفق عليه
(٤) رواه الديلمى

الخبر بين الصدق والكذب

قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴾ (١)

سبب نزول الآية : عن أم سلمة رضى الله عنها قالت : (بعث رسول الله ﷺ رجلا فى صدقات بنى المصطلق) وذلك الرجل هو الوليد بن عقبة بن أبى معيط - فسمع بذلك القوم فتلقوه يعظمون أمر الرسول ﷺ فحدثت الرجل نفسه أنهم يريدون قتله فرجع إلى رسول الله ﷺ فقال : إن بنى المصطلق قد منعونى صدقاتهم ، فغضب الرسول ﷺ وغضب المسلمون ، وبلغ بنى المصطلق خبر رجوع ذلك الرجل وما نقله إلى رسول الله ﷺ من خبر باطل عن منعهم الصدقات . فأتوا رسول الله ﷺ . وصفُّوا له حين الظهر فقالوا : نعوذ بالله من سخط الله ورسوله بعثت إلينا رجلا مصدقا فسررنا بذلك ، وقرت به أعيننا ثم أنه رجع من بعض الطريق فخشينا أن يكون ذلك غضب من الله تعالى ومن رسوله فلم يزالوا يكلمونه حتى جاء بلال فأذّن بصلاة العصر . ونزلت الآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ (٢) .

ومن سبب النزول ندرك حرص الإسلام على أبنائه حتى لايتسرعوا فى تصديق كل مايُلقَى إليهم من أخبار . بل لابد من التثبيت قبل الإقدام على معاقبة من يظن أنه مخطىء . وذلك حتى لايرتكبوا ما لاتُحمد عُقْباه فى مقابل رجل برىء أو جماعة قد يكون ناقل الخبر عنهم فاسقاً أو مرتشياً . ثم تظهر الحقيقة بعد فوات الأوان فيقع الندم على ماكان .

---

(١) ، (٢) سورة الحجرات آية ٦

والقانون الوضعى ينْحو هذا النحو (لأن يُخطِىَء القاضى فى العفو خير من أن يخطىء فى العقوبة) ويفترض القانون أن المدعَى عليه برىء حتى تثبت إدانته . ومن الحِكم المأثورة (ألتمس لأخيك ألف عُذْرٍ فإن لم تجد فقل لعل عنده عذراً لاأعلمه) والرسول الكريم ﷺ يحثنا على التروى فى الحكم على الأشياء وينفر من العجلة فيقول : (التأنى من الله والعجلة من الشيطان) [1] ، وفى هذا حرص على وحدة المسلمين . وبعد بهم عن الانسباق وراء الأخبار الباطلة حتى لاتحدث القطيعة والتمزق بسبب واشٍ لئيم . وليتحروا الصدق خاصة والرسول ﷺ مقيم معهم بتوجيهه وشرعه .

★ ★ ★

(١) رواه ابن ابى شيبة وغيره

الحكم على الظواهر لاعلى البواطن

قال الله تعالى،

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (١)

سبب نزول الآية : روى عمران بن حصين قال : (بعث رسول الله ﷺ بعثا إلى المشركين فقاتلوهم قتالا شديدا فمنحوهم أكتافهم . فحمل رجل من لحمتى على رجل من المشركين بالرمح فلما غشيه قال : أشهد أن لا إله إلا الله . إنى مسلم . فطعنه فقتله . فأتى رسول الله ﷺ وقال : يارسول الله هلكت ؟ قال : وما الذى صنعت ؟ مرة أو مرتين فأخبره بالذى صنع فقال له الرسول ﷺ « فهلا شققت عن باطنه فعلمت مافى قلبه » ؟ (٢) فقال يارسول الله . لو شققت بطنه أكنت أعلم مافى قلبه ؟ قال : لا . فلا أنت قبلت ما تكلم به ولا أنت تعلم مافى قلبه » (٢) فسكت عنه الرسول ﷺ فلم يلبث إلا يسيرا حتى مات ، فدفناه فأصبح على وجه الأرض فقلنا لعل عدوا نبشه . فدفناه ثم أمرنا غلماننا يحرسونه فأصبح على وجه الأرض . فقلنا لعل الغلمان نعسوا فدفناه ثم حرسناه بأنفسنا فأصبح على وجه الأرض . فألقيناه فى بعض تلك الشعاب) فى هذه الآية أمر الله المسلمين بالتأكيد مما يقدمون عليه من عمل . وألا يقتلوا مسلما طلبا لعرض زائل ، وأن يتقبلوا من الناس ظواهرهم ويتركوا البواطن لله الذى لايعلمها غيره . وفى هذا حد من الرعونه والطيش .

---

(١) سورة النساء آية ٩٤

(٢) رواه البخارى

ولهذا كان الأمرِ بالتبين واردا فى الآية مرتين . ثم بين الله سبحانه وتعالى أن ماعنده خير وأبقى من العَرضِ الدنيوى التافه كما يقول ﷺ : « الدنيا عَرَض حاضر يأكل منها البَر والفاجر » ثم لفت نظرِ المؤمنين إلى خطأ الأخذ بالباطن لأنهم مرت بهم هذه الفترة من الأستخفاء بدينهم من أهلهم وذويهم . حتى أحسوا بالأمان فأعلنوا إسلامهم فما أدْرَى هذا القاتلَ أن القتيل كان مؤمنا مستخفيا بدينه ؟ ثم من الله عليهم بذلك فقال :

﴿ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ (١)

والرسول أمر بأن يقاتل الناس حتى ينطقوا بلا إله إلا الله « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله » ثم حذرهم العودة لمثلها ودفع الرسول ﷺ دية الرجل القتيل إلى أهله ، ورد عليهم شياههم ، وهكذا حكم الإسلام بالظاهر وترك البواطن لله تعالى فهو العليم الخبير .

★ ★ ★

(١) سورة النساء آية ٩٤

الدعوة إلى السلام والإسلام

قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ (١)

سبب نزول الآية :

يقول ابن عباس رضى الله : إن الآية نزلت فى أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، وهى تدعوهم إلى الاعتراف بالإسلام والإذعان له ، وعدم اتباع الشيطان الذى يزين لهم الباطل ويغريهم بالوقوف ضد محمد ﷺ رغم مايعلمونه عن أمره من كتبهم ففى (تثنية التوراة إصحاح ٨ آية ١٨ ـ ١٩) يكلم الله (موسى) عليه السلام قائلا له : « سأقيم لهم نبيا من وسط اخوتهم مثلك وأجعل كلامى فى فمه فيتكلم بكل ما أوصيه به ، ويكون الإنسان الذى لايسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى أنا أطالبه) فقوله : (من وسط إخوتهم) يعنى من بنى إسماعيل الذين هم أخوة بنى إسرائيل . حيث إنهم من بنى إسحاق أخى (إسماعيل) ، وقوله : (أجعل كلامى فى فمه) وهذا وصف للنبى العربى بأنه أمى لا يقرأ . وبأنه لايتحدث بشيء من عند نفسه . بل بكلام الله يتحدث وصدق الله العظيم ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ﴾ (٢) والفصل ٤٣ من إنجيل برنابا الذى حرمت الكنيسة قراءته على أتباعها ـ يقول السيد المسيح عليه السلام : « الحق أقول لكم إن كُلَّ نبى

---

(١) سورة البقرة آية ٢٠٨ ، ٢٠٩

(٢) سورة النجم آية ٣ ، ٤

متى جاء فإنه يحمل لأمة واحدة فقط علامة رحمة الله . ولذلك لم يتجاوز كلامهم الشعب الذى أرسلوا إليه . ولكن رسوا الله ﷺ متى جاء يعطيه الله ماهو بمثابة خاتم يده فيحمل خلاصا ورحمة لأمم الأرض الذين يقبلون تعليمه ، وسيأتى بقوة على الظالمين ، ويبيد عبادة الأصنام بحيث يخزى الشيطان . لأنه هكذا وعد الله إبراهيم قائلا : انظر فإنى أبارك كل قبائل الأرض ، وكما حطمت ياإبراهيم الأصنام تحطيما هكذا سيفعل نسلك ، ، .

إذن فالأنبياء قد بشروا أممهم برسول الله محمد ﷺ ولذا فالحق سبحانه وتعالى يدعو أهل الكتاب إلى الدخول فى الإسلام الذى هو دين الله المرتضى . والذى نادى به الأنبياء جميعا وعلى رأسهم خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام حيث قال هو وأبنه إسماعيل إبان بناء البيت الحرام :

﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ (١)

ويعقوب عليه السلام يقول لأبنائه : وهو فى آخر لحظات عمره : (مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى؟) (٢) فيردون عليه قائلين :

﴿ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ (٣)

وموسى عليه السلام يقول لقومه : ﴿ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ (٤)

وعيسى عليه السلام يأخذ من الحواريين إقراراً بالإسلام :

﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (٥)

---

(١) سورة البقرة آية ١٢٨

(٢،٣) سورة البقرة آية ١٣٣

(٤) سورة يونس آية ٨٤

(٥) سورة آل عمران آية ٥٢

ومن بين الرسول محمد ﷺ موقف أهل الكتاب منه ومن رسالته « والذى نفسى بيده لايسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ، ولانصرانى ثم لم يؤمن بالذى أُرْسِلْتُ به إلا كان من أصحاب النار » [1]

فإن دخل أهل الكتاب الإسلام نجوا ، وإن زلَّت أقدامهم وانزلوا فى وهدة العناد وطاعة الشيطان بعد علمهم بحقيقة هذا النبى من كتبهم . وبعد تسجيل التاريخ عليهم ماكانوا يقولونه للعرب المعادين لهم فى يثرب (سيأتى نبى قد أظلنا زمانه وسنتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم) بعد هذا كله لو أصروا على عنادهم وتمسكوا بجحودهم فليعلموا أنهم لن يُعْجِزُوا الله سبحانه وتعالى فهو عزيز لايمتنع عليه ظالم وهو حكيم لا يظلم أحداً .

ويرى بعض المفسرين أن الآية تشمل أهل الكتاب والمسلمين ، وفى هذه الحالة يكون المطلوب من المسلمين هو التمسك بمبادىء إسلامهم وعدم التخلى عن الشريعة بعد أن عرفوا أن الرسول ﷺ حق وأنه يبلغ أمر ربه ، وهذا الرأى وارد فى الآية ففيه حث على المسالمة وعدم الاعتداء على أحد لأن الإسلام : يحث على السلم الذى هو فى حد ذاته أشمل معانيه .

والله أعلم

(انتهى بحمد الله القسم الثانى الخاص بنداء المؤمنين . ويليه القسم الثالث الخاص بنداء عموم الناس والله الموفق والمعين)

---

(١) رواه أصحاب السنن

القسم الثالث

النداء بـ : يأيها الناس

مقدمـة

بعد أن انتهى القسم الثانى الخاص بنداء الله تعالى للمؤمنين بصفتهم المميزة وهى الإيمان أبدأ بعون الله تعالى فى القسم الثالث وهو الخاص بالنداء بلفظ «يأيها الناس»

وهذا اللفظ يحتمل أن يكون عاما يشمل المؤمنين وغيرهم . وفى هذه الحالة يكون المقصود منه ثبات المسلمين على عقيدتهم ودعوة غيرهم إلى الدخول فى تلك العقيدة .

وقد يكون خاصا يطلق على الكافرين وحدهم . وفى هذه الحالة يكون المقصود منه إبعادهم عما يعبدون من دون الله . ودعوتهم بالتالى إلى الدخول فى شريعة الإسلام .

ومن المفيد أن نعلم أن كل سورة نزل فيها نداء بلفظ « يأيها الناس » هى سورة مكية . باستثناء سور (البقرة والحجرات والنساء) فإنها مدنية وقد ذكر فيها هذا النداء .

ومن المستحب أن نلاحظ أن أكثر النداء الوارد بوصف الإنسانية كان فيها يختص بالأصول العامة كالإيمان بالله وبالرسالات وبالوحى وباليوم الآخر .

كما نلاحظ أن النداء بوصف « بنى آدم » كان المقصود منه التحذير من الشيطان ومكايده التى أوقع فيها من قبل آدم عليه السلام . ثم اجتباه ربه فتاب عليه .

وجوب عبادة الله سبحانه

قال الله تعالى .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١)

العبادة معناها الطاعة والخضوع لله تعالى والتمسك بتوجيده . فهى إذن طاعة دائمة وخضوع مستمر لمن بيده الأمور النهى وهو الله لأنه تعالى مصدر وجود العابدين وسبب استمرار حياتهم . حيث يفيض عليهم من رحمته مايجعل حياتهم سهلة ميسورة فسخر لهم مافى السموات وما فى الأرض جميعا منه . والرسول ﷺ يوضح ذلك يقول : « أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه » من هذا نأخذ أن الله سبحانه أمر الناس جميعا بعبادته والخضوع له . لأنه سبب الفضل فى الخلق والإيجاد للسابقين واللاحقين المخاطبين بتلك الآية ﴿ الذى خلقكم والذين من قبلكم ﴾ فهو بهذا التوجيه يجرد معبوداتهم الزائفة من كل سلطان يخلعونه عليها . وبين عجزها عن خلق أى كائن مهما حقر شأنه

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ (٢)

وتلك الآية تنضم إليها آية أخرى بنفس المعنى متضمنة اعتراف المشركين بقدرة الله تعالى فى الخلق :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (٣)

---

(١) سورة البقرة آية ٢١
(٢) سورة الحج آية ٧٣
(٣) سورة الزخرف آية ٩

بل أنهم يعترفون صراحة بأن الذى خلقهم هو الله وليست الآلهة الزائفة

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ (١)

ثم إن هذا الاله الحق الذى يستوجب منا عبادته قد فطر الناس جميعا على معرفته وتوحيده قبل أن يخلق أشباحهم فقال تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ (٢)

والحديث القدسى يقول فيه رب العزة : ﴿ خلقت عبادى حنفاء كلهم ﴾ ويقول المصطفى الأمين عليه الصلاة والسلام : « كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه »(٣) وإلى هنا عرفنا ضرورة الطاعة والخضوع لله رب العالمين القادر على الإعطاء والمنع .

والمقصود بالنداء فى الآية إعادة الناس إلى فطَرهم السليمة . وأمرهم بإزاحة كثافات الضلال التى رانت على قلوبهم . لتعود هذه القلوب إلى بارئها مجلوة كما خلقها . صافية يشع منها ضياء الإيمان . ثم تنتهى الآية برجاء تحكيم العقول ليصل أصحابها إلى التقوى إن هم أحسنوا استخدامها وأخذوا الأهبْة للسير على طريق الحق وحاولوا أن يجعلوا العمل الصالح وقاية لهم من النار . بل ويجعلوه سدا منيعا لا يستطيع أن يتسلقه الشيطان . ودرعا قويا لاتخترقه نار غضب الله الجبار وإنما تحاط تلك القلوب بسياج من الأمن والعطف .

★ ★ ★

---

(١) سورة الزخرف آية ٨٧

(٢) سورة الأعراف آية ١٧٢

(٣) رواه الشيخان

الاكل من الطيبات ومخالفة الشيطان

قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (١)

سبب نزول الآية : قامت بعض القبائل العربية بتحريم بعض الأنعام على نفسها من بين هذه القبائل ثقيف وبنى مدلج وخزاعة . فبين الله تعالى لهم أن الحلال والحرام لايبينهما إلا الله وحده . لأنه يعلم ما فى الحلال من فائدة وما فى الحرام من مضرة وأنه سبحانه قد أحل للناس كل طيب مستساغ وغير مستقذر من الحيوان وغيره . وهو بهذا قد حفظ حياة الناس وسلامة عقولهم . وأظهر ذلك فى قوله تعالى :

﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ (٢)

ويقول فى آية أخرى :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ ﴾ (٣)

من هذا كله وجدنا أَنَّ الحلال مقصود فى الإسلام . وأنه أساس متين لبناء الجسم يقول سهل التسترى : النجاة فى ثلاثة : أكل الحلال . وأداء الفرائض . والاقتداء بالنبى ﷺ .

---

(١) سورة البقرة آية ١٦٨

(٢) سورة الانعام : ١٤٥

(٣) سورة المائدة آية ٣

وأكل الحلال يترتب على العلم بالأحكام قدر الاستطاعة ليميز الناس الحلال من الحرام وكذلك باتباع كتاب الله تعالى خاصة فى الأمور المالية . حتى يبتعد الإنسان عن السحت والغلول بل عن المكروه وما فيه من شبهة . فإذا تحرز الإنسان من هذه الأمور خالف الشيطان واتبع الرحمن .

ولـذلـك نبه الله سبحانه فى آخر الآية إلى ضرورة مخالفة الشيطان وعدم اتباع خطوات الشيطان وعـدم اتبـاع خطواتـه المضللة الدافعة إلى التهلكة باتباع البدع والمعاصى . لأن طريق الله واضح ونور الحق يهدى إليه . وطريق الشيطان مظلم . ونار الباطل تقود إليه وشتان بين نور الحق ونار الباطل .

ثم نلمس كذلك من روعة بيان الآية أن الشيطان عدو مبين للإنسان يكرِّس كل جهده لإضلالـه وإلقائه فى متاهات الشك حتى يكفر وحينئذ يتخلى عنه ويبرأ منه

﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (١)

ثم إن الأمر بتناول الطيبات وإن كان عاما إلا أنه يشمل المؤمنين تفضيلا لهم وعلى رأسهم الرسل عليهم السلام . فنرى الله سبحانه ينادى رسله ويأمرهم بأكل الطيبات ويصدر مثل هذا الأمر إلى المؤمنين .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ﴾ (٢)

وهـذا الأمر صدر إلى كل نبى ورسول فى زمانه . وعلى هذا فالأصل فى تحليل الحلال وتحريم الحرام واحد .

ولهذا السبب وجدنا الرسول ﷺ يقول : «أيها الناس إن الله تعـالى طيب لا يقبل إلا طيبا » .

---

(١) سورة الحشر آية ١٦

(٢) سورة المؤمنون آية ٥١

وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾

وقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾

ثم ذكر الرجل يُطِيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يارب . يارب ومطعمه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فأنى يستجاب له »[1]

والإسلام بذلك يأمر الناس عامة والمؤمنين خاصة بتناول الطيب من الطعام كما يأمرهم بلبس الطيب من الثياب لأن هذه الأشياء تتعلق بها مصلحة الإنسان التى يحرص الدين على تحقيقها حيث يبنى الجسد على الطيبات ويكون القلب متصلا بالله منفذا لتعاليمه الأمر الذى يجعل دعوة المؤمن مستجابة يقول ﷺ : لأحد أصحابه : « أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة »[2] ومن فعل غير ذلك كان متجاوزاً للحد الذى أمر الله بالالتزام به .

★ ★ ★

(١) رواه مسلم
(٢) رواه أصحاب السنن

التنبيه على وحدة الأصل الانسانى

قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (١)

سبق أن تحدثت عن التقوى فى الفصل الأول . ونرى لفظ التقوى قد جاء مصرحا به أول الآية ووسطها . وجاء ضمنيا فى آخرها عند قوله تعالى : ﴿ الأرحام ﴾ أى اتقوا الله فى أرحامكم أن تقطعوها . والإسلام بين أن أصل الخلقة للناس واحد هو آدم عليه السلام ثم خلق حواء من آدم بطريقة تدل على عظيم قدرته تعالى (وخلق منها زوجها) ثم كثر الله الذرية من آدم وحواء ليعمر هذا الكون ثم أمر بوصل الأرحام وعدم قطعها ولوكانت على غير الإسلام . ولقد ورد أن أسماء بنت أبى بكر زارتها أمها وكانت الأم على دين قومها فذهبت أسماء إلى رسول الله تستشيره فى أمر أمها أتصلها وهى مشركة ؟ فقال لها الرسول : ﷺ « صلى أمك » (٢) وهذا يزكيه قول الحق تعالى : ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ وقوله :

﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ﴾ (٣)

ثم بين الرسول ﷺ أن الولد لا يجزى والده عما قام به من تربية ورعاية إلا أن يكون الوالد رقيقا فيشتريه ولده ويعتقه يقول الرسول ﷺ : « لا يجزى ولد والدا إلا أن يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه » (٤)

---

(١) سورة النساء آية ١

(٢) متفق عليه

(٣) سورة لقمان آية ١٥

(٤) رواه مسلم

وفى الآية غير التقوى وصلة الأرحام شئ آخر هو قدرة الله تعالى على الخلق . وأن الناس متساوون فى أصل الخلقة . فلا ينبغى لأحد منهم أن يعتدى على أخيه فى الإنسانية فإن اعتدى عليه فإن الله رقيب على الجميع مُحَاسِبٌ لكل إنسان على ما قدمت يداه .

★ ★ ★

أهـــوال القيـــامـة

(١) قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ (١)

النداء فى هذه الآية موجه إلى المكلفين العقلاء . لأن غيرهم لايتأتى منه التدبر والعمل . ولقد بدئت بالأمر بالتقوى المراد منها خشية الله تعالى والتمسك بأوامره حتى يكون ذلك سببا فى نجاة المرء من أهوال يوم القيامة التى ذكرها الله فيها بعد .

والآية تذكر الناس بلحظات رهيبة تعتريهم يوم يقول المجرمون :

﴿ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ (٢)

وتبدأ هذه الأهوال بالزلزلة التى ستقع بين يدى الساعة ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ (٣) وهذه لحظات قاسيه . يترنح الناس فيها كالسكارى . ذاهلين عن أنفسهم وعن كل ماحولهم حتى أحب الناس إليهم

﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ ﴾

أرأيتم الأم تذهل عن وليدها ؟ إنها لا تتركه أبدا الا إذا كان الامر خطيرا والخطب جللا . وهل هناك ما هو أخطر من اللحظات التى يحس فيها الإنسان بقرب اطلاعه على ماَ قدَّم وعَرْضه على ربه الذى لا تخفى عليه خافية ؟

---

(١) سورة الحج آية ١، ٢

(٢) سورة يس آية ٥٢

(٣) سورة الزلزلة آية ١

إن القرآن يصور الموقف تصويرا فيه من الهول ما فيه . حيث يُرى الإنسانُ مترنحا تتحرك رجلاه بلا وعى ويزيغ بصره . فليس له مكان يركز عليه . ويسمع الهرج ولكن أين المفر؟ ويزداد الكرب عندما يسمع الناس ربَّ العزة سبحانه يقول لآدم عليه السلام : (يا آدم فيقول لبيك وسعديك والخير فى يديك . فيقول : أخرج بعث النار . فيقول آدم : وما بعث النار؟ فيقول الله تعالى من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين) قال الرسول محمد ﷺ : « فذلك حين يشيب الصغير وتَضَعُ كلُ ذات حَمْلٍ حملَها . وترى الناسُ سكارى وماهم بُسكارى ولكنّ عذابَ الله شديد »

فاشتد الكرب على أصحاب الرسول ﷺ . قالوا : « يارسول الله أينا ذلك الرجل ؟ فقال أبشروا فإن من يأجوج ومأجوج ألفا ومنكم رجل » وهذا كله يدعونا إلى التمسك بتقوى الله وطاعته والانصياع لأمره . ومداومة العمل الصالح والابتعاد عن الهوى الذى يضل الإنسان عن السبيل المستقيم .

(٢) قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ (١)

صدرت الآية كسابقتها بالأمر بالتقوى . ثم دعت إلى العمل الصالح الذى ينجى صاحبه من الموقف الرهيب الذى تقدم وصفه فى الآية السابقة . ولكنها ذكَّرت الناس بشىء جديد هو انقطاع التكافل الذى بينهم فى الدنيا . حيث يفر القريب من قريبه والزوج من زوجته حتى أن الأم تفر من ولدها

---

(١) سورة لقمان آية ٣٣

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾

فالهول مستبد بكل إنسان . والفزع من المصير المجهول مسيطر على كل الناس . والوهم يملك كل قلب خوفا من أن يؤمر به إلى النار . ولن ينجو من هذه الوساوس ويخلص من هذه الأوهام سوى المؤمنين الذين لم تغرهم الدنيا . والذين عرفوا قدر ربهم وخافوا عذابه . وعملوا لما بعد الموت . فبذلوا أموالهم فى سبيل الله وأعطوا أرواحهم رخيصة فى سبيل نصرة دينهم وحقهم فى الحياة . أولئك المؤمنون هم ـ فقط ـ الذين لايَحْزُنُهم الفزعُ الأكبرُ لأنهم فى أمان الله وضمان رحمته . ولن تكسهم النار الاتحلة القسم .

من هذا كله نعلم بأنه لن تَزِر نفْسٌ وِزْر أُخرْى ولن يحمل إنسان ذنوب غيره بمعنى أن الوالد لن يتحمل ذنوب ولده ولا الولد ذنوب والده . وأن البعث آت لا محالة . وأن على المؤمنين أن يحاربواالشيطان ما استطاعوا . وليكن سلاح كل مؤمن ذِكْر الله وخشيتَه . وأن يحذر الدنيا مهما تزينت له وأبدت له زخرفها . فمن تمسك بذلك كله وتذكر الموقف والأهوال فإنه ناج بإذن الله تعالى .

(٣) قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ (٢)

يعيد الله تعالى التأكيد للناس بأن وعد الله حق . وأن الناس سيبعثون للحساب والمؤاخذة على ماقدموا . فمن فعل خيرا جوزى الخير . ومن فعل غير ذلك فمرجعه إلى الله إن شاء عذبه بعدله . وإن شاء غفر له بفضله . ثم تحث الآية كسابقتها على عدم طاعة الشيطان وعدم الانسياق لبهارج الدنيا التى تزينها النفسُ الأمارة بالسوء . ورحم

---

(١) سورة عبس آية ٣٤، ٣٧

(٢) سورة فاطرة آية ٥

الله الإمام (البوصيرى) حين قال :

وخالف النفس والشيطان واعصهما وإن هما محّضاكَ النصح فاتهمِ
ولا تطعْ منهما خصماً ولا حكماً فأنت تعرف كيد الخصم والحَكَمِ

والقرآن العزيز يبين لنا فى أكثر من موضع مدى عداوة الشيطان لبنى آدم . ومدى استعداده لإضلالهم ومحاولة دفعهم إلى المهالك وقسْمة بعزة الله على تنفيذ ذلك المخطط الإجرامى .

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (١)

ولكنه استثنى عباد الله المخلصين لعدم قدرته على إضلالهم . ولأنهم يتحصنون بذكر الله كلما حاول معهم الشيطان .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ (٢)

نسأل الله العصمة من الزلل والتوفيق لصالح العمل .

* * *

(١) سورة ص آية ٨٢، ٨٤
(٢) سورة الأعراف آية ٢٠١

الايمان بما جاء به الرسول ﷺ

(١) قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (١)

جرت عادة القرآن فى الدعوة إلى الإيمان بالله ورسوله واتباع ما جاء به ذلك الرسول ـ أن يعمم النداء إلى كل الناس الذين يرتجى منهم الانصياع للأمر وهم أولو الألباب . والنداء فى هذه الآية خطاب للناس جميعا يدعوهم الله فيه إلى الإيمان بمحمد ﷺ وبالحق الذى بعث به وهو القرآن الحكيم . والدين الذى لا عوج فيه . دعاهم إلى النطق بالكلمة النورانية : أشهد أن لا اله إلا الله . وبين الله.تعالى كذلك أن الإيمان خير ساقه الله إليهم لينجيهم من عذاب السعير وينأى بهم عن سخط الله . فمن اتبع الحق نجا . ومن تنكب الطريق غوى وأوبق نفسه وانزلق إلى منحدر سقر . التى لا تبقى ولا تذر . والله سبحانه يستوجب منا أن نؤمن به لأنه صاحب الحول والطول خالق السموات والأرض الذى لا تضره معصية ولا تنفعه طاعة من أحد . العالم بكل الأسرار المطلع على خفايا القلوب . الحكيم العادل .

(٢) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾

هذه الآية شبيهة بالتى قبلها حيث يبين الله للناس أنه أرسل اليهم برهانا منه واعتبر الرسول برهانا لأن معه معجزه خالدة هى (القرآن) باقية على الزمن لا تبليه كثرة الرد ولا ينتهى مافيه من عجائب .

---

(١) سورة النساء آية ١٦٩

(٢) سورة النساء آية ١٧٣

وكان هذا الرسول مبعث حياة أمته كالماء ينزل على الأرض الميتة فيحييها . وينزل على جذور النبات فيغذيها فتنشر الأوراق وتؤتى الثمار بإذن ربها . كذلك كان الرسول بالنسبة للبشرية . هداها بعد ضلال . وأرشدها بعد عمى وأيقظها بعد طول رقاد . وأعـزها بعد استذلال . وقواها بعد ضعف . ورسم لها مسارها الصحيح إلى الله . وهذا كله يتبلور فى هذا الحديث الذى جرى بين رسول الله ﷺ وبين جماعة من الأنصار عقب توزيع غنائم حنين قال ﷺ : « يامعشر الأنصار ألم أجدكم ضُلاّلا فهداكم الله بى ؟ وعالة فأغناكم الله بى ؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بى ؟ وكُلَّما قال شيئا قالوا الله ورسوله أمنّ » رواه البخارى .

ثم عطف الله سبحـانه وتعالى على البرهان الذى بعثه إلى عباده سواء كان هو الـرسـول أو الإسلام عطف عليه القرآن الكريم الذى هو بحق النور المبين والحبل المتين . والصراط المستقيم . الذى يشتمل على أخبار الأولين . والحكم بين الحاضرين وانباء الذين مازالوا فى طى الغيب .

وفى هذا كله حث على الإيمان برسول الله ﷺ وبما جاء به .

★ ★ ★

عموم الرسالة المحمدية

قال الله تعالى :

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (١)

لم يكن محمد ﷺ بدْعا من الرسل . وإنما كان كسائر إخوانه المرسلين . كان استجابة لدعوة أبيه (إبراهيم) عليه السلام حين قال :

﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ (٢)

وكان بشارة أخيه (عيس) عليه السلام حين قال لبنى إسرائيل : ﴿ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ ﴾ (٣) ولذا قال ﷺ : « انا دعوة أبى إبراهيم وبشارة عِيسى بِى » (٤) . وإن كان أهل الكتاب من اليهود والنصارى ينكرون ذلك دعوة وبشارة . والناظر فى كتبهم التى بين أيديهم يجدها تنضح حقدا على الرسول محمد ﷺ . ومن أراد أن يعرف الحقيقة فليقرأ الفقرات الخاصة بالبشارة فى إنجيل برنابا الذى حرمت الكنيسة قراءته خوفا من الله إنسياق قارئه إلى الحق ونبذ ماهم عليه من زيف .

ولقد امتازت رسالة نبينا محمد ﷺ بعمومها لكل الناس . ولم تكن قاصرة على زمان ولا مكان دون غيرهما ولا على جنس من البشر دون غيره ولكنها انتشرت على المكان

---

(١) سورة الأعراف آية ١٥٨
(٢) سورة البقرة آية ١٢٩
(٣) سورة الصف آية ٦
(٤) أخرجه الإمام أحمد

وتجاوزت الحدود المعترف بها بين الدول . وشملت الزمان إلى يوم القيامة . ومن هنا وجدناه ﷺ يقول : « وكان كل نبى يُبْعثُ إلى قومه وبُعثْتُ إلى كل أحمر وأبيض » وفى رواية « وبعثت إلى الناس كافة » ويبين ذلك بنفسه أول أمره حين دعا الناس إليه من فوق الصفا ثم قال :

(. . انى رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة) .

ثم كانت الدعوة إلى الإيمان بالله الذى له ملك السموات والأرض . والذى يقدر على الإماتة والإحياء . ثم إن هذا الرسول الواجب الإيمان به واتباعه هو رسول يؤمن بالله كما يؤمن غيره . ويؤمن بكلمات الله التى أنزلها على اخوانه الرسل سواء كانت وحيا مكتوبا أو إلهاما صادقا . وفى الإيمان به عليه السلام أتباعه هداية فى الدنيا إلى الخير وسعادة فى الآخرة لا تحدها سعادة .

★ ★ ★

عاقبة البغى وخيمة

قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (١)

هذا جزء من آية كريمة متممة فى المعنى لآية سابقة يبين الله فيها قدرته على إنقاذ مَنْ دعاه إذا أحاط به الهلاك من كل جانب . فلو أن إنسانا ركب البحر وكانت الرحلة فى بدء أمرها هادئة . والريح تجرى رخاء والسفينة تتهادى كالعروس على صفحة الماء . ثم فوجىء بالأمواج تعلو وبالرياح تعصف وتتحول إلى أعاصير من مجرة صارخة . وبالجو يكفهر ويتخاطف هذا الراكب الموت من كل مكان .

﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ﴾ (٢)

وفى هذه اللحظات اليائسة يلجأ إلى ربه طالبا معونته متضرعا إليه مؤكدا أنه سيكون من الصالحين الطائعين إن انْجَاه الله من هذه المحنة . وسيشكر لله نعمه وإنقاذه من الموت . وعندما تتداركه رحمة ربه ويصفو الجو من جديد ويصل إلى الشاطىء سالما ينسى ربه وينقض عهده ويعود متمردا متجاسرا على المعاصى فلا شكر ولا طاعة . بل بغى وظلم وتكبر على عباد الله .

ولكن رب العزة سبحانه يبين له أن هذا البغى سيكون وَبَالاً عليه . وستعود عاقبة ذلك البغى إليه . ويؤكد ذلك (سفيان بن عيينة) فى قوله : أراد أن البغى متاع الحياة الدنيا . وأن عقوبته تعجل لصاحبه فى دنياه .

---

(١) سورة يونس آية ٢٣

(٢) سورة النور آية ٤٠

ومن هنا نجد أن الباغى إنما يريد من بغيه سلطة أو علوا و كبرًا على العباد وهذه الصفات كلها يتمتع بها صاحبها فى الدنيا ثم تكون حسرة عليه يوم الدين .

﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (١)

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ (٢)

وهنا كذلك يؤمر به إلى النار جزاء نكرانه لنعم ربه ونقض العهد الذى قطعه على نفسه حينما كان فى البحر مكروبا وكما يقول المثل : (على الباغى تدور الدوائر) ومن سل سيف البغى قتل به . .

★ ★ ★

(١) سورة الشعراء آية ٨٨، ٨٩

(٢) سورة الفرقان آية ٢٧

تنبيه الأذهان إلى فضل القرآن

قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

هذا النداء فيه دعوة ضمنية إلى قريش لتدبير القرآن والالتزام بما فيه من خير لأنه لمس جوانب أفكارهم بالعظمة اللينة التى تتمشى مع أسلوب الدعوة الذى أمر به الرسول ﷺ من جانب رب العزة سبحانه وتعالى :

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (٢)

وقوله تعالى : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾ (٣)

وقوله فى تهذيب المرأة الناشز عن طاعة زوجها ﴿ فَعِظُوهُنَّ ﴾ (٤)

وكان أولى بقريش وهى من بلاغة ومعرفة لأسرار الكلام ومواقعه أن تبادر إلى اتباع الحق وخاصة وأن رسولها إلى محمد ﷺ قال : عندما سئل عن محادثاته مع محمد : « والله لقد سمعت من محمد آنفا كلاما . ما هو من كلام الإنس ولا مِنْ كلام الجن وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو وما يُعلى » السيرة النبوية لابن هشام .

والرسول ﷺ يؤكد عظمة القرآن وفضله على كلِ كلام بشموله ، وجماله ، وجلاله

---

(١) سورة يونس آية ٥٧
(٢) سورة النمل آية ١٢٥
(٣) سورة النساء آية ٦٣
(٤) سورة النساء آية ٣٤

فيقول : « أوتيت جوامع الكلم »[1] رواه العسكرى والنسائى .

والحق تبارك وتعالى يلفت الأنظار إلى ما يدعو إلى تدبر القرآن فيقول :

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[2]

ثم ينبه سبحانه أن هذا الكتاب العزيز فيه شفاء لما فى الصدور من الأمراض النفسية والأحقاد والمشاحنات . وفيه كذلك هداية وإرشاد لمن لزمه وسار على نهجه القويم . بل إنه ليُعتبر بالنسبة للمؤمنين نعمة غالية أمن بها ربهم عليهم . لأنهم هم الذين ينتفعون بما فيه . ولأخذهم له من عقيدة خالصة واحتفاظهم به فى قلوبهم غَضّاً كما أُنْزِل ، وذلك يستوجب من الله حسن مجازاتهم ماداموا مخلصين له متمسكين به عاملين بما فيه .

★ ★ ★

(١) وراه العسكرى والنسائى

(٢) سورة النساء آية ٨٢

إعلان ثبات الرسول ﷺ على التوحيد

قال الله تعالى :

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

فى هذا النداء أمر صادر من الله تعالى إلى رسوله بأن يخبر الناس وخاصة كفار مكة بأنه ثابت على التوحيد لا يتزحزح عنه . لأنه الدين الحق الذى أوحاه الله إليه ، وإلى إخوانه المرسلين من قبله .

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ (٢)

وكذلك

﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (٣)

أفبعد هذا الأمر يطمع كفار مكة فى عودة الرسول محمد ﷺ إلى عبادة ما يعبدون من أصنام ، وهو الذى لم يسجد لصنم قط ، ولم يعترف بوجودها حتى قبل الرسالة ؟ إنه بذلك الإيمان يؤكد ثباته على التوحيد ويقولها صريحة :

﴿ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ ﴾

ومما لا شك فيه أن هذه الصفة ـ صفة القدرة الثابتة لله تعالى ـ لا ينكرها العقلاء حتى

---

(١) سورة يونس آية ١٠٤

(٢) سورة الأنبياء آية ٢٥

(٣) سورة الزمر آية ٦٥، ٦٦

من المشركين أنفسهم . وكم من عاقل اهتدى إلى الله عن طريقها ، وترك الآلهة التى ثبت له عجزها . وهذا نموذج يوضح ذلك .

« خرج أعرابى إلى الصحراء حاملا صنمه المعبود . وفى مكان ما وضع ذلك إلاله المحمول ثم ذهب لقضاء حاجته . عند عودته رأى (بَلَلاً على رأس الإله ووجهه فتحير الرجل وقال فى نفسه إن السماء لم تمطر ، ولم يقم أحد بغسل الإله تقديسا له . ثم حانت منه التفاتة باحثة فرأى على القرب ثعلبين يتقافزان فاستقر الحق فى ذهنه ولمع عقله وعرف أن الثعلبين قد بَالاَ على وجه ربه المزعوم الذى لم يتمكن من دفع هذه المهانة عن نفسه ، فأنشد يقول معلنا إيمانه بالله ، وبعده عن عبادة الآلهة التى لا تدفع عن نفسها » .

أربٌّ يبول الثعلبان برأسه ... لقد ذل من بالت عليه الثعالبُ
فلو كان ربا كان يمنع نفسه ... ولكنه رب تأته المطالب
برئت من الأصنام فى الأرض كلها ... وآمنت بالله الذى هو غالب

ولهذا نجد أن الرسول ﷺ كان يعلنها صيحة مدوية لهؤلاء الكافرين بأنه مأمور بالإيمان بالله الواحد الأحد ، ثابت على الحق لن يزول عنه مهما حاول أعداء الحق ذلك ، لأنه معه من الله معينٌ وظهير.

تكرار الدعوة إلى اتباع الحق

قال الله تعالى :

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ (١)

حاول الرسول ﷺ مع أهل مكة كثيراً . وكذلك مع غيرهم ليبين لهم الحق الذى بعثه الله به ، وسلك معهم أكثر من مسلك ، ولكنهم صموا آذانهم واستغشوا ثيابهم ، وتواصو بالشر ، وتشبثوا بالكفر . وكانوا يحاولون اللغو عندما يتلو الرسول ﷺ القرآن وينهون غيرهم عن سماعه .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ (٢)

بل كانوا صورة قريبة الشبه بقوم نوح عليه السلام حيث أصروا ، واستكبروا استكباراً ، وتمسكوا بباطلهم عناداً وتجبراً .

وتكررت الدعوة واشتد الإصرار ، وأخيراً قال الله لنبيه محمد ﷺ : قل لهم يا محمد قد جاءكم الحق من ربكم . والحق يقصد به القرآن ، وقد يقصد به الرسول نفسه أو حتى الإسلام . فمن اهتدى والتزم الجادة نجا ، وعاد ثواب هدايته إلى نفسه يوم القيامة ولن يعود على الله شئ من كثرة المهتدين ، ومن غوى وضل الطريق وانساق فى تيار الباطل فسيصل إلى أسوأ العواقب . ولن تضر الله كثرة العصاة .

والحديث القدسى يجلى ذلك أعظم جلاء فيقول رب العزة سبحانه :

(يا عبادى لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم، وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل

---

(١) سورة يونس آية ١٠٨

(٢) سورة فصلت آية ٢٦

واحد مازاد ذلك فى ملكى شيئا ، ولو أن أولكم ، وآخركم ، وإنسكم ، وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص من ملكى شيئا .

يا عبادى إنكم لن تملكوا نفعى فتنفعونى ، ولن تملكوا ضُرى فتضرونى .

يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها عليكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه [1]

ثم بعد هذا البيان من رسول الله ﷺ للكافرين يقول : ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾[2]

فلست حافظا أعمالكم ولا متسلطا عليكم . لأن هذا ليس من اختصاصى فلا إلزام منى لأحد حتى يتبع الحق . فدين الله لا إكراه فيه . وكيف أفعل ذلك والله سبحانه يبين لى خطة عملى.

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[3] .

★ ★ ★

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه

(٢) سورة يونس آية ١٠٨

(٣) سورة الغاشية آية ٢١، ٢٢

البعث وقدرة الله تعالى

قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ (١) .

النداء فى هذه الآية موجه إلى منكرى البعث . وهو يؤكد لهم خطأ تصورهم الذى أنكروا به البعث

﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ (٢) فهذا زعم باطل منهم أنكره عليهم رب العزة سبحانه بقوله :

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ (٣)

فقوله سبحانه : ﴿ وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ﴾ جملة اعتراضية ملفتة للنظر حيث تُذكِّر الإنسانَ بقدرة الله على الخلق والإيجاد ، وايضا أنكر هذا الزعم بقوله :

﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ (٤)

---

(١) سورة الحج آية ٥

(٢) سورة الواقعه آية ٤٧

(٣) سورة يس آية ٧٨، ٧٩

(٤) سورة لقمان آية ٢٨

ثم نجد الرسول ﷺ يعلن قدرة الله على البعث فى أول خطاب وجهه إلى قومه (والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن على ما تعملون) .

بعد هذا الذى يدل على أن البعث واقع لا محالة يبين القدير القاهر أن البعث هِّين على مَنْ خَلَقَ الإنسان الأول من تراب ثم خلق منه زوجة ثم خلق الذرية من الماء المهين ثم حول بقدرته تلك النطفة إلى علقة - دم طرى - ثم إلى مضغة من اللحم أنشئت بقدرة الله خلقا آخر . كل ذلك يجرى فى أربعة أشهر ثم تنفخ الروح فى الأيام العشرة الأولى من الشهر الخامس ، ويرى ابن عباس رضى الله عنه أنه كانت عدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشرا كانت كافية للتثبت من الحمل وحركة الجنين .

وعِلْمُ الأجنَّة يقف مبهوراً أمام هذا الإفصاح حيث نَّوه الإسلام بأساس هذا العلم من حوالى أربعة عشر قرنا . وعلى يد مَنْ ؟ على يد أمِىّ لم يدرس طِبًّا ولا تشريحاً .

ولكنه تلقى عِلْمه من لدن حكيم خبير . وكما يقول القائل : (كفى بالعلم فى الأمى معجزة) وبهذا وضع الإسلام الخطوط العريضة (لعلم الأجنة) .

وإذا عرف الأطباء أن الرسول ﷺ قد أشار إلى أنه فى الإمكان معرفة الحمل من عدمه بعد اثنين وأربعين يوماً فقط من استقرار النطفة فى الرحم . لزادهم ذلك دهشا ، ولوقفوا أمام قدرة الله عاجزين . فعن حذيفة بن سعد الغِفَارِى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها مَلَكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم يقول : أى رب : أَذَكَر أم أنثى ؟ شقى أم سعيد ؟ ، ما الأجل والأثر ؟ ، بأى أرض تموت ؟ فيقال له : انطلق إلى أم الكتاب فَتخْلق فتأكل رزقها وتطأ أثرها . فإذا جاء أجلها قبضت فدفنت فى المكان الذى قدر لها » .

فإذا كان منكرو البعث يستكثرون إرجاعهم على الله فأولى بهم أن ينظروا فى تطور خلقهم فى بطون أمهاتهم وصدق الله العظيم

﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (١)

ثم نتتبع فقرات الآية لِنسْتَجْلِىَ بعض ما فيها من أسرار يقول الله تعالى :

﴿ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾

أى أنكم عقب استقرار النُطَف فى الأرحام . إما أن يقدر الله لكم الخلق أولا يقدر ذلك . فإن كانت الأولى تم التخليق والتصوير والاستقرار فى الرحم لحين إتمام أشهر الحمل . وإن كانت الثانية تميعت النطفة بقدرة الله ونزلت مع دم الحيض .

وفى هذا بيان لكمال قدرة الله وتصرفه . وبعد تمام مدة الحمل تتدارك الإنسان رحمات الله به وبأمه التى حملته فى أحشائها هذه الفترة متحملة آلامها ومشقاتها حيث يأمر اللطيف الخبير مَلَك الأرحام بتيسير إخراج الجنين . ثم يُجْرِى الرزاقُ سبحانه رزق هذا الجنين متمثلا فى اللبن السائغ للشاربين من بين فرث ودم . ثم يبدأ الإنسان رحلة عمره طالت أم قصرت سعيد فيها أم شقى ، وهو بين أمرين إما أن يموت فى مقتبل عمره ، واما يستبقى إلى أرذل العمر ، وهى الفترة التى يهرم فيها الإنسان ويخْرف دون عقل هذه الفترة هى التى استعاذ منها الرسول ﷺ فى دعائه « اللهم أنى أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن . وأعوذ بك أن أُرَدَّ إلى أرذل العمر . وأعوذ بك من فتنة الدنيا وعذاب القبر » (٢)

ثم نجد الأسلوب القرآنى البارع فى ضرب الأمثال يعبر عن إمكان البعث فيقرب ذلك إلى العقل بمَثَل ملموس : هو الأرض حيث يعيش عليها الإنسان عمره ويقع نظره عليها حين جَدْبِها وجَوْدتِها . فتارة يراها مقفرة جرداء . وأخرى يانعة مثمرة مكسوّة

(١) سورة الذاريات آية ٢٠

(٢) رواه البخارى

بالخضرة . فهذه الخضرة لا شك ناتجة عن حياة الأرض وخصبها عقب نزول المطر عليها .

﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ (١)

ثم تعقب هذه الآية آية أخرى تتمم المراد

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢)

تباركتْ يا أللهُ قدرتُك وتعالى جَدّك وآمنا بك

(٢) قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ (٣) .

مقدمة :

كثيرا ما نرى القرآن يضرب الأمثال للناس . وهذا أسلوب بارع فى كيفية تقريب المراد من الأذهان . وإعدادها وتهيئتها للالتقاء معه على سبيل المثال لا الحصر .

قوله تعالى :

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ (٤)

---

(١) سورة الحج آيه ٥
(٢) سورة الحج آية ٦
(٣) سورة الحج آية ٧٣
(٤) سورة النور آية ٣٥

قوله تعالى :

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾ (١)

قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ (٢)

والأمثال ومشتقاتها وردت فى القرآن الكريم ١٦٩ مرة من بينها الآيات التى معنا كما أن السُّنة لم تغفل ضرب المثل جريا على نهج القرآن يقول ﷺ : « مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم مثل الجسد ـ الحديث » (٣) ويقول : « ان مثل ما بعثنى الله به من الهُدَى والعلم كمثل الغيث أصاب أرضا ـ الحديث » (٤) ويقول : « مَثَلِى ومَثَلُ الأنبياء من قبلى كَمثَلِ رجل بنى بيتا ـ الحديث » (٥)

ومما لا شك فيه أن الأمثال تضرب ليعقلها أصحاب الأفئدة المستنيرة ، والبصائر المشرقة يقول الله تعالى تصديقا لذلك : (٧)

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ (٦)

وفى هذه الآية يضرب الله عز وجل مَثَلاً لما يُعْبَدُ من دونه سبحانه . ويبين للمشركين أن الأصنام المعبودة عاجزة عن خلق شئ مهما كان حقيراً . ولقد ضرب المثل بالذباب لحقارته وضعفه . فإذا كانت الآلهة الزائفة عاجزة عن خلق الضعيف الحقير فهى على خلق غيره أكثر ضعفا ، وأتم عجزاً .

---

(١) سورة الجمعة آية ٥
(٢) سورة إبراهيم آية ٢٤
(٣) أخرجه مسلم
(٤) رواه البخارى
(٥) أخرجه مسلم
(٦) سورة العنكبوت آية ٤٣

ثم تنزل الآية بالتحدى إلى ما هو أضعف فتقول لهم : إن هذا الذباب لو أخذ من الأطعمة التى تضعونها بين الآلهة شيئا بخرطومه الإسفنجى الدقيق . فلن تستطيع تلك الآلهة استخلاصه من جسم الذباب . لأنه يتحول بعد فترة من الزمن وجيزة إلى عنصر غذائى ينتشر فى الجسم كله فور انتقاله من الخرطوم .

بل أكثر من هذا . لو أن الذباب حاول إيذاء العابدين وهم خشع أمام آلهتهم فلن تقدر تلك الآلهه على حمايتهم من أذى الذباب . صدق الله ﴿ ضعف الطالب والمطلوب ﴾ وهذا إمعان فى تحقير المعبودات من دون الله يؤيده ما ورد فى قوله :

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (١)

ومن هذا كله يقر المؤمنون بقدرة الله على الخلق والإيجاد ويقدسون كلماته الآمرة ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢)

---

(١) سورة الأنبياء آية ٩٨، ٩٩

(٢) سورة لقمان آية ٢٧

شكر النعمة ملازم للايمان

قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ (١) .

يأمر الله سبحانه بشكر نعمه التى لا يحصيها عادٌ ولا يحيط بها غيره سبحانه . وأى نعم أعظم من تلك التى يسردها فى قوله :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (٢)

وفى قوله تعالى :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٣) .

وفى قوله :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾

---

(١) سورة فاطر آية ٣

(٢) سورة إبراهيم آية ٣٢، ٣٤

(٣) سورة الجاثية آية ١٣

﴿ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (١).

وفى قوله :

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٢).

ثم بعد هذا القدر القليل الذى أوردتُه من النّعم يتوج سبحانه نعمه على عباده بنعمة الإسلام .

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ۚ وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ ﴾ (٣).

ويبين العليم الخبير أنه يجازى عباده على الشكر بالزيادة

﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ (٤).

ويطلب منهم أن يتحدثوا بنعمه عليهم لأن فى ذلك موالاة لشكره

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ (٥) ومع شكر النعم لابد وأن يعرف الناس أن ربهم هو مصدرها ولا يجود بها غيره لأن خزائنه ملأى بالخير ، والكل محتاج إليه .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ (٦).

---

(١) سورة النحل آية ١٤، ١٦
(٢) سورة النحل آية ٦٦، ٦٧
(٣) سورة المائدة آية ٣
(٤) سورة إبراهيم آية ٧
(٥) سورة الضحى آية ١١
(٦) سورة فاطر آية ١٦

والـرسول ﷺ يوجه الأمة إلى ذلك فيقول ﷺ : « أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه » والعبد إذا اعترف بنعم الله عليه وبأنه سبحانه المعطى الوهاب بورك له فيما عنده . أما إذا تكبر وطغى وتطاول وادعى لنفسه جهداً . لم يؤد حق الفقراء . ولم يعد بهذه النعم على العباد .

فإنه سبحانه وتعالى سيعطيه منها المزيد لا لرضاه عنه ولكن استدراجا لهذا الكنود

﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

وأظن أن قارون نموذج لا يُنْسَى لكل مَنْ يحاول البغى ويرى له مع عطاء الله جُهْداً

﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ (٢) .

وعندما قال ذلك لم يأخذه الله مباشرة بل أمد له فى طغيانه وكثَّر له مالَه ثم أخذه أخذ عزيز مقتدر .

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾ (٣)

والرسول ﷺ يقول : « إذا رأيتم نعمة الله سابغة على عبد وهو لا يشكرها فاعلموا أنه مستدرج » ثم إن المعاصى تذهب النعم . فلنشكر نعم الله علينا ولنحمده فى كل لحظة فله الشكر وله المنه والحمد لله رب العالمين . . .

تم بحمد الله يوم السبت ١٢ من ربيع الأول ١٣٩٦ هـ ١٣/٣/١٩٧٦ م

---

(١) سورة الأعراف آية ١٨٢
(٢) سورة القصص آية ٧٨
(٣) سورة القصص آية ٨٠

الفهرس

الموضـــوع	الصفحـــة
مقدمـة	ط

الفصل الأول

النداءات والأحكام الموجَّهة إلى الرسول ﷺ	١
التثبيت وعدم الخوف	٣
ضرورة تبليغ الرسالة	٦
النهى عن طاعة الكافرين	٨
تخيير نساء النبى محمد ﷺ بين الدنيا والآخرة	١٠
تكريم وإيناس	١٢
الحالة الاجتماعية للرسول محمد ﷺ	١٤
الاحتشام والستر فى الإسلام	١٧
تشريعات الطلاق	٢٠
الأيمان وكفاراتها	٢٩
تأديب أعداء الله	٣٢
استمرار التأييد للرسول ﷺ وللمؤمنين	٣٤
الدعوة إلى الجهاد وتحريض المؤمنين	٣٦
أمر الأسرى فى بدر	٣٩
بيعة النساء عقب الفتح	٤١

الموضـــوع	الصفحـــة

الفصل الثانى

النداءات الموجَّهة إلى المؤمنين

مقدمة توضيحية ٤٩
الإيمان والطاعة ٥١
خطر الارتداد عن الدين ٦٠
التحذير من الخيانة ٦٤
الأمر بالصدق ٦٦
التذكير بالقيامة والحث على التقوى ٧٠
وجوب ذِكْرِ الله تعالى ٧٢
التوبة إلى الله تعالى ٧٧
الوفاء بالعقود ٨١
تعظيم الحرمات ٨٦
ترك ما لايفيد ٩٠
الصلاة على النبى ﷺ ٩٤
الإنفاق فى سبيل الله ٩٧
النهى عن المنِّ والأذى فى الصدقة ١٠٢
الالتزام بقول الحق ١٠٥
الوقاية من النار ١٠٨
أدب مخاطبة النبى ﷺ ١١١
حرمة المسلم ١١٧

الموضـــوع	الصفحـــة

آداب المجلس ١٢٥
النهى عن موالاة الأعداء ١٢٨
آداب الاستئذان وحرمة المنازل ١٣٨

النداءات الخاصة بالتشريع

الدعوة إلى الطهارة والصلاة ١٤٣
أنواع الطهارة الظاهرة ١٤٥
الصلاة ١٥٠
أنواع من الصلاة مرفوع فيها الحرج عن المسلمين ١٥٥
الصوم ١٥٨
أنواع الصيام وعلى من يجب ١٦١
القصاص ١٦٦
تحريم الخمر والميسر ١٧١
التداوى بالخمر ١٧٥
عقوبة شارب الخمر ١٧٦
مكانة المرأة فى الإسلام ١٧٨
تكريم الإسلام للمرأة ١٨٢
تعدد الزوجات ١٨٦
محظورات الإحرام ١٩٧
الإشهاد على الوصية ٢٠٢
النهى عن الربا وأكل أموال الناس بالباطل ٢٠٦

الموضـــوع	الصفحـــة

أسلوب القرآن فى تحريم الربا ٢٠٨
فوائد البنوك ٢١٣
الديون والمعاملات ٢١٥
الرهن ٢١٨
العدة وأنواعها ٢٢٢
امتحان المؤمنات المهاجرات ٢٢٦
الجهاد فى الإسلام ٢٢٩
الثبات فى الجهاد من عوامل النصر ٢٣٦
مراعاة المشاعر الإنسانية ٢٤٩
الخبر بين الصدق والكذب ٢٥١
الحكم على الظواهر لا على البواطن ٢٥٣
الدعوة إلى السلام والإسلام ٢٥٥

القسم الثالث

النداء بيأيها الناس ٢٥٩
وجوب عبادة الله سبحانه ٢٦٢
الأكل من الطيبات ومخالفة الشيطان ٢٦٤
التنبيه على وحدة الأصل الإنسانى ٢٦٧
أهوال القيامة ٢٦٩
الإيمان بما جاء به الرسول محمد ﷺ ٢٧٣
عموم الرسالة المحمدية ٢٧٥

الموضـــوع	الصفحـــة

عاقبة البغى وخيمة ٢٧٧
تنبيه الأذهان إلى فضل القرآن ٢٧٩
إعلان ثبات الرسول محمد ﷺ على التوحيد ٢٨١
تكرار الدعوة إلى اتباع الحق ٢٨٣
البعث وقدرة الله تعالى ٢٨٥

* * *

رقم الايـداع ٨٦٥٧/ ١٩٩٠
I.S.B.N.
977 - 5147 - 02 - 6